Made in U.S.A

# ايها المثقف/الناشط:
## كيف قرأت الحرب على لبنان؟

**ملف من إعداد: سماح إدريس**

**شارك في الإعداد: كيرستن شايد (بيروت)، ياسين الحاج صالح (دمشق)، عبد الحق لبيض (الدار البيضاء)، أحمد الخميسي (القاهرة)، عمر البرغوثي (رام الله)**

بدأتُ إعداد هذا الملف بعد أيام قليلة من توقُّف العمليات الحربية الإسرائيلية في الأسبوع الثاني من آب (أغسطس). وكان الهدف أن أحْصل على شهادات ودراسات لا تتجاوز السبع، فإذا بها تمتدّ حتى بلغتْ ما ترونه هنا يا أعزّائي القرّاء. والمشاركون هنا إمّا أساتذة جامعيون، أو باحثون مستقلّون، أو موسيقيون، أو فنّانون، أو ناشطون، أو قادة سياسيون، فضلاً عن كاتبة أطفال وفنّانة تشكيلية ومخرج سينمائي.

وهم أيضًا من جنسيات مختلفة لبنانية، وفلسطينية، ومصرية، وسورية، وأميركية، وبريطانية، ومغربية، وعراقية، وإيرانية، وباكستانية

أما من حيث مضمون هذه الأوراق فقد تراوحتْ بين الأبحاث التحليلية، والشهادات الشخصية، والمواقف السياسية (المؤيِّدة والمعارضة للمقاومة الإسلامية أو المتحفِّظة عنها)، والتجارب المتنوِّعة في مجال المقاومة المدنية، وخليطٍ من هذه جميعها.

فللمشاركين كلّهم شكرُ الآداب العميق. والشكر أيضًا للمصوِّرين الذين رافقوا «حملةَ المقاومة المدنية» غابرييلا بوليسوفا ودجوني باربرْ (فضلاً عن عضويْ «الحملة» پول لارودي وكيرستن شايد) وعسى أن يجد القرّاء في هذا الملفّ پانوراما شبهَ شاملة عن صور المثقف/الناشط أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان صيفَ ٢٠٠٦ .

**والمشاركون هم (ألفبائيًا):**

- إبراهيم صموئيل
- إبراهيم علوش
- أتّاك ـ لبنان
- أحمد الخميسي
- إسطفان شيحا
- إصلاح جاد
- جاد الكريم الجباعي
- جون تشالكرافت
- حميد دباشي
- خالد جبران
- رنا بشارة
- زياد حافظ
- سامي سويدان
- سماح إدريس
- سنان أنطون
- سيّد البحراوي
- طارق علي
- عبد الحق لبيض
- عبد الصمد بلكبير
- عثمان أشقرا
- فاطمة شرف الدين
- ماري ك. ويلسون
- المصطفى المعتصم
- ملاك خالد
- منى حرب
- منذر سليمان
- منير شفيق
- نداء أبو مراد
- نوم تشومسكي
- هاني أبو أسعد
- ياسين الحاج صالح

**الصور لـ: غابرييلا بوليسوفا، دجوني باربرْ، پول لارودي، كيرستن شايد.**

# أسئلة الحرب والمقاومة والشواغل المتداولة

سامي سويدان

على المرء أن يكون على حظٍّ كبير من السذاجة كي يرى في قرار مجلس الأمن الأخير (رقم ١٧٠١)، الداعي إلى وقف العمليات الحربية في لبنان من قِبل مقاتلي حزب الله والجيش الإسرائيلي، نهايةً للحرب المدمِّرة التي شنّها هذا الأخيرُ على هذا البلد طيلة أكثر من شهر بدءًا من ١٢/٧/٢٠٠٦. وقد لا يُخطئ مَنْ يرى في ذلك القرار إعلانًا لهدنةٍ هشّةٍ لن تتأخّر عن الانهيار، نظرًا إلى بقاء جميع الأسباب قائمةً، بل وإلى اتجاهها نحو التزايد والتفاقم. كما قد لا يكون بحاجة إلى كثير من الذكاء كي يجد أنّ القرار المذكور يفسح المجالَ أمام إسرائيل لتحقيق بعضٍ من أهداف حربها، ويُبْقي يدَها العسكريةَ طليقةً لمتابعةِ ما عجزتْ عن إنجازه حتى حينه.

لعلّ هذا القرار يَعْكس بجلاءٍ توازُنَ القوى بين الطرفَيْن المتحاربيْن، حيث يَرْجح الطرفُ الإسرائيلي - الأميركي (- الفرنسي) على الطرف الحزب اللّهي - الإيراني (- السوري). إلاّ أنّه يأتي في الوقتِ نفسه نتيجةَ وضعيةٍ محليةٍ وعالميةٍ لا تَخْرج عن إطار التوازن المذكور بل تَرْفده بدعم أكبر، في ما يُعْتبر **العلامةَ الفارقة الأولى** التي وَسَمَتْ هذه الحرب. فمن ناحية، برزتْ غالبيةٌ دوليةٌ ساحقةٌ مؤيِّدةٌ للموقف الإسرائيلي، ما كانت لتتكوّن لولا الجهودُ الأميركيةُ (والأوروبيةُ التابعة) الحثيثة، خصوصًا منذ أيلول ٢٠٠١، لجعل «الإرهاب» في مقدِّمة المهامّ التي تتصدّى لها عالميّاً، ولإدراجها حزبَ اللّه (وإيرانَ وسوريا) في قائمة القوى الممثِّلة له أو قوى الشرّ التي تَعْمل على استئصالها. وأخطرُ ما نَتَجَ عن ذلك رأيٌ عامٌّ غربيٌّ، مُسلِّمٌ - إلى حدٍّ كبيرٍ - بما كانت تمارسه إسرائيلُ من حربِ إبادةٍ منهجيّةٍ ساحقة في لبنان

من ناحيةٍ ثانية برز تفاوتٌ واضحٌ في مواجهة هذه الحرب بين المستوى العسكري والمستوى الدبلوماسي. وهذا التفاوت انعكاسٌ للشرخ القائم بين الطرف المقاتل (حزب اللّه)، والطرفِ الحاكم (الأكثرية جماعة ١٤ آذار) الذي يدين للمحور الأميركي - الفرنسي بوصوله إلى السلطة وحمايةِ استمراريّته فيها. وهذا ما يمكن اعتبارُه **علامةً فارقة ثانية** في هذه الحرب. ففي حين كان تصدِّي المقاومة اللبنانية للعدوان الإسرائيلي متينًا وراقيًا وفعّالاً، كان تعاملُ الحكومة اللبنانية السياسي والدبلوماسي معه متردِّدًا متباطئًا وغيرَ حازمٍ إجمالاً. وفي وقتٍ كانت فيه الولاياتُ المتحدة تَنْشط في دعم العدوان الإسرائيلي، كان ممثِّلوها يَحْظَوْن بترحيب المسؤولين اللبنانيين وزعماءِ الأكثرية الموالين الذين كانوا يتلقَّوْن توجيهاتهم ويعملون وسعَهم بموجبها. وكان خمودٌ مريبٌ يخيِّم على البعثات الدبلوماسية، وبدت وزارةُ الخارجية شبهَ معطَّلة، وقد هُمِّش وزيرُها إلى أقصى حدّ، وافتقرتْ إلى الشخصيات الكفيّة في ظرفٍ كانت في أمسّ الحاجة إليها. ولم تكن أحوالُ بقيةِ الوزارات المعنيّة بالحرب، مثل الإعلام والاقتصاد، ناهيك بالدفاع والداخلية، أفضلَ حالاً.

إذا كانت قيمةُ القرارات الدولية الفعلية منوطةً بقدرة الدول المعنيّة على تنفيذها، فإنّ قرار مجلس الأمن ١٧٠١، مضافًا إلى قراره السابق ١٥٥٩ وغيره من القرارات ذاتِ الصلة، يتيح للولايات المتحدة (وإسرائيل) وسيلةً لبقاء الوضع في لبنان رهنَ سيطرتها، ويكرِّس انكشافَ هذا البلد إزاءَ تدخُّلات الدول الأجنبية الكبرى (وبخاصةٍ الولاياتُ المتحدة وفرنسا)، ويجعله عرضةً لتقاطع مصالحها والتسويات المختلفةِ الناشئةِ عنها في المنطقة والعالم. والحال أنّه من الصعب مواجهةُ هذا الأمر ومضاعفاته الخطيرة من قِبل دولةٍ تعاني الارتهانَ والانقسامَ اللذيْن أبْديا عجزَها الفاضحَ خلال الحرب. فلقد حَمّلَ الارتهانُ إلى اللبنانيين العديدَ من الكوارث، وكان الانقسامُ الطريقَ التقليديَّ الذين اتّخذتْه الدولةُ الأجنبيةُ لبسط نفوذها على أرضهم والجوار. وفي الوقت الذي تتردّد فيه الدعواتُ إلى الالتفاف حول الدولة، يَفُوت أصحابَها التنبُّهُ إلى ضرورة أن تكون هذه الدولة قبل أي شيءٍ آخر وطنيةً وواحدةً وجامعةً، واضحةَ الاختيارات التحرُّرية والانتماءات القومية، غيرَ متوزّعةٍ في ارتهاناتٍ لدول أو ولاءاتٍ لطوائف، قائمةً على الحقّ والعدل والاستقامة والإنماء.

الدولة في جوهرها جدليةُ استقطابٍ اجتماعيٍّ مركزيّ عامّ، قائم على الجذب والإلزام، والإغراءِ والإرغام. إنّها مشروعُ بناءٍ سياسيٍّ تاريخيٍّ مستمرٍّ لأمةٍ أو لشعبٍ في أبعاده الحضارية والإنسانية، وليست منشأةً اقتصاديةً عابرةً تَحْكمها معاييرُ الربح والخسارة السُّوقية. إنّ دولة لا تُعْنَى بقضايا تحرير الأرض والشعب، ولا

غابرييلا دوليسوڤا

كتب مُنقذة من الضاحية الجنوبية لبيروت

تهتمُّ بحرية المواطن وكرامته، وتستهينُ بالقيم الوطنية والقومية، وتَدْخل في علاقات من التبعية والارتهان، هي دولةٌ محتَقَرَةٌ. وإنّ دولةً لا تؤمّن ضروريات الحياة، من تعليم وعملٍ وطبابةٍ وسكن، وتُهْمل مداخيلَ الضرائب على التوظيفات المالية الأجنبية، وتُغْفل تسويةَ مخالفات البناء على الشواطئ اللبنانية، وتَحْرص على أن تُقاسِمَ صناديقَ أمراءِ الطوائفِ ريعَها (كما يَحْدث في صندوقِ المهجَّرين، ومجلسِ الجنوب، ومجلسِ الإنماء والإعمار ـ على خصوصية هذا الأخير) في حين لا تكفّ مديونيّتُها عن الارتفاع والضرائبِ العامةِ غيرِ المباشرة عن الاتساع، إنّما هي دولةُ ظلمٍ وفساد، وهي دولة منفِّرة وفي الحالتيْن من الاحتقار والتنفير، تتخلّى الدولةُ عن مقوِّماتها وعن دورها وهي بذلك تَدْفع مواطنيها إلى التخلّي عنها واللجوءِ إلى بدائل لها ـ إلى مشاريع الدويْلات الطائفية المتفرِّجة والمتنافسة، وإلى مؤسّساتِ الولاء الديني والمذهبي و/أو الارتهان الأجنبي ـ وتضعهم على أبواب الانقسامات الاجتماعية الحادة وعند ساحات الحرب الأهلية (لعلّ وضعية التعليم، تحديدًا، تقدِّم في هذا الإطار مثلاً بليغًا على ذلك).

لقد شكّل تحريرُ الأرض اللبنانية في نيسان (أبريل) سنة ٢٠٠٠، بانسحاب الجيش الإسرائيلي منها إثر الضربات الموجعة التي كان يتلقّاها من المقاومة الوطنية (حزب الله)، حدثًا تاريخيّاً استثنائيّاً في سياق الصراع اللبناني (والعربي) ـ الصهيوني كما شكّلَ فرصةً نادرةً لتعبئةٍ شعبيةٍ عامة، وتوطيدِ وحدةٍ وطنيةٍ جامعة. وتوفّرت جملةٌ من الشروط لاتخاذ ذلك الإنجاز معطًى بارزًا في تراث النضالات الوطنية والعربية من أجل الحرية والاستقلال والكرامة والحقّ، ولإدراجه درسًا بليغًا من دروس المقاومة والتحرير في مناهج تدريس الناشئة أينما كانوا، وفي برامج إعدادِ أولئك الذين يؤدّون خدمةَ العَلم، ومرجعًا وثائقيّاً أساسيّاً للدراسات التاريخية أو النشاطات الثقافية والفنية بَيْدَ أنّ شيئًا من ذلك كلِّه لم يحصلْ أو يكاد، وتقاعست الدولةُ تحديدًا عن النهوض بمسؤوليّتها في هذا المجال.

وبالإمكان اعتبارُ مجابهة المقاومة الوطنية (حزب اللّه) للعدوان الإسرئيلي الأخير حدثًا تاريخيّاً لا يقلّ أهميةً وأثرًا على المستوى الوطني عن حدث التحرير. عَلَّ الدولةَ لا تضيِّع اليومَ، كما فعلتْ بالأمس، الفرصةَ المتاحةَ من خلاله لتوطيدِ كيانٍ وطني متلاحم لا يمكِّنها من مواجهة مضاعفات العدوان المذكور وحسب، وإنّما يؤسِّس كذلك لمستقبلٍ سياسيّ أفضل للشعب اللبناني والدولة اللبنانية. ولا يحتاج القيامُ بذلك إلى معجزات، وليس المطلوبُ لذلك إجماعًا هو (في مثل هذه الحالات) مستحيلٌ إجمالاً أو مزيَّف: بل قد تكون الأكثريةُ الساحقةُ كافيةً، ويمكن القولُ إنّها

# أسئلة الحرب والمقاومة والشواغل المتداولة

متوفّرة فعلاً: إنّها أكثريةٌ ماثلةٌ خصوصًا في القواعد الجماهيرية لحزب اللّه وحركة أمل والتيار الوطني الحرّ وتيار المردة والحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي وتيار المستقبل والعديد من المنظّمات والتجمُّعات الوطنية، وفي جماعات كبيرة من الشعب غير مرتبطةٍ بالتنظيمات السياسية المختلفة. إنّما المسألةُ في النهايةَ مسألةُ اختيارٍ بين التشرذم والتحالف المرحلي والمصالح الضيقة والتبعيات المتنوّعة المؤدّية إلى العجز والاندحار من جهة، وبين التماسك الثابت والتلاحم المتين والوحدةِ الوطنية الجامعة المُفْضية إلى القوة والانتصار من جهة ثانية. إنّ ضرورة الحسم في هذا الاتجاه أو ذاك تبدو اليومَ ملحّةً بل وداهمةً، وعلى أساسها يتحدّد مصيرُ الوطن دولةً وشعبًا.

إذا كانت العلامةُ الفارقةُ الأولى نشازًا يستدعي إصلاحُه مساهمةَ قوًى خارجية تتخطّى إرادةَ السلطات اللبنانية أو القوى المحلية وقدراتها، فإنّ الثانية نشازٌ آخر تتحمّل هذه السلطاتُ والقوى تبعاتِه أو على الأقل مسؤوليةَ التقصيرِ في إصلاحه ـ رغم أنّ هذا الإصلاح رهنُ إرادتها وفي حدود قدراتها

ضمن هذا المنظور الأخير يمكن وضع ذلك النشاز المتمثّل في **العلامة الفارقة الثالثة** للحرب الإسرائيلية على لبنان، والمشيرة إلى التقصير العربي الفاضح في مواجهتها. إذ لم تَبُؤ اجتماعاتُ مجلس الجامعة العربية على مستوى وزراء الخارجية بأيّ إجراءٍ ملموسٍ في هذا الشأن، بل لم يَصْدر عنها تلويحٌ باللجوءِ إلى أيّ وسيلةٍ ضغطٍ ممكنٍ لوقف العدوان الإسرائيلي. ولولا بعضُ المبادرات المستقلّة (من هِباتٍ ومساعداتٍ مالية سعودية وكويتية ونشاطاتٍ دبلوماسيةٍ قطرية . )، لكان الغيابُ العربيُّ مجلجلاً.

وإذا صحّ ما ذكرتْه بعضُ وسائل الإعلام عن دعمٍ مثلّث «السعودية ومصر والأردن» هذا العدوانَ حتى إنجاز مهمّتهَ في القضاء على حزب اللّه، فإنّ ذلك قد يفسِّر ذلك الغيابَ وقد يعلّل أيضًا عدمَ شعور أيّ من الدول العربية التي تقيم علاقاتٍ دبلوماسيةً مع إسرائيل (ومنها مصرُ والأردن) بالحَرَج إزاء مبادرة الرئيس الفنزويلي هيغو شافيز سَحْبَ سفير بلاده من إسرائيل احتجاجًا على عدوانها الظالم على لبنان وذلك يَفْترض إعادةَ نظر في المؤسسات العربية المختلفة والأنظمة والقوانين التي تَحْكمَ أعمالَها لتصبح أكثرَ جدوى وفعاليةً ممّا هي عليه. إلاّ أنّ ما يَجْدر أخذُه في الاعتبار، قبل أيّ شيءٍ آخر، هو علاقةُ لبنان بسوريا، وهي العلاقة التي ينبغي أن تَحْظى بالأولوية في سلّم اهتماماتِ لبنان العربية. فما دام بابُ دمشق مغلقًا، فسيكون عبثًا البحثُ عن عاملٍ عربيّ إيجابيّ فاعل ولا يمكن حلُّ المشكلات العالقة بين سوريا ولبنان، شرطَ إرساء علاقات سويّة وفاعلة لصالح الطرفيْن، في ظلّ القطيعةِ بل الاشتباكِ اليوميِّ بينهما. في هذا الإطار تتّضح مرامي الحرص الذي تبديه فرنسا والولاياتُ المتحدة ـ ناهيك بإسرائيل ـ على إذكاءِ هذا الاشتباك وتكريس تلك القطيعة. ولعلّ النظامَ السوري، إذ يضيف إلى تسلُّطه وفسادِ بعض أركانه وتحكميّةِ مخابراته فجاجةُ بعض قادته وقِصَرُ نظرهم، فإنّه لا يهدِّد نفسَه فقط بل يهدِّد لبنانَ كذلك بمخاطرَ لا تُحدّ. ضمن هذه الرؤية يبدو هذا النظامُ في مواجهة التحدّيات التي يتعرّض لها من الداخل والخارج، خصوصًا ما يتعلّق منها بلبنان، في مأزقٍ متمثّلٍ في الضرورة الملحّة بالتغيير في بنيته وبرامجه ومواقفِه وتحالفاتِه وعدم قدرته و/أو عدم إرادته القيامَ بذلك، إنّ مسعًى للخروج من هذا المأزق تبادرُ إليه حكومةُ وحدةٍ وطنيةٍ لبنانية، مدعومةٍ من قوًى سياسيةٍ لا يُشتَبَه في انتمائها إلى محاور إقليمية أو عالمية معاديةٍ للنظام المذكور، قد يشكّل مدخلاً مناسبًا لفتح باب دمشق (والبلاد العربية) أمام علاقاتٍ راقيةٍ متعادلةٍ تأخذ في الاعتبار قبلَ أيّ شيء آخر مخاطرَ المشاريع العالمية (الأميركية خصوصًا، وإنّما أيضًا الفرنسية) والإقليمية (الإسرائيلية خصوصًا، وإنّما أيضًا الإيرانية) المتداولة بالنسبة إلى منطقة الشرق الأوسط والبلدان العربية

**العلامة الفارقة الرابعة** هي كونُ هذه الحرب حربَ جرائم شنّها العدوُّ الإسرائيلي قبل أن ينكفئ معترفًا بعجزه عن تحقيق الأهداف المختلفة التي جعلها شرطًا لوقفه إطلاقَ النار. حتى ليمكن اعتبارُ هذه الحرب، بالنسبة إلى الجيش والكيان الصهيونيْن، حربَ العار الدميم الذي وصمهما.

لقد قام تاريخُ هذا الكيان على الحرب وشكّل جيشُه بانتصاراته المتواترة في جميع المعارك التي خاضها ضمانَ وجوده ومدارَ فخره، حتى تحوّلَ بذلك إلى أسطورة «الجيش الذي لا يُقهر،»

غابرييلا بوليسوڤا

التعزية في بيت بزيع (زبقين)

واكتسب شهرةً عالميةً جعلت العديدَ من الدول يلجأ إليه ويستعين بخبراته الناجعة ويشتري أسلحتَه المتطوّرة لكنّ هذا الجيش لم يستطيع خلال أكثر من شهرٍ في حربه على لبنان أن يسجّلَ أيَّ بطولةٍ عسكرية تُذْكر. فهو لم يتمكّن من إطلاق الجنديَيْن الإسرائيليَيْن الأسيريْن لدى حزب اللّه، ولم يتمكّن من أَسْرِ أيٍّ من قادة هذا الحزب أو اغتياله، ولم يتمكّن من وضع اليد على أيٍّ من مخازن الأسلحة والصواريخ التي لم يتوقّف مقاتلو الحرب عن إطلاقها على الأراضي الفلسطينية المحتلّة حتى اليوم الأخير من الحرب. وقد تركّزتْ عملياتُه الحربية على القصف بمدفعية الدبابات البعيدة المدى والبوارج الحربية، وبالصواريخ من سلاح طيرانٍ مشهودٍ له بالتفوُّق الساحق من حيث مهارةُ الطيارين وحداثةُ الطائرات. وكانت معظمُ المواقع التي استهدفها مدنيةً، في عمليةِ تدميرٍ منهجيّ لا تتورّع عن قتل المدنيين في بيوتهم وعلى طرقات فرارهم، مرتكبًا العديد من المجازر، ضمن سياسة واضحة من التنكيل المبرمج والأرض المحروقة والإبادةِ الجماعية جعلتْ حربَه على لبنان حربًا من الجرائم المنظّمة. وقد جاءت تكريسًا لسياسة عدوانية إجرامية طالما مارسها في غزّة (وفلسطين) في ظلّ تواطؤ أو تغافُلٍ دولي، إلى حدٍّ أضحى اعتمادُها تقليدًا عاديّاً لا يثير استهجانًا أو استغرابًا كي لا يقال إدانةً أو استنكارًا. وبلغ الأمرُ به أن راح يَعْتبر هذه المجازرَ أمرًا طبيعيّاً، بل يتباهى بارتكابها، فيَسْتعرض في قواعده أمام وسائل الإعلام أطفالاً إسرائيليين يوقّعون على قنابله وصواريخه، باعتبارها «هدايا» يرسلونها إلى نظرائهم في لبنان.

في المقابل أَظهرت الاشتباكاتُ التي وَقَعَتْ بينه وبين المقاومين عن تفوُّق مقاتلي حزب اللّه وإلحاقِهم خسائرَ فادحةً في صفوف جنده وآلياته، لتنهارَ بصورةٍ مزريةٍ أسطورةُ الجندي البطل الذي لا يُقْهر والدبّابةِ (الميركافا) التي لا تتحطّم ففي معظم المواقع التي تقدَّم إليها الجيشُ الإسرائيلي، لم يتمكّنْ من الثبات، وأُجبِرَ على الانكفاء. وبدا القصفُ الإسرائيلي العنيفُ للمدنيين اللبنانيين والمنشآت المدنية اللبنانية بمثابة تعويضٍ عن الخسائر الإسرائيلية الحاصلة في المعارك، وتغطيةٍ للهزيمة الإسرائيلية فيها. وهي هزيمةٌ أثارت خلافاتٍ حادّةً داخل الحكومة الإسرائيلية، وبينها وبين المؤسسة العسكرية وبعض القوى السياسية المعارضة، اضطرّتْ معها هذه المؤسسةُ إلى تغيير قيادة المنطقة الشمالية، وأُرغمت الحكومةُ على تأليفِ لجنةِ تحقيقٍ لمعرفة أسباب الخسارة.

على هذا النحو نَزَعتْ هذه الحربُ القناعَ ـ الأسطورة ـ عن وجه هذا الجيش البشع، وفَضحت المدى البعيدَ الذي يَبْلغه في أذيّته (أكثرُ من ثلث ضحاياه من الأطفال ) وفي العار الذي يَصِمُه

# أسئلة الحرب والمقاومة والشواغل المتداولة

ويُلْحِقُه ـ في الوقت نفسه ـ بالعالم، بقدْر ما يشكّل خطرًا عليه وجوديّاً وأخلاقيّاً يَجْدر التخلُّصُ العاجلُ منه ومعاقبةُ حاضنيه. والحال أنّه من المفترض أن تبادرَ إلى ذلك هيئاتٌ قانونيةٌ وإعلاميةٌ ودبلوماسيةٌ لبنانيةٌ قبل سواها، فتقدِّم الصورةَ الحقيقيةَ للجندي (والجيش) الإسرائيلي في إجراميّته ونذالته، وللشخصية الصهيونية في عنصريّتها وبربريّتها كما تجسّدتْ في مواقف بعض المسؤولين والمثقفين الإسرائيليين وتصريحاتهم خلال الحرب (التهديد بإعادة لبنان ٢٠ سنةً إلى الوراء، والدعوة إلى «محو» قرى وبلدات من الوجود، وإلى تدمير غزة ولبنان حتى آخر شخص...).

**العلامة الفارقة الخامسة** ماثلةٌ في المقاومة البطولية الرائعة للعدوان الصهيوني، ولعلّها هي الظاهرةُ الأكثر أهميةً والأبعدُ أثرًا بين مختلف الظواهر التي عرفتها الحربُ الإسرائيليةُ الأخيرة. إنّ أهمية هذه الظاهرة تتعدّى وقائعَها إلى ما يُمْكن اعتبارُه الصورةَ النموذجيةَ للمقاتل (والإنسان) العربي فعلى الامتداد التاريخي للصراع العربي ـ الإسرائيلي ـ باستثناءٍ نسبيّ في حرب ١٩٧٣ ـ هزائمُ رَسّخَتْ في الذهن العربي (والعالمي) صورةً بائسةً عن المقاتل (والإنسان) العربي، قوامُها العجزُ والتخلُّفُ والاستبدادُ والتعصُّبُ والرجعيةُ والغدر... مقابلَ الصهيوني القوي والمتحضِّر والمتفوِّق والديموقراطي. ولأول مرة تَبْرز في الحرب الأخيرة صورةٌ جديدةٌ عن المقاتل (والإنسان) العربي تقيم قطيعةً حادةً بينها وبين ما سبق. إنّها صورةُ المقاتل من أجل التحرير باقتدار وذكاءٍ وتواضعٍ وصدقٍ.. مقابلَ عدوٍ محتلٍّ ظالم ومتوحش ومتفوِّقٍ، عديدًا وسلاحًا، ولا يتورّع عن استباحة أيٍّ محظور لبلوغ غاياته العنصرية التدميرية.

ربما كانت هذه الصورةُ الجديدةُ مؤشِّرًا إلى انقلابٍ تاريخيّ في وضعية الصراع العربي ـ الإسرائيلي. في هذا الانقلاب يَمْثل الشرطُ الإنساني ـ الاجتماعي والحضاري العميق للصراع المذكور. وخطورةُ هذا الشرط قائمةٌ خصوصًا في تهديده مسارَ «السلام» الذي كان جاريًا بين العرب والصهاينة، في ارتهانٍ بارزٍ لتحكُّميةِ إسرائيل وعسفِ ممارساتها العنصريةِ والعدوانيةِ في الأراضي العربي المحتلّة. وقد يكون من المفيد هنا الإشارةُ إلى أنّ الانتفاضة الفلسطينية ليست منقطعةَ الصلة بالمقاومة اللبنانية. ومن ثمّ يمكن توقُّعُ تجاوز المضاعفات الناتجة عن المعطيات الجديدة التي أتت بها هذه المقاومة إلى الأرض الفلسطينية، دون أن تقتصر عليها وحدها. بيْد أنّ هذه المعطيات تُلْقي بآثارها أيضًا على الطرف الآخر، إذ تلتحم صورةُ المقاتل العربي الجديد بصورة الجندي الإسرائيلي المقابِلة لتُطيحَ بالتصور التقليدي للأمان الذي كان الإسرائيليون (خصوصًا في شمال فلسطين المحتلّة) مرتاحين إليه. فهؤلاء لم يعانوا فقط الأذى والرعبَ اللذيْن كانا، حتى الحرب الأخيرة، مقتصريْن على السكان المدنيين في جنوب لبنان، وإنّما فَرَضَ عليهم أيضًا مغادرةَ المنطقة والنزوحَ عنها إلى الداخل. كما برز لديهم اتجاهٌ للهجرة إلى الخارج، في ما يُعتبر قرينةً لوضعٍ انقلابيٍّ طريفٍ لم يَعْرفه الكيانُ الصهيونيُّ من قبل ـ وضعٍ يعيدُ النظرَ في وجود هذا الكيان نفسه، ويجعله لأول مرة محلَّ تساؤل إنْ لم يكن موضعَ تحذيرٍ وتلافٍ من قِبلِ يهودِ العالم، ناهيك بغير اليهود.

**العلامة الفارقة السادسة** في الحرب الأخيرة تتعلّق بدخول العامل الإيراني بقوة في صلب عملية الصراع العربي ـ الصهيوني. والحال أنّ هذا العامل ليس بطارئ كما تدلّ على ذلك مراجعةُ مواقف القادة الإيرانيين (من الخميني إلى أحمدي نجاد)، وعلاقاتُ الجمهورية الإسلامية الإيرانية بتنظيمات فلسطينيةٍ (وعراقيةٍ) إسلاميةٍ (وقوميةٍ) ناهيك بحزب اللّه والحكم السوري. وهو يَشحن البعدَ الإسلامي الناهض في هذا الصراع بمزيدٍ من الزخم، ويفتحه على آفاق وإشكاليات جديدة.

**العلامة الفارقة السابعة** خاصةٌ ببعض المقاربات التي قد يتيح التعرُّضُ لها تعيينَ المواقع التي تَصْدر عنها. وعَبْرها يتبيّن وجهٌ آخرُ للحرب، مكمِّلٌ لها، هو الوجه الثقافي، حيث يخوض المثقفون الحربَ في خصوصية المستوى الذي يفترضه انتماؤهم الاجتماعي وعلى طريقتهم التي يَفْترضها خيارُهم السياسي. وتتّضح الأدوارُ المختلفة التي يؤدّيها هؤلاء المثقفون ـ التحاقًا بأنظمة القهر والاستغلال والحرمان، وما يتصل بذلك من تبعية وتعمية وانتهازية.. أو مواجهةً لها، وما يرتبط بذلك من نضال وتنويرٍ وممانعة. وفي هذا السياق يمكن التوقُّفُ عند ظاهرتيْن تقليديتيْن في سجالات المثقفين صوابية التحليل والتعليل، وصحّة الطرح وتناوُلِ الوقائع

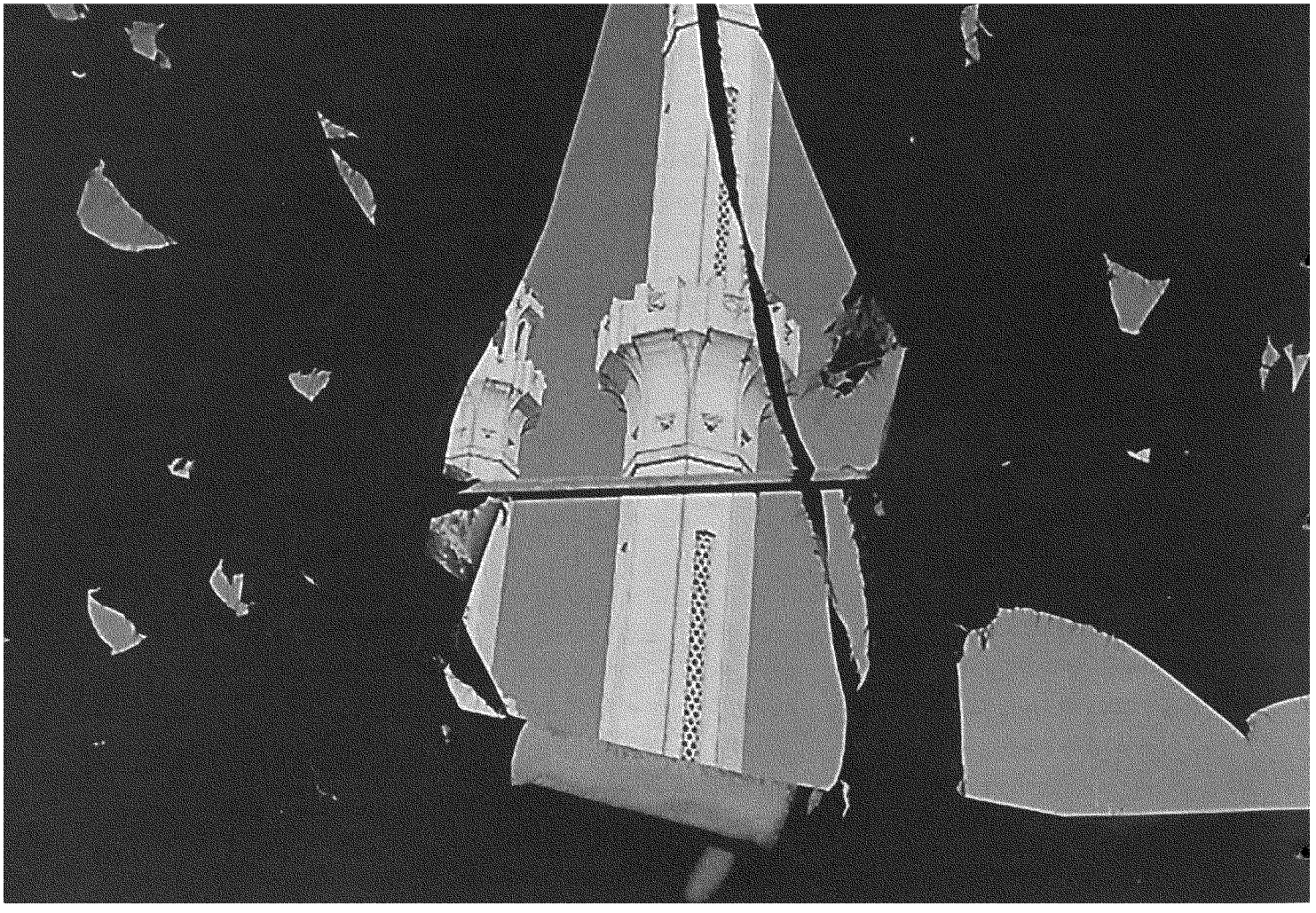

غابرييلا بوليسوڤا

متذنة من خلال فجوة خيمة ـ الضاحية الجنوبية لبيروت

تبقى **مسألةٌ أخيرةٌ** تتراءى عبر تلك العلامات الفارقة الآنفة الذكر، وتتعلّق بالمشروع السياسي الإستراتيجي الذي يَعْمل كلُّ طرف على إنجازه. فبالنسبة إلى الطرف الأميركي ـ الإسرائيلي يَبْرز مشروعُ الشرق الأوسط الجديد مآلاً أخيرًا لهذه الحرب، بما يتضمّنه على الأرجح من إنشاءِ دويْلاتٍ طائفيةٍ في المنطقة تَقْضي نهائيّاً على حركة التحرُّر القومية العربية ومشاريعها الاستقلالية والوحدوية، وتحوّلها إلى كيانات متفتتة متعادية، وتبقيها رهنَ التدخُّلاتِ الخارجية ونفوذِ الدول الأجنبية الكبرى (خصوصًا الولايات المتحدة الأميركية) وفي المقابل لا يقدِّم حزبُ اللّه مشروعًا إستراتيجيّاً معلنًا، وإنّما يَسْمح التحاقُه بالمرجعية الدينية (ـ السياسية) الشيعية (الإيرانية) للبعض بالحديث عن جمهوريةٍ إسلاميةٍ (على النمط الإيراني) ترتسم في أفق مسعاه السياسي والعسكري. ويعطي النظامُ الإسلامي (الشيعي الإيراني) في استبداديّته وظلاميّته فكرةً إجماليةً عن هذه الجمهورية. كما تعطي بعضُ مواقف الحزب في لبنان صورةً أوليةً عن طابعها الاجتماعي العامّ، وهو طابعٌ لا يقلّ ظلاميةً وقهرًا عمّا هو عليه الوضعُ في إيران (كما تدلّ على ذلك تصريحاتُ أمينِ عامّ الحزب حسن نصر اللّه بمناسبة الاحتجاجات التي جَرَتْ على تناول النبي محمّد في بعض الرسوم الكاريكاتورية في صحيفة دنماركية في شباط الماضي، حين اعتبَرَ أنّه لو جرى تنفيذُ فتوى الإمام الخميني بقتلِ سلمان رشدي لما تجرّأ آخرون على التعرُّض للنبي محمد!).

بناءً على ما تقدّم، يبدو الوضعُ في لبنان عرضةً للتطوّر باتجاه تقسيم لا يُستبعد اندراجُه في مشروع الدويْلات الطائفية والعِرْقيةِ الذي ترتسم بعضُ ملامحه في العراق برعاية المحتلّ الأميركي، أو باتجاه فيدراليةٍ تَحْفظ للطوائف المختلفة الكبرى فيه وضعيةً «استقلاليةً» تتجانس مع وضعية الدويلات المستحدثة. وإنّ ترجيح أحد الاتجاهيْن على الآخر يعود إلى مقتضيات المصالح الأميركية ومُتطلّبات السياسة البرغماتية التي تستجيب لها بناء على سيرورة المواجهات التي تتعرّض لها.

لا يَسَعُ الطامحين إلى الحرية والديموقراطية والتطوّر القبولُ بأيّ شكل من أشكال الظلم الوحشي والعنصرية المدمّرة. كما يرفضون أيَّ صيغةٍ من صيغ الظلامية القاتلة والتحكُّمية الغيبية. وهم إذ ينتصرون للمقاومة اليوم فبقَدْرِ ما هي مسعًى تحريريٌّ على طريق بناء دولة لبنانية (وعربية) ونظام إقليمي (وعالمي) قائميْن على الحقِّ والعدلِ والديموقراطيةِ والعلمانية.

**بيروت**

**د. سامي سويدان**

أستاذ النقد الأدبي في الجامعة اللبنانية، بيروت

# نحو تقويض العقلية الإمبريالية الغربية

نوم تشومسكي

على الرغم من وجود عوامل متفاعلة عدّة، فإنّ القضية المباشرة الكامنة خلف الغزو الأميركي ـ الإسرائيلي الأخير للبنان تبقى، في رأيي، ما كانت عليه في الغزوات الأربع السابقة: إنّها الصراعُ الإسرائيلي ـ الفلسطيني. وفي الحالة الأهمّ، وهي الغزوُ الإسرائيلي المدمِّر المدعومُ أميركيّاً عامَ ١٩٨٢، فقد وُصِف صراحةً في إسرائيل بأنّه حربٌ في سبيل الضفة الغربية، وأنّه نُفِّذَ بهدف وضع نهايةٍ للدعواتِ المزعجة التي أَطلقتْها منظمةُ التحرير الفلسطينية من أجل تسوية ديبلوماسية (ولهدفٍ ثانويّ آخر هو فرضُ نظام تابع [لإسرائيل] في لبنان). وهناك أمثلةٌ عديدةٌ أخرى ولكنْ بصرف النظر عن الفوارق الكثيرة في ظروف تلك الغزوات، فإنّ غزوَ تموز (يوليو) ٢٠٠٦ يقع عامةً ضمن السياق نفسه.

غير أنّ الحكايةَ الأثيرةَ لدى النقّاد الأميركيين التقليديين لسياسات إدارة بوش هي التالية. «كنّا دائمًا نقاربُ الصراعَ بين إسرائيل وجيرانها بطريقةٍ متوازنة، مفترضين أنّنا قد نكون الحافزَ على الاتفاق بين الطرفيْن؛ لكنّ بوش الثاني للأسف تخلّى عن ذلك الموقف الحيادي، فسَبَّبَ بذلك مشاكلَ عظيمةً للولايات المتحدة» (وهذا بحسب كلمات المتخصِّص في الشرق الأوسط والديبلوماسي السابق إدوارد واكر E. Walker، وهو معتدلٌ بارز). غير أنّ السجلّ التاريخي الحقيقي يخالف ذلك تمامًا: فواشنطن، طوال أكثر من ٣٠ سنةً، مَنَعتْ، ومن جانبٍ واحد، قيامَ تسويةٍ سياسيةٍ سلميةٍ، وإنْ كانت هناك استثناءاتٌ طفيفةٌ وقصيرةُ المدى.

يُمْكن اقتفاءُ أثرِ هذه النزعة الرفضاوية الثابتة بالعودة إلى العَرْض المصري، في شباط (فبراير) ١٩٧١، والمتمثِّل في عقد معاهدةِ سلامٍ كاملةٍ مع إسرائيل وفقَ شروط السياسة الأميركية الرسمية، من غير تقديم أيّ شيءٍ إلى الفلسطينيين وقد فَهِمتْ إسرائيلُ أنّ عرضَ السلام ذاك سيُنهي أيَّ تهديدٍ لأمنها، ولكنّ حكومتَها قَرَّرتْ رفضَ الأمن لمصلحة التوسُّع، الذي كان آنذاك في شمالِ شرقِ سيناء. فما كان من واشنطن إلاّ أنْ دَعَمتْ موقفَ إسرائيل، ملتزمةً في ذلك مبدأ كيسنجر القائل بـ «الجمود» (stalemate): القوة، لا الديبلوماسية. ولم توافِقْ واشنطن على طلب مصر الانسحابَ الإسرائيليَّ من أراضيها إلاّ بعد ٨ سنوات، وذلك عقبَ حربٍ رهيبةٍ [حرب ٧٣] ومعاناةٍ عظيمة

في هذه الأثناء كانت القضيةُ الفلسطينيةُ قد دَخَلت الأجندةَ الدولية، وتَبلورَ إجماعٌ عالميٌّ واسعٌ لصالح تسويةٍ قائمةٍ على دولتيْن فلسطينية وإسرائيلية (بحيث تنشأ الدولةُ الفلسطينيةُ على حدودِ ما قبل حرب ١٩٦٧)، مع بعض التعديلات الطفيفة على الجانبيْن ربّما. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٥ وافق مجلسُ الأمن على أن يأخذ في الاعتبار قرارًا اقترحتْه «دولُ المواجهة» العربية ضمن تلك الشروط، ومع إدراج لبّ نصّ القرار ٢٤٢ أيضًا غير أنّ الولايات المتحدة مارست الفيتو وكان ردُّ فعل إسرائيل هو قصفَ لبنان، متسبِّبةً في مقتلِ أكثر من ٥٠ شخصًا في النبطية، ومدّعيةً أنّ هذا الهجوم «وقائي» (preventive) ـ وكأنّه من أجلِ «تَوَقّي» عقد جلسةٍ للأمم المتحدة قاطعتْها إسرائيل

الاستثناء الوحيد الهامّ لنزعة الرفض الأميركية ـ الإسرائيلية الثابتة جاءت في كانون الثاني (يناير) ٢٠٠١، حين اقترب المفاوضون الإسرائيليون والفلسطينيون من الاتفاق في طابا. إلاّ أنّ رئيسَ الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك أَوقفَ المفاوضات قبل أربعة أيام من الموعد، مُنْهيًا ذلك الجهدَ الواعدَ ومع ذلك استمرّت مفاوضاتٌ رفيعةٌ غيرُ رسمية، وأدّت إلى اتفاقٍ في جنيف في كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٢ حَمَلَ اقتراحاتٍ مشابهة وقد لقي هذا الاتفاقُ ترحيبَ معظم العالم، لكنّ إسرائيل رفضتْه، كما أنّ واشنطن صَرفت النظرَ عنه (ومثلَها فعلتْ، تلقائيّاً، وسائلُ الإعلام والطبقاتُ المثقفةُ الأميركية).

في هذه الأثناء كانت برامجُ الاستيطان وبناءِ البنى التحتية الإسرائيلية، مدعومةً من الولايات المتحدة، «تَخْلق الوقائعَ على الأرض» من أجل تقويض التجسيد المحتمل للحقوق الوطنية الفلسطينية. فعلى امتداد السنوات التي أَعقبتِ اتفاقَ أوسلو [١٩٩٣]، تَواصَلَ تطبيقُ تلك البرامج الإسرائيلية على قدمٍ وساق،

بول لارودي

رجل وزوجته يبحثان في عيتا الشعب عن آم الزوجة وأبيها

وبلغ ذروةً حادّةً عامَ ٢٠٠٠ ـ وهو العامُ الأخيرُ من ولاية كلينتون وولاية باراك والتسمية الملطِّفة المخفِّفة الراهنة لتلك البرامج هي «فكُّ الارتباط» (disengagement) من غزة و«الالتمام» أو الانطواء (convergence) في الضفة الغربية ـ أو هي، في الخطاب الغربي، برنامجُ إيهود أولمرت «الشُّجاع» للانسحاب من الأراضي المحتلّة غيرَ أنّ الحقيقة، كالعادة، مختلفةٌ تمامًا

فالحال أنّ «فكّ الارتباط» (disengagement) من غزّة قد وُصِفَ جَهْرًا بأنّه خطةٌ إسرائيليةٌ توسُّعيةٌ في الضفة الغربية. فلقد أَدْرك الصقورُ الإسرائيليون «المتعقِّلون،» بعد أن حَوَّلوا غزّة إلى منطقةٍ منكوبة، أنْ لا معنى لبقاء بضعةِ ألوفٍ من المستوطنين في غزّة يمتلكون أفضلَ الأراضي ويسيطرون على الموارد النادرة ويَحْظَوْن بحماية قسمٍ كبيرٍ من «جيش الدفاع الإسرائيلي.» وارتأى أولئك الصقورُ أنّ من الأفضل إرسالَ مستوطني غزّة إلى الضفة الغربية ومرتفعات الجولان (حيث أُعلنتْ برامجُ استيطانيةٌ جديدة) وتحويلَ غزّة إلى «أكبر سجنٍ في العالم» على ما تسمِّيه ـ بحقّ ـ منظماتُ حقوقِ الإنسان الإسرائيلية. ثم أتت خطةُ «الالتمام» أو الانطواء (convergence) في الضفة الغربية لتُضْفي طابعًا رسميّاً على برامج الضمّ والكَنْتَنة والسجن تلك. وبدعم حاسم من الولايات المتحدة، راحت إسرائيلُ تضمّ أراضيَ ثمينةً فضلاً عن أهمّ موارد الضفة الغربية (وعلى رأسها المياه)، في الوقت الذي راحت تطبِّق فيه برامجَ الاستيطان أو بناءِ البنى التحتية بحيث تقسِّم المناطقَ الفلسطينيةَ المتقلِّصةَ [أصلاً] إلى كانتوناتٍ غيرِ قابلة للحياة ومفصولةٍ عمليّاً بعضِها عن بعض ومفصولةٍ أيضًا عمّا قد يتبقّى للفلسطينيين من «قِرْنةٍ» رثّةٍ في القدس. إذن، الكلُّ يجب أن يكون مسجونًا، فيما إسرائيل تحتلّ وادي الأردن وأيَّ منفذٍ آخر إلى العالم الخارجي.

تُعتبر كلُّ هذا البرامج غيرَ شرعية، وانتهاكًا لقرارات متعددة من قراراتِ مجلس الأمن، وانتهاكًا أيضًا لقرار المحكمة الدولية الذي حَظِيَ بالإجماع ونَصَّ على أنّ أيَّ جزءٍ من «جدار الفصل» المبنيّ بهدف «حماية» المستوطنات إنّما هو «في ذاتِ نفسِه» غيرُ شرعيّ (على ما جاء في تصريحٍ أَدْلى به القاضي الأميركي بورغنثال Buergenthal) وعليه، فإنّ حوالى ٨٠ ـ ٨٥٪ من الجدار غيرُ شرعي، كما أنّ خطة «الالتمام» في الضفة هي، بأكملها، غيرُ شرعية. بَيْدَ أنّ مثلَ هذه الحقائق، بالنسبة إلى دولةٍ تَعْتبر نفسَها خارجةً عن القانون، كما بالنسبة إلى تابعيها أيضًا، إنّما هي أمورٌ ثانويةٌ غيرُ ذاتِ صلة

حاليّاً تُطالِب الولاياتُ المتحدةُ وإسرائيلُ بأن توافق حركةُ «حماس» على اقتراح الجامعة العربية في بيروت عامَ ٢٠٠٢،

# نحو تقويض العقلية الإمبريالية الغربية

والقاضي بتطبيع كامل للعلاقات مع إسرائيل بعد الانسحاب الإسرائيلي، وفقًا للإجماع الدولي. لكنّ الاقتراح سبق أن حظي منذ زمنٍ بعيدٍ بموافقة منظمة التحرير الفلسطينية وحظي بموافقةٍ رسميةٍ من «القائد الأعلى» لإيران آية اللّه الخامنئي. كما أنّ السيد حسن نصر اللّه أوْضح أنّ حزب اللّه لن يخرِّب مثلَ هذا الاتفاق إذا وافق عليه الفلسطينيون. وأخيرًا، فإنّ «حماس» أعربتْ تكرارًا عن رغبتها في التفاوض وفقًا لتلك الشروط.

غير أنّ الحقائق تُنْكر أبدًا [لدى أتباع السياسة الأميركية والإسرائيلية]، ولذا يجري طمسُ أكثرها. وما نجده، بدلاً من ذلك، هو التحذيرُ الصارمُ الذي وجّهه محرِّرو **نيويورك تايمز** إلى حركة «حماس» بأنّ موافقتَها الرسميةَ على خطة السلام في بيروت هي «بطاقةُ دخولٍ إلى العالم الحقيقي، وشَعيرةٌ ضروريةٌ للانتقال من معارضةٍ غيرِ خاضعةٍ للقانون إلى حكومةٍ تمتثل للقانون.» بَيْدَ أنّ محرِّري تلك الجريدة لا يَذْكرون أنّ الولايات المتحدة وإسرائيلَ **تَرْفضان** ذلك الاقتراحَ بقوة، وأنّهما اللاعبان الوحيدان اللذان يرفضانه من بين اللاعبين ذوي الصلة بل إنّهما لا ترفضانه على مستوى الخطاب وحده، وإنّما بالأفعال أيضًا؛ وهذا أهمُّ بكثير هكذا نَشْهد فورًا مَنْ هي «المعارضةُ غيرُ الخاضعة للقانون» ومَنْ يَنْطق باسمها! إلا أنّ هذا الاستنتاج لا يُمْكن التعبيرُ عنه، بل ولا مجرّدُ أخذِه في الاعتبار، لدى الدوائر «المحترمة »

الدعم الوحيد المفيد الذي يأتي إلى الفلسطينيين المعرَّضين للدمار الوطني هو دعمُ حزب اللّه. ولهذا السبب وحده ينبغي [كما يقال] أن يُضْعَفَ هذا الحزبُ بشدة أو أن يُحطَّم، شأن منظمة التحرير الفلسطينية التي كان ينبغي أن تُجلى عن لبنان عامَ ١٩٨٢ . لكنّ حزب اللّه أكثرُ تجذُّرًا في المجتمع اللبناني من أن يُجتَثَّ، ولذا ينبغي [وفق تلك الدوائر] أن يحطَّم إلى حدٍّ كبير. وكانت إحدى الفوائد المتوقّعة لذلك بالنسبة إلى الولايات المتحدة وإسرائيل هي زيادةَ صدقيّة التهديدات الموجَّهة إلى إيران، وذلك من خلال إلغاء رادع لبنانيٍّ أمام هجوم محتملٍ على إيران. لكنّ شيئًا لم يَحْصل كما خُطِّط له. بل إنّ المخطِّطين في إدارة بوش خَلَقوا الكوارثَ هنا [في لبنان]، كما سبق أن فعلوا في العراق وفي أماكن أخرى ـ وهي كوارثُ لا تستثني المصالح التي يمثِّلونها. وهذا هو السببُ الرئيسيُّ للنقد غيرِ المسبوق الذي وجّهتْه إلى الإدارة الأميركية النخبةُ العاملةُ في مجال السياسة الخارجية الأميركية حتى قبل غزوِ العراق

غير أنّ هناك، في خلفية أذهان البعض، همومًا أبعدَ وأكثرَ بقاءً ألاَ وهي: ضمانُ ما يسمّى في الإيديولوجيا الحاكمة بـ «الاستقرار» (stability) و«الاستقرار،» بكلمةٍ بسيطة، يعني الطاعةَ ويتمّ تقويضُ هذا «الاستقرار» على يدِ دولٍ لا تلتزم الأوامرَ التزامًا صارمًا، وعلى يدِ قوميين علمانيين، وإسلاميين «غيرِ منضبطين» (وفي المقابل، فإنّ المَلَكية السعودية، وهي أقدمُ وأغلى حليفٍ للولايات المتحدة، مقبولة!)، وهلمجرّاً ومثلُ هذه القوى «المخلخلةِ للاستقرار» خطرةٌ بشكلٍ خاصّ حين تكون برامجُها جذّابةً للآخرين، فتُسمّى في هذه الحال «فيروسات» ينبغي تحطيمُها ويتعزّز «الاستقرارُ» بالدول الموالية التابعة [لأميركا]. ومنذ العام ١٩٦٧ افتُرِضَ أنّ إسرائيل يمكن أن تؤدّي هذا الدورَ، إلى جانب دولٍ أخرى من دول «المحيط.» وعمليّاً أصبحتْ إسرائيل قاعدة «أوفْ شورْ» أميركية عسكرية ومركزًا تقنيّاً عاليًا؛ وتلك هي النتيجةُ الطبيعيةُ لرفضها الأمنَ لصالح التوسُّع عامَ ١٩٧١، ولتكرارها هذا الرفضَ منذ ذلك الحين. والحال أنّ هذه السياسات لا تَخْضع إلاّ لنقاشٍ داخليٍّ [أميركي] قليل، أيّاً مَنْ كان في سُدّة الحكم وهي تنتشر وسْطَ العالم، وفي الشرق الأوسط، وتشتدّ أهميتُها بفضل أحد المبادئ الأساسية في السياسة الخارجية [الأميركية] منذ الحرب العالمية الثانية (وقبل ذلك في حالة بريطانيا)، وهي: ضمانُ السيطرة على موارد الطاقة في الشرق الأوسط، وهي مواردُ أُقِرّ طوال ستين عامًا بأنّها «مَصْدرٌ هائلٌ للقوة الإستراتيجية» و«واحدةٌ من الجوائزِ الماديةِ العظمى في تاريخ العالم »

الرواية الغربية المألوفة هي أنّ غزوَ تموز (يوليو) ٢٠٠٦ يبرِّره الغضبُ المشروعُ على أَسْر جنديَيْن إسرائيليَيْن على الحدود مع لبنان. لكنّ هذا الموقف دَجَلٌ كَلْبيّ. فالولايات المتحدة وإسرائيل، والغربُ عمومًا، لا تعترض إلاّ قليلاً على أن تَأْسرَ الجنود، بل هي

غابرييلا بوليسوڤا

رجلٌ في مارون الراس لم يغادر بيته أثناء الحرب كلّها

لا تعترض على جريمةٍ أفظعَ بكثيرٍ، وهي أن تَخْطف المدنيين (أو أن تَقْتلهم بالطبع). فلقد كانت هذه ممارسةً إسرائيليةً في لبنان طوال سنوات عديدة، ولم يَقْترحْ أحدٌ يومًا [ضمن الدوائر «المحترمة»] أنّه ينبغي غزوُ إسرائيل أو تدمير معظمها بسبب ذلك! وانكشفت الكلبيّةُ الغربيةُ بوضوح أشدَّ دراماتيكيةً حين اندلعت الفورةُ الحاليةُ من العنف عَقِبَ أَسْرِ مقاومين فلسطينيين لجنديٍّ إسرائيلي (جلعاد شاليت) في ٢٥ حزيران (يونيو). فهذه العملية أثارت غضبًا [غربيّاً] هائلاً، وأثارت دعمًا [غربيّاً] لتصعيد إسرائيل الحادّ في هجومها الإجرامي على غزّة. وقد انعكس هذا التصعيدُ في أرقام الضحايا: ففي حزيران (يونيو) قُتِلَ ٣٦ مدنيّاً فلسطينيّاً في غزة؛ وفي تموز (يوليو) ازداد عددُ الضحايا إلى أكثر من أربعة أضعاف، أيْ إلى أكثر من ١٧٠، عشراتٌ منهم أطفال. وقد كان التظاهُرُ بالغضب دَجَلٌ كلبيٌّ هو أيضًا، على ما تجلّى بشكلٍ دراماتيكيّ وحاسمٍ في ردِّ فعلِ [الغرب] على اختطافِ إسرائيل لمدنيَّيْن من غزّة، هما الأخوان معمر، قبل يوم، أيْ في ٢٤ حزيران. فقد اختفى الأخوان معمر في غياهب السجون الإسرائيلية، ملتحقين بالمئات الآخرين المسجونين دون تهم ـ ومن ثم فهم مخطوفون، شأنهم شأن كثيرين حُكِمَ عليهم بتهمٍ ملتبسة. صحيح أنّه وَرَدَ [في الإعلام الأميركي والغربي] ذِكْرٌ مختصرٌ واستخفافيٌّ لخطف الأخويْن معمر، ولكنْ لم يكن ثمة ردُّ فعلٍ، لأنّ مثل هذه الجرائم تُعتبر مشروعةً حين يرتكبها «جانبُنا» نحن. وفكرةُ أنّ مثل هذه الجريمة قد تبرِّر هجومًا إجراميّاً على إسرائيل كانت ستُعتبر ارتدادًا إلى النازية.

إنّ التمييزَ واضحٌ ومألوفٌ على امتداد التاريخ. ولنتقبسْ من ثوسيديدِس: «يحقّ للأقوياء أن يَفْعلوا ما شاءوا، في حين يعاني الضُعفاء كما ينبغي.»

علينا ألاّ نتغاضى عن التقدُّم المُحْرَز في تقويض العقلية الإمبريالية المتجذِّرة في الثقافة الأخلاقية الغربية إلى حدٍّ تخطِّيها عتبةَ الوعي. كما أنّ علينا ألاّ ننسى حجمَ ما يتبقّى برسم الإنجاز، وهو مهماتٌ ينبغي أن تنفَّذَ بالتضامن والتعاون بين أناس في «الشمال» و«الجنوب» يَأْملون في رؤيةِ عالمٍ أكثر شرفًا وتحضُّرًا.

**بوسطن**

**د. نومْ تشومسكي**

أشهر علماء الألسنية، وأبرز المثقفين الناشطين المعارضين في الولايات المتحدة. والمقالة، كُتبتْ خصّيصًا لـ الآداب، وترجمها رئيسُ التحرير

# هذه الحرب كيف نَفْهمها؟

منير شفيق

## في التناقضات والأولويات

الحرب أعلى أشكال حلّ التناقض. والحرب هي السياسة بلغة أخرى والحرب كشّافةٌ لوضعيةِ المجتمع المدني في حال السِّلم. والحرب هي التي تُظْهر حقيقةَ المواقف ووجهتَها. والحرب...

هذه التعريفاتُ وما شابَهها ردّدها منظِّرو الحرب، ومنظِّرو الماركسية، وهي لا تستغرق كلَّ ما قيل في الحرب طبعًا. ولكنْ ثمة سمةٌ للحرب قد تهمُّنا في ظروفنا العربية الراهنة، وهي كَشْفُها لطبيعة التناقضات وأولويات التغيير في وضعٍ معقَّد، مركَّب، كالوضع العربي، الذي يتّسم:

- بالتجزئة من جهة؛
- وبوجود الدولة العِبْرية في قلبه، من جهة ثانية؛
- وبسيطرةٍ إمبريالية أو تحكّم خارجي، اقتصادي وسياسي وثقافي، قد تراوَحَ مداه من بلدٍ إلى آخر، من جهة ثالثة؛
- وبحالات من الاستبداد والفساد، متفاوتةٍ أيضًا من قُطْر إلى آخر، من جهة رابعة؛
- هذا فضلاً عما تَحْمله المكوّناتُ الداخليةُ الخاصةُ بكلّ بلد، أو ذاتُ الطابعِ العربيّ العامّ، من إشكالاتٍ وتناقضات، من جهة خامسة.

هذا ويُمْكن أن يُضاف، من جهة سادسة وسابعة وثامنة، ألوانٌ من التخلّف والتناقضات الثانوية الكثيرة الأخرى.

ولعلّ أبرزَ ما دار الصراعُ حوله في تحديد الأولويات خلال السنوات العشر الماضية (في الأقلّ) تمثَّلَ في إعطاء البعض الأولويةَ للديموقراطية أو للتنمية أو لحقوق الإنسان، أو لهذا الثلاثيّ، على مواجهةِ المشروع الصهيوني والهيمنة الأميركية. وذهب البعضُ إلى إعطاء الأولوية لحلّ الإشكالات الخاصة بالأقليّات، وقضايا المساواة المواطنية، والمرأة، أو بناء مجتمع المعرفة، والتكيُّف مع العولمة. وركّز بعضٌ آخر على حلّ التناقضات المتعلّقة بالجوانب الثقافية والحضارية، وبناء مجتمع المؤسسات ودولة القانون.

وكان بالطبع لدى كلّ اتجاهٍ ما يقوله في تحديده التناقضَ الرئيسي والتناقضاتِ الثانوية. ويُمْكن القول إنّ كثيرين اعتبروا كلَّ حديث عن مكافحة الصهيونية أو الهيمنة الخارجية أو الدعوة إلى تحرير الإرادة وتعزيز الاستقلال وإرساء تضامن عربي وسوق مشتركة وتكامل اقتصادي عربي، .. إنما هو «ترديدٌ لشعارات الماضي،» و«استخدامٌ للغة الخشبية »

أما الذين لم يَصِلوا إلى حدّ رفض الإشارة إلى المشروع الصهيوني والهيمنة الأميركية فقد استخدموا حجةَ «تنظيف البيت أولاً،» أو اعتبار «الإطاحة بالاستبداد هي الطريق إلى مواجهة الكيان الصهيوني والهيمنة الأميريكية » ولكنّ تحديدَ الأولوية يَفْترض، بالضرورة، إخضاعَ الإشكالات أو التناقضات الأخرى لها. وهذا يقتضي عمليّاً، عن وعي أو دون وعي، تأجيلَ أو تحييدَ أو تخفيفَ الصراع معه.

والواقع أنّ حلّ الخلافات في تحديد الأولويات بين قضايا كثيرة يحتاج إلى معيار. فالحسم بين ما يُطْرح من أولويات لا يتمّ من خلال النقاشات إلاّ في حدود معينة. وإنّما يأتي الحسمُ، في الغالب، من خلال انتقال التناقض الأشدّ إلحاحًا وتحدّيًا وأهميةً إلى مستوى الحرب، أو إلى ما هو أدنى من ذلك قليلاً.

لقد توالت الإنذاراتُ خلال الخمسة عشر عامًا الماضية لتؤكّد أنّ التناقض الرئيسي ما زال كامنًا في المشروع الإسرائيلي والمشروع الأميركي «الشرق أوسطي،» اللذيْن راحا يتماهيان إلى أن بَلَغا قمةَ تماهيمها في عهديْ إدارة بوش منذ ٢٠٠١ حتى الآن

فقد بقيتْ جبهتا المقاومة والصراع مشتعلتيْن في فلسطين ولبنان، حتى بعد هزيمة الاحتلال الإسرائيلي في جنوبيّ لبنان، وبعد اندلاع الانتفاضة وتصاعُدِ الحرب في فلسطين إلى اليوم. ثم جاء الإنذارُ باندلاع الحرب الأميركية الإسرائيلية ضدّ العراق واحتلاله. وتبعتْه الهجمةُ لتغيير المجتمعات الإسلامية و«دمقرطتها» باعتبارها «حاضنةَ الارهاب.» وتعاظمت الضغوطُ الأميركية على فلسطين ولبنان

غابرييلا بوليسوڤا

رِجْلٌ دُمْيَةٍ في الضاحية الجنوبية

وسورية وإيران وعلى كلّ الدول العربية بلا استثناء من أجل إخْضاعها للأجندة الأميركية الإسرائيلية، المتمثّلة في إعادة صوغ المنطقة مجتمعةً ومنفردةً.

إنّ كلّ مَنْ تابَعَ الهجمةَ الأميركيةَ السياسيةَ على البلاد العربية وإيران بعد احتلال العراق كان عليه أن يدرك أين مكمنُ التحدّي الأكبر الذي يعبِّر عنه التناقضُ الرئيسي. لكنْ ظلّ هنالك مَنْ تجاهَلَه متعمِّدًا، أو منجرّاً إلى ما حدّدهُ من أولويةٍ بعيدةٍ منه. حتى جاء العدوانُ العسكريُّ المزدوج على قطاع غزة والضفة الغربية من جهة، وعلى لبنان ـ كلّ لبنان ـ من جهة أخرى.

إنّ المستوى الذي بلغتْه الحربُ بين العدوان الإسرائيلي وأميركا، مباشرةً وبلا مراعاةٍ لمؤيديِّها و«أصدقائها،» من جهة، وبين حزبِ الله والشعب اللبناني من جهة ثانية، قد حَسَمَ أولويات الصراع عمليّاً وموضوعيّاً وجماهيريّاً. فكلُّ الذين حَدّدوا لأنفسهم، أو لأحزابهم، أولوياتٍ أخرى، اضطرُّوا إلى ابتلاع برامجهم وشعاراتهم، ولو مؤقّتًا، ليقولوا شيئًا في إستنكار العدوان، وفي التعامل مع الجبهة المناهضة للعدوان، ناهيك عن إبداءِ إعجابٍ متلعثمٍ بالمقاومة الناجحة التي خاضها حزبُ اللّه.

باختصار، حَسَمتْ هذه الحربُ أشكالَ تحديد الأولويات بالنسبة إلى كلّ حريصٍ على أن يَحْمل برنامجًا صحيحًا في مواجهة قضايا التغيير. أما مَنِ انحاز إلى الجهة الأخرى عن وعي وتصميم، فلن تَنْفع معه هذه الحربُ ولا غيرُها، حتى لو انحنى أمام عاصفتها وأَظْهَرَ عكسَ ما يُبْطن.

على أنّ تحديد الأولوية هنا لا يعني إلغاء التناقضات الأخرى، وإنّما يعني ـ ببساطة ـ عدمَ إعلاء أيّ من الإشكالات الأخرى عليها. وبالمناسبة، فإنّ تحديد الأولوية في مواجهة المشروع الصهيوني الأميركي قد يسهِّل عمليةَ الإطاحة بالاستبداد والفساد أيضًا، ولاسيّما عندما يلتقي هذان الأخيران بالتبعية والانخراط في المشروع الأميركي الإسرائيلي للمنطقة. إذّاك يَفْقد الاستبدادُ كلَّ شرعية في نظر أوسع الجماهير، لا في نظر هذا النفر من النخبة أو ذاك. وهذا شرطُ كلِّ تغييرٍ وحلٍّ للتناقضات الداخلية، كما لمواجهة التحدّيات الخارجية طبعًا. المشكلة تختلف حين يَصْحب الاستبدادَ قَدْرٌ من الممانعة للمشروع الأميركي الإسرائيلي في المنطقة؛ ففي تلك الحال لا مفرّ من إبقاء الأولوية لمناهضة ذلك المشروع.

# هذه الحرب كيف نَفْهمها؟

إنّ تجربة هذه الحرب تعطي مؤشّرًا إلى حالة النظام الذي يُفهم منه التواطؤُ مع العدوان، أو تغطيتُه، أو حتى السكوتُ عن استنكاره. فالنبض الشعبي، المتشكّل في الوعي تاريخيّاً، لا يخطئ في تحديد الأولويات عندما يتعلّق الأمرُ بالعدوان الخارجي الإسرائيلي الأميركي على الأمة، مستفرِدًا هذا البلدَ أو ذاك من بلدانها وهذا يفسِّر ما شاع من غضب شعبي على بعض الأنظمة العربية، أين منه كلُّ ما قيل في الاستبداد والفساد! وهذا يفسِّر لماذا لا يراهن أغلبُ أصحاب المشروع «الديموقراطي» في بلادنا على جماهير الأمة، بل يبحثون عن التغيير من خلال النظام نفسه أو من الخارج

قبل اندلاع هذه الحرب، وبفضل النخب الطائفية العراقية، شُحنت الأجواءُ بما سمّي «التناقض السنّي ـ الشيعي،» وأريد منه أن يعلو كلَّ التناقضات، بما فيها التناقضُ مع المشروع الأميركي الإسرائيلي للمنطقة (أي البلاد العربية وإيران ولاحقًا تركيا). فيصبح حزبُ الله عدوّاً للسنّة، وتغدو «حماس» و«الجهاد» عدوَّيْن للشيعة على سبيل المثال غير أنّ الحرب الأخيرة وَجَّهتْ ضربةً قاسيةً إلى الاتجاهات التي حاولتْ أن تَنْقل الصراعَ إلى إطار حرب شيعية ـ سنّية أو عربية ـ إيرانية فإذا بالأغلبية الساحقة من الشيعة والسنّة في طول البلاد العربية والإسلامية وعرضها توحِّد موقفَها ضدّ العدوان الإسرائيلي الأميركي، وتعلن وقوفَها إلى جانب حزب الله والشعب اللبناني، أيْ إلى جانب مَنْ ناهَضَ العدوان من شيعةٍ وسنّةٍ ومسيحيين ودروز

مِنْ هنا يتأكّد كيف أنّ الحرب لا تكتفي بكشف طبيعة التناقضات والأولويات فحسب، وإنّما أيضًا حقيقةَ الوعي الشعبي وحقيقةَ المواقف عمومًا.

## الحرب الأخيرة: الأسباب والتوقيت والحُجّة

إذا كانت وزيرةُ الخارجية الأميركية قد اعتبرتْ أنّ هدفَ الحرب هو توليدُ «شرق أوسط جديد،» وأَسْمَتْ ما عاناه لبنانُ من تقتيلٍ وتهجيرٍ وتهديمٍ بـ «مخاض الولادة» اللازم من أجل ولادة الوليد الجديد؛

وإذا كان الرئيس الأميركي قد اعتبر أنّ من شأن هذه الحرب إضعافَ الموقف الإيراني من ناحيةِ تمسُّكِه ببرنامجه النووي؛

إذا كان ذلك كذلك، فقد كَشَفَ كلٌّ من رايس وبوش أنّ هذه الحرب لم تكن ردةَ فعل على أَسْر الجنديَيْن الإسرائيليَيْن، وإنّما هي خطوةٌ على طريق تغيير الشرق الأوسط والحربِ على إيران ولهذا لا يصحّ أن يظلّ هنالك مَنْ يَعْتبر أنّ أَسْرَ الجنديَيْن تَسبَّب بهذه الحرب، أو أنّ حزب اللّه أخطأ في حساباته حين أَقْدم على عملية «الوعد الصادق.» فهذه العملية تَدْخل ضمن قواعد اللعبة التي أُرسيتْ في اتفاقية نيسان ١٩٩٦ (تحييد المدنيين)، وكُرِّستْ خلال السنوات الستّ الماضية التي تكرَّر أمثالُها ـ وآخرُها عمليةٌ أكبرُ منها بكثير، هي «عملية الغَجَر،» وقد تمّت قبل شهريْن، وشارك فيها مائتا مقاتل من حزب الله احتلُّوا موقعًا إسرائيليّاً، لكنّهم لم يَعْثروا فيه على جنود لأَسْرِهم

وإذا بحثنا عن حدثٍ عَجَّلَ في اندلاع هذه الحرب أكثرَ ممّا فعلتْ عمليةُ أَسْر الجنديَيْن، فسنجده، **أولاً**، في لقاء لارجاني ـ سولانا في بروكسيل، إذ بلّغ الأولُ الثاني رفضَ إيران إعطاءَ جوابٍ عن العرض الأوروبي قبل انعقاد قمة مجموعة الثماني ـ وهو الموعد الذي أصرّ عليه بوش أشدَّ الإصرار. وقد فُهِمَ من تأجيل إيران ردّها إلى نهاية آب (أغسطس) أنّه سيأتي سلبيّاً

وسنجده، **ثانيًا**، في موعد انعقاد قمة مجموعة الثماني في بطرسبورغ، إذ راهن بوش ـ من خلال حرص ڤلاديمير پوتين على نجاحها تحت رعايته ـ على أن يَخْرج ببيان جماعي يَدْعم الموقفَ الإسرائيلي، ويغطّي الحربَ، ويرسل تحذيرًا مشتركًا إلى إيران.

لكنّ هذه التفصيلات التي كانت وراء الاستعجال في تحديد موعد إطلاق الحرب قد حَجَبَتْها حجّةُ أَسْر الجنديَيْن ـ وهي حجّة ينبغي ألاّ تكرَّس أو تَجُرَّ أحدًا وراءها ذلك لأنّ تحديدَ أهداف الحرب ومستواها، والموقفِ الأميركي منها، والحشدِ

كيرستن شايد

ساحة العديسة العامة

الدولي حولها، لا يَتْرك مجالاً للشكّ في أنّ قرارها والإعدادَ لها مُعَدّان مسبّقًا. أما موعدُها فكان بالنسبة إلى أميركا و«إسرائيل» متوقّفًا على الردّ الإيراني وانعقاد قمة مجموعة الثماني بل لو جاء الردُّ إيجابياً، لما وقعت الحربَ!

وبدهيٌّ أنّه لو قُدِّرَ لهذه الحرب أن تحقّق هدَفَها بتركيع الموقف اللبناني، أو دفعِه إلى الانقسام التقاتلي الحادّ في الداخل، أو سَحْقِ قواتِ حزب الله واغتيالِ قائدها سماحة السيد حسن نصر الله، لكانت المنطقةُ الآن قد دَخَلَتْ مرحلةً سيِّئةً جداً من أوجه عدة لا حاجةَ إلى تعدادها وباختصار: لو قُدِّرَ ذلك لكان لبنانُ غيرَ لبنان، ولكانت القضيةُ الفلسطينيةُ أقربَ إلى التصفية، ولكانت الهجمةُ الأميركية الإسرائيلية على المنطقة قد انتقلتْ إلى مرحلة شنّ الهجوم العامّ على المنطقة ـ ولا نستثني دولةً، فضلاً عن سورية وإيران أو العراق والسودان.

## المقاومة على طريق النصر

لكنّ «العتمة لم تأتِ كما يريد الحرامي» [اللصّ] كما يقولون. فقد قوبلت الهجمةُ الأولى التي استهدفت الضاحيةَ والبُنى التحتيةَ والجنوبَ بصمودٍ شعبيٍّ لبناني، وبتماسكٍ سياسيٍّ عامّ التقى عند استنكار العدوان وشجبه وبالطبع فَشِلَ القصفُ، الذي استهدف أولَ ما استهدف قَتْلَ السيِّد حسن نصر الله أو أيٍّ من قيادات حزب الله غيلةً واغتيالاً.

وفي الأسبوع الثاني حاولت الاستراتيجيةُ العسكرية الإسرائيلية تغطيةَ فشلها باحتلال محور مارون الرأس ـ بنت جبيل ـ عيترون. وإذا بقوات «غولاني» (نخبة الجيش الإسرائيلي البرية الضاربة) تصطدم بمقاومةٍ ضارية، وتفاجَأُ بكمائنَ وهجماتٍ لم تتوقّعها وإذا بهذه الهجمة تتحطّم، ويعلَنُ الانسحابُ من بنت جبيل بعد أن وقعتْ خسائرُ فادحةٌ في الأفراد والدبّابات. وبهذا تحقَّقَ أولُ انتصار عسكري بري هامّ تسجّله المقاومةُ الإسلامية فبالرغم من محدوديّته إلاّ أنّه كان فاتحةَ الانتصارات البرية، ليضاف إلى حملة الصواريخ التي انطلقتْ منذ أول يوم تردُّ على القصف الإسرائيلي فتغطّي غالبيةَ المستوطنات الحدودية في الشمال الفلسطيني

صعّدت «إسرائيل» من قصف المواقع المدنية لتَشْمل البقاعَ والشمالَ والطرقَ الحدودية مع سورية وتوسّعتْ في قصف الضاحية وقرى الجنوب وصور. ثم أَعلنتْ عن توسيع الهجوم البري بعد استدعاء عشرات الألوف من جنود الاحتياط وبقيت

# هذه الحرب كيف نَفْهمها؟

الحربُ تدور على هذا المنوال: دمارٌ واسعُ النطاق في لبنان، وضحايا تعدّوا الألفَ من المدنيين، وتهجيرُ أكثر من مليون، وتدميرُ كلّ الجسور. وفي المقابل استمرّ حزبُ الله في إرسال صواريخه لتَشْمل حيفا وعكّا وصفد والخضيرة، مهدِّدةً تل أبيب في كلّ لحظة، كما هدَّدتْ بتدمير مصافي النفط والمصانع الكيماوية في حيفا.

أما على مستوى المعارك البرية الواسعة فقد حدث في عشرات المواقع في العمق ما حدث في محور بنت جبيل. وأصبح عددُ الدبابات المدمَّرة بالعشرات. وبهذا مُني الهجومُ البري بالفشل ولم يُنقذْه القفزُ على بعض النقاط الخالية عن طريق الإنزال الجوي ليسجِّل «انجازًا»؛ فقد تشكَّل نتيجةً للمعارك شبهُ إجماعٍ في الدولة العبرية على أنّ العدوان فشل عسكريّاً في تحقيق أهدافه، واعتُبِرَ توقُّفُه بعد ٣٣ يومًا «كسبًا» للجيش الإسرائيلي، الذي بقيتْ مواقعُه المتقدِّمة على الأرض اللبنانية في حالةِ حصارٍ، ودبّاباتُه تحت مرمى الصواريخ. ولولا ذلك لما تحرَّكَ مجلسُ الأمن.

لم يستطع أولمرت أن يسجِّل نصرًا غيرَ ما ناله في القرار ١٧٠١ (وهو قرارٌ لم يعبِّر عن ميزان القوى ونتائج المعركة عسكريّاً، ولا عن الهزيمة السياسية للعدوان). فقد سارعت الدولُ العربية، ولو متأخِّرةً، إلى التحرك وإسماع صوتها الأبحّ. ولم تبق دولةٌ في العالم الثالث إلا وشَجَبتْ ما ارتُكِبَ من مجازر بحقّ المدنيين وبحقّ لبنان. وارتفع منسوبُ التحركات الشعبية ضدّ العدوان في العالم كلِّه، وهي ملوِّحةٌ بأعلام حزب الله ولبنان وفلسطين.

إلى هنا يجب أن يذكَّر، وبأعلى درجات الإعجاب، بالخطّة الدفاعية المدروسة التي أعدّها حزبُ الله طوال ست سنوات من الجهد والعرق، ومن الحيطة والحذر والسرية في إخفاء المواقع والصواريخ. ويَشْمل ذلك استمراريةَ الحزب في إطلاق الصواريخ وتصعيدِها، وامتلاكَ زمام المبادرة مع كلّ تغيير في استراتيجية العدوّ وتكتيكاته. لقد بيّنا أمام قيادة عسكرية حَكَمَها خطٌّ سياسيٌّ صحيح، وشحَنَتْها روحٌ استشهاديةٌ وعملٌ وصبرٌ وشجاعة. وقد أثبتتْ أنّها متفوِّقة على قيادة العدو عدا في النواحي المتعلِّقة بالسلاح المتطور والتكنولوجيا العالية والدبابات والطائرات والبوارج. فمن خلال قدراتٍ ماديةٍ متواضعة مقارنةً بقدرات العدوّ، لكنْ بقدرات متفوِّقة من حيث الثقة بعدالة القضية ومن حيث المعنوياتُ والإيمانُ والذكاءُ وحسنُ التدبير والتدبّر ودقةُ الخط السياسي الصحيح، تمكَّن حزبُ الله من أن يُفْشل العدوانَ من الناحية العسكرية.

وأخيرًا، فإنّ العدوان كان قد هيَّأ لنفسه غطاءً سياسيّاً دوليّاً، بل وعربيّاً جزئيّاً، لم يَسْبق له مثيلٌ، حتى في عدوان ١٩٦٧ ولكنّ الفضل في ما حدث من تغيير سياسي عربي ودولي، وحتى إسرائيلي، يعود في الدرجة الأولى إلى ما أشير إليه من مزايا تمتّع بها حزبُ الله في هذه المعركة، ثم ما تولَّدَ من غضب شعبي عربي وإسلامي وعالمي على العدوان وعلى كلّ من أيَّده أو تواطأ معه أو صَمَتَ عنه أو أعطاه الفرصةَ الكافيةَ ليَحْسم في الميدان.

صحيحٌ أنّ المرحلة التالية ستكون أشدَّ تعقيدًا على غير مستوى ومجالٍ ومكان. إلاّ أنّ هذه اللحظة وما أُنجِز فيها يجب أن يَأْخذا مَداهُما من الموقف الصحيح حتى يكون بالإمكان خوضُ الصراع في المرحلة الآتية خوضًا ناجحًا.

**عمّان**

**منير شفيق**

كاتب وناشط فلسطيني عربي

# جـــــردةُ حـــــــســــــــابٍ أُولــى

طارق علي

انتهت الحربُ العربية ـ الإسرائيلية السادسة بانتكاسةٍ خطيرةٍ لإسرائيل ولرُعاتها في واشنطن ولندن. فهذه هي الحرب الأولى التي تتجاوز فيها الخسائرُ العسكريةُ الإسرائيلية خسائرَ أعداء إسرائيل من العسكر. ولم يُخْفِ بوش، وكلبُه الهجومي [بلير]، أهدافهما الحربية. فقد أرادا تدميرَ حزب الله، وكانا واثقيْن بالنصر إلى حدِّ توهُّمِهما أنّ أسبوعًا إضافيّاً من الجرائم ـ من القصف، وقتل المدنيين، إلى آخره ـ قد يحقّق النتيجة. غير أنّهما استخفّا بالدعم الذي يلقاه حزبُ الله، وبمهاراته السياسية والعسكرية. وبالرغم من انعدام التناسب بين الطرفيْن (فحزب الله أقلُّ عددًا بكثير ويواجه عدوّاً يتمتّع بتشكيلة واسعة من التقنيات العسكرية المتطوِّرة)، فإنّ نوعية المقاومة فاجأتْ جيشَ «الدفاع» الإسرائيلي.

نجم عن ذلك أزمةٌ سياسيةٌ داخل المؤسسة الإسرائيلية، وبدأ العمل على إيجاد أكباش محرقة. الأرجح أن تتمّ التضحيةُ بـ «التعيس» أمير بيريتس؛ فليس ثمة سياسي أو ضابط إسرائيل على استعداد لمواجهة حقائق الوضع: فإمّا نهايةٌ دائمة للاحتلال في فلسطين ولبنان، وإمّا حربٌ مديدةٌ لِما تبقّى من هذا القرن.

من الحماقة أن نتصوّر أنّ الحرب انتهت. فالإسرائيليون، بعد أن هُزِموا في مسعاهم الفجّ والبربري لتحطيم حزب الله ولإلحاق العقاب الجماعي بالشعب اللبناني، سيحاولون الكَرَّةَ، وذلك من خلال المناورات والمكائد السياسية، بل ومن خلال هجوم عسكري جديد عند الضرورة. على السياسيين اللبنانيين وكتّاب الأعمدة من الصحافيين ممّن تملّكتْهم أوهامٌ خطيرةٌ حيال الولايات المتحدة، فضلّلوا شعبَهم؛ أقول على هؤلاء ألاّ يكرِّروا أخطاءهم. فتوجيهُ اللوم إلى إيران وسوريا بسبب ما فعلتْه إسرائيل، بدعمٍ من الولايات المتحدة، أمرٌ أحمقُ ويثير نتائجَ عسكرية. إنّ الولايات المتحدة لن تدافع عن استقلال لبنان. وكيف لها ذلك؟ إنّ الأميركان يريدون أن يصبح لبنانُ محميةً إسرائيليةً ـ فرنسية. لقد بدأتْ إعادةُ استعمار الشرق العربي، بمساعدة القوى الكولونيالية القديمة والجديدة، مع اتفاقيات أوسلو، وتلاها غزوُ العراق واحتلالُه. وقد تسبّب الأمران، أوسلو واحتلالُ العراق، بالكارثة، وهو ما ينطبق على الحرب على لبنان أيضًا. أما الزعماءُ الفاسدون في السعودية والأردن ومصر الذين أَعطوْا موافقتَهم (سرّاً) لإسرائيل بشنّ الحرب، فقد أَمِلوا أن يَنْجح الغرب. وهؤلاء الزعماء تلقَّوْا هم أيضًا ضربةً قويةً؛ ولو سُمِحَ بالديموقراطية في تلك البلدان الثلاثة، فمَنْ كان سيَشكُّ في أن تَعْمد الغالبياتُ الشعبيةُ الكبرى فيها إلى إسقاط سلالةِ آل سعود والدُّمى الهاشمية ومبارك وعائلتِه؟ وهذا يفسِّر لماذا لا يَدْعم الغربُ الديموقراطيةَ في إقطاعاته.

إنّ حزبَ الله يستطيع أن يدافع عن لبنان، وقد دافع عنه فعلاً. كما أنّه أرسى الركيزةَ الحقيقيةَ للاستقلال اللبناني. وهذا الاستقلال لا يمكن بعد اليوم حمايتُه بالادّعاء والتظاهر. بل إنّ إحصاءً رسميّاً للبلاد بات ضروريّاً اليوم من أجل تقرير مستقبل الديموقراطية في لبنان. إنّ التقسيم الكولونيالي لهذا البلد قد لاءم فرنسا في الماضي، لكنّه لم يكن ملائمًا لشعب لبنان ـ وهذا يَنْطبق على الواقع اليوم أكثر من أيّ وقت مضى. إذن، إمّا أن يؤمِن المرءُ بالديموقراطية التمثيلية (خلافًا للديكتاتورية المصرية التي أَكَلَها العُثُّ) ـ وفي هذه الحال يجب إحصاءُ عدد المواطنين اللبنانيين ـ أو التخلِّي عن كلّ ذلك والقبولُ بمنزلةِ الخضوع للاستعمار. هذان هما الخياران اللذان يواجهان لبنان.

إنّ سياسيي لبنان يتعرّضون للضغط من قِبل أصدقائهم الغربيين لكي يَفْعلوا شيئًا، لكنّ البربرية الإسرائيلية تصعِّب أمورَهم كثيرًا. أشكّ في أنّهم سيتعلّمون أيّةَ دروس حقيقية من هذه المأساة، غير أنّ شيئًا واحدًا لا يستطيعون فعلَه، وهو نزعُ سلاح حزب الله. فهذا سيكون قريبًا من الانتحار!

**لندن**

**د. طارق علي**

مثقف باكستاني ـ بريطاني مستقلّ. وقد كتب مقالَه خصِّيصًا لـ الآداب، وترجمها رئيسُ التحرير

# في تكوين «ثقافة الهزيمة» وأصولها

ياسين الحاج صالح

«.. أن نَشْعر بالفخر، لكنْ بقلب منكَّس»

(عباس بيضون)

## حربٌ خيّبتْ يأسَنا!

فاجأتْنا الحربُ. شوّشتْ مخطّطاتنا الإدراكية المستقرة. فقد اعتدنا أن نَنْهزم و... نرتاح. اليوم يبدو أنّ «خطأ» ما قد حصل. يبدو أنّه تحقّق لنا فوزٌ من نوعٍ ما. كيف نسمّيه؟ كيف نَشْعر حياله؟ ماذا نفعل به؟ يا لها من ورطة! أما كان أقلّ إرباكًا لو أنّنا هُزِمْنا مجدَّدًا؟!

و«نحن» التي يحيل عليها الكلامُ هنا هي قطاعٌ من المثقفين العرب المعنيين بفكرة العروبة. قد يسائلونها ويساجلونها، وقد يصارعونها ويتقاتلون معها، لكنّهم لا يَمْلكون إنكارَها والتخلّي عنها. الـ «نحن» هذه معنيةٌ باستيقاف الحرب التي استوقفتنا وأربكتْنا، بمساءلتها عن آثارها ومعناها، بنزع غرابتها أو «شذوذها،» وإدراجها في موقعٍ نَعْرفه أو نألفه؛ أو قد تكون هذه الـ «نحن» معنيّةً بالعكس بإعادة هيكلةٍ وعينا حول اختلافها وجديدها وطاقتها التغييرية المحتملة.

لكنّ الحرب ليست موضوعًا لهذا المقال. وإنّما سنتخذ من تلك الحرب، التي خيّبتْ يأسًا تَعِبْنا منه حتى سكنّا إليه، مناسبةً لفحصٍ وعينا وتقليبِ النظر فيه. وسنحاول النظرَ في عين الهزيمة لا لننغّصَ على المنتصرين انتصارَهم، بل لنعرفَ أين نضعه... فلا يَضيع.

## هزيمتان

تشكّل الوعيُ العربي خلال العقود الأربعة الأخيرة تحت وطأة هزيمة مركّبة. هزيمةٍ أمام المعتدي الإسرائيلي، وهزيمةٍ أمام نُظم استبدادية مخيفة وغير محترمة. نقول، منذ الآن، إنّ الأُولى هي الهزيمةُ الأصغر. أما الاستبداد فهو أم الهزائم: إنّه الهزيمة المستمرة.

خطاب الاستبداد انتصاريٌّ من جهة، وتخويني من جهة أخرى. وهو لا يكفّ عن «الانتصار» على الأعداء، ولا عن تخوين كلِّ مَنْ يشكّك في ذلك. وبينما كانت الانتصاريةُ ولا تزال إيديولوجيةً، فقد أَضْحت الهزيمةُ ثقافةً. أعني بذلك أنّها كفّت عن أن تكون مشكلة، بل بات الركونُ إليها حلاً مريحًا، نفسيّاً وفكريّاً، لتَجاذُبنا المعذِّبِ بين آمالٍ لا تتحقّق وكوارثَ لا تتأخّر. ننهزم كي لا ننهزم. نعيش في الهزيمة كثقافة، كحالٍ مستقرّة، كيْلا تكون هزيمتُنا طازجةً كلَّ مرة، راعفةً كلَّ مرة، معذِّبةً كلَّ مرة. ولكنْ لأنّ الهزيمة باتت ثقافةً، فإنّنا لم نَعُدْ قادرين على مجرد استنكار نُظُم التعذيب والقتل والإذلال التي تتحكّم بنا، ولا على إدراك الكذبة الكبيرة التي تجعل من القَتَلةِ واللصوصِ أبطالاً قوميين.

الفكرة الشائعة عن ثقافة الهزيمة هي أنّها استبطانُ الشعور بالضعف أمام إسرائيل، والتسليمُ لها بالتفوُّق، والكفُّ عن مقاومتها، وربما الانتقالُ إلى لوم مَنْ يتجاسر على المقاومة. غير أنّ هذا جانبًا واحدًا فحسب من ثقافة الهزيمة. الجانب الأهمَ هو سلبُ المجتمع قدرتَه على الفهم والاعتراض والانتظام الطوعي المستقلّ، سواءٌ ضدّ عدوّ خارجي أو في مواجهة شروطٍ ومصاعبَ وتحدّياتٍ تنمويةٍ وفكريةٍ واجتماعية. ولو اقتصر الأمرُ على هزيمة عسكرية أمام العدوّ، أو على شروط تاريخية عسيرة...، لكانت المشكلةُ عمليةً وتتطلب جهودًا أكبر ووقتًا أطول. غير أنّ ما جعل من أوضاعٍ صعبةٍ هزيمةً، وجَعَلَ الهزيمةَ ثقافةً، وجعل من مشكلةٍ عمليةٍ أزمةً كيانيةً، إنّما هو إخفاقُنا في حلّ المشكلة السياسية؛ أعني ترويضَ غول السلطة واستئناسَه، وتحويلَ السلطة الجهازية إلى دولةٍ مؤسسية. بهذا الإخفاق أَعَدْنا «كسبَ» الهزيمة أمام العدوّ، وأقصد ضمانَ إعادة إنتاجها بصورة مستمرة. والغول الذي لم نتمكّن من ترويضه لم يلبثْ أن أَخَذَ على عاتقه ترويضَ كلِّ واحدٍ منّا وكُلِّنا معًا.

إنّ تقصّي أصول إخفاقنا السياسي يَخْرج عن نطاق هذا المقال الوصفي. لكنّنا نكتفي بالقول إنّ الاستبداد، الذي خَبِرْناه قبل

دجوني باربرْ

سماح إدريس يقرأ لأطفال قرية سلعا

هزيمة حزيران، انفلتَ بعدَها من عقاله، فصار طغيانًا مهولاً، هدفُه الحفاظُ على نُظُمٍ فقدتْ أدنى احترام منْ رعاياها. وليس أقلَّ أهميةً أنّنا لم نَعُد نستطيع إضفاءَ النسبية أو المرحلية على ذلك الاستبداد، أي النظرَ إليها كـ «ثمن» ـ ربما يكون ضروريّاً ـ من أجل التحرير أو الوحدة أو التقدُّم كما كان الحالُ في مرحلة «المشروع القومي » فالحقّ أنّ اندلاع الطغيان وتماديَه عقودًا قد حَوّلا اتجاه المشاعر من الحقد على العدوّ إلى الحقد على الذات العاجزةِ والمشروخة ذلك أنّ الطغيان في وقاعه المعاش هو عدوانٌ يوميٌّ على جميع الأفراد، وتعميمٌ للخوف: خوفِهم من إرهاب أجهزة الطغيان، وخوفِهم من بعضهم، وكسرِ عيونهم، وإذلالِهم، وسحقِ مَنْ يتجاسر على الاعتراض. وفي المجمل، فإنّ الطغيان إسكانٌ للخوف في القلوب والعيون. إنّه خوفُ الناس من الخوف هذا هو جدارُ الخوف الذي نتحدّث عنه عند تناول آليّات الطغيان. إنّه جدارٌ مبنيٌّ داخل كلّ إنسان، الأمرُ الذي يجعل كلَّ واحد منّا سجينًا داخل خوفه. ومن ثم لا يحتاج الإرهابُ إلى مبرِّرات خارجية، على شكل احتجاجاتٍ أو مقاومةٍ لسلطته؛ ذلك لأنّ مبرِّره قائم في طبيعته، في حاجته إلى سيطرةٍ مطلقةٍ مؤبَّدةٍ على رعاياه. لذلك فهو يحتاج إلى تمارينَ إرهابيةٍ، واستعراضاتِ خضوعٍ متكرِّرة، كي ينشط استسلامَ «الشعب» المنكود

هنا تتحوّل الهزيمةُ الخارجيةُ إلى انكسار داخلي. فإذا كانت عشرةُ أيام من التجويع كافيةً لترويض النمور حسب قصة زكريّا تامر البديعة، فإنّ ما يقارب أربعين سنةً من القمع والإذلال اليومي والتجويع تكفي لتدجين شعبٍ أبيّ لقد هزمتْنا إسرائيلُ مرةً أو مرتين أو خمسًا، لكنّ مَنْ يهزمنا كلَّ يوم ويُذِلُّنا كلَّ يومٍ هو غولُ الطغيان.

### نقدُ نقدِ الأنظمة

شاع في ظل أنظمة الطغيان هذه نوعٌ من النقد السياسي، عمومي وتجهيلي، بثلاثة معانٍ. فهو، أولاً، لا يسمّي الأشياءَ بأسمائها، لأنّ ذلك مخيفٌ وباهظُ الثمن. وهو، ثانيًا، لا ينفتح على أيّ جهدٍ تغييري أو تجاوزي، أو يرتبط ببناء ثقافة مقاومة. وهو، ثالثًا، يتحدّث عن «أنظمة» لا على التعيين، سيئةٍ على نحوٍ غيرِ محدّد، ولأسباب غير محددة.

في عين هذا النقد بدا سوءُ الأنظمة قدرًا مقدورًا، جزءًا من نظام الطبيعة، لعلّه متصلٌ بثقافتنا أو لغتنا أو عِرْقنا أو بالدِّين الإسلامي، الأمرُ الذي أَغْنى عن النظر في تواريخ البلدان المحكومة وتكوينِ نُخَبها ونُظُمها الاقتصادية وبيئتها الجغرافية

# في تكوين «ثقافة الهزيمة» وأصولها

والجيوسياسية. لقد غرس هذا النقدُ الدوغمائي شعورًا مُقعِدًا بالنقص، هو مكوِّنٌ أساسي لثقافة الهزيمة. وأسْهم في الحصيلة العامة في صنع ثقافة الهزيمة، وبات وجهًا أساسيّاً من وجوهها. لا غرابة، إذن، أن يتعايش هذا «النقدُ» مع الأنظمة جميعًا، وأن تتولّى إنتاجَه منابرُها الإعلاميةُ ذاتُها فهو، وإنْ كان أصلُه ردّاً على الهزيمة، إلاّ أنّه نقدٌ مهزومٌ هو ذاتُه. بل هو في حقيقة الأمر «نَقٌّ،» أيْ تذمُّرٌ وشكوى، لا يُسْنِدُ سخطَه من الأوضاع القائمة إلى أيِّ أفقٍ اعتراضيٍّ أو تطلُّعٍ تغييريّ.

وبينما ظلّ هذا النقدُ عاطلاً إزاء القبائل الحاكمة (لعموميّته أولاً ولكونها لا تقيم أصلاً وزنًا لرأي مواطنيها فيها ثانيًا)، فقد كان فعّالاً جدّاً ضدّ الفكرة العربية بدأنا بالنقد، ثم غَلَبَتْنا المرارةُ فتحوّلنا إلى اللوم، ثم غَلَبَنا العجزُ فتحوّلنا إلى اللَّطْم. هذا الانزلاق التدريجي أَبْدَلَ النقدَ الضروري للذات، بما في ذلك الثقافةُ والدينُ واللغة، النقدَ الذي ينفصل منهجيّاً عن تلك الذات كي يراها بصورةٍ أكثرَ موضوعيةً، وكي يَعْمل على إصلاحها، أبدله بانفصالٍ روحيّ عنها وتمزيقٍ لوجهها واستهتارٍ بمخيّلتها ورموزها. أخذنا ننتقم من عجزنا بالتخلّي عن مطامحنا، وننتقم من إخفاقنا في مواجهة العدوّ بتحطيم ذاتنا.

### مأسسة الهزيمة

هكذا بينما تمأسست الهزيمةُ في النظم الحاكمة، فقد عَثَرَتْ في النقد العمومي ذاك على الثقافة التي تثبِّتُها وتطبِّعها وتموِّه خضوعَها باصطناع «لغةٍ نقدية.» والحال أنّ ثقافةً لا تَجْسر على قول الحقيقة هي ثقافةٌ لا يُمْكن إلاّ أن تكون مهزومة. ولا يحتاج المرءُ إلى جهود كبيرة ليتبيّن أنْ ليس ثمة حيِّزٌ معترفٌ به في ثقافتنا المعاصرة للحقيقة، سواءٌ في القضايا السياسية بخاصة أو القضايا الدينية، وسواء كانت حقيقةً أخلاقيةً موضوعُها المسؤولية، أو حقيقةً موضوعيةً نتوسّل البحثَ العلميّ سبيلاً إليها.

هذا، وليس الهجاءُ القَبَليُّ لأعدائنا هو ثقافةَ الهزيمة بل إنّ الهجاءَ الرخيص للعدوّ والكلامَ على جرائمه وإرهابه أضحيا الوسيلة المجرَّبة للتغطية على الطغيان [النظامي] وجرائمه وإرهابه. ولا نغالي إنْ قلنا إنّ ممارسات الطغيان في بلادنا لا تَصْمد للمقارنة مع ممارسات إسرائيل ضدّ الفلسطينيين فقط، وإنما تبزُّها وتزري بها.

ولذلك سيبقى نقدُ ثقافة الهزيمة مهزومًا هو ذاتُه ما لم ينفتحْ على ثقافةٍ ناقدةٍ للطغيان، وعلى سياسةٍ مقاومةٍ للطغيان، وعلى حركاتٍ اجتماعيةٍ مكافحةٍ ضد الطغيان. وللأسف، فإنّ العيّنات التي تسنّى لنا متابعتُها في الأيام التالية للعدوان الإسرائيلي الأخير من «نقد ثقافة الهزيمة» تنتمي في أغلبها إلى هذا الصنف الانتصاري الأجوف بل إنّ أبرزَ منتجيها هم سلطاتٌ تحتقر مواطنيها ولا تكفّ عن تنكيدِ عيشهم وإلحاقِ الهزيمة بهم؛ أو هم وكلاؤها الإيديولوجيون

نعم، لقد هزمتْنا إسرائيل. لكنّ ثقافة الهزيمة ليست نتاجًا تلقائيّاً للهزيمة العسكرية أمام إسرائيل. فَمَنْ حَوَّلَ الهزيمةَ إلى نظامٍ وثقافةٍ واستقرارٍ هو نُظُمُنا الحاكمة. وحتى لو لم نُهزم أمام إسرائيل، أو لم تكنْ إسرائيلُ موجودةً، فإنّ درجةَ وحشيةِ وتعسُّفِ الطغيان الذي يَسْتعبدنا كافيةٌ لتحطيم أيّة إرادة للاعتراض والمقاومة. لذلك فإنّ ثقافة الهزيمة تَنْقض ولا تَنْقد، أو أنّه لا نَفْعَ من نقدها إلاّ بقَدْرِ ما يكون ذلك جزءًا من عمليةِ نقضٍ تتجاوزه وتنفتح على أفقٍ تغييري، أخلاقي وحيوي، لهياكلنا السياسية. وإنّه لمفهوم أن يُوحي سَدَنَةُ الهياكل هذه أنّ هزيمتَنا أمام إسرائيل هي هزيمةٌ عسكرية، وأنّ مواجهتَنا لإسرائيل هي مواجهةٌ عسكرية؛ فهذا يبرِّئهم من المسؤولية عن الهزيمة (بحجّة أنّ «إسرائيل أقوى»)، وفي الوقت نفسه يبرِّر سلطاتِهم المطلقةَ (بحجّة «أنّنا في حالة حرب»)، والأهمّ أنّه يَحْجب عمليةَ الانهزام المستمرة أو دينامية الهزيمة التي تتجسّد في هذه الأنظمة. وإذا بدا أنّ هزيمةَ حزيران ١٩٦٧ حاضرةٌ ومعاصرةٌ لنا كأنّها جَرَت العامَ الماضي، فذلك بفضل

غابرييلا بوليسوفا — الضاحية من خلال زجاج سيارة

إعادة إنتاجها المستمرة في نُظُمٍ سجّانةٍ فَقَدتْ منذ عقودٍ الشعورَ بأنّ تعذيب مواطنيها وقتلَهم محرَّم، وبأنّ نَهْبَ الثروة الوطنية جريمة.

## مقاومتان

خلافًا لما تحاول سلطاتٌ انتهازيةٌ قولَه، فإنّ نقيضَ ثقافةِ الهزيمة ليس الإيديولوجية الانتصارية، وإنّما نقيضُهما معًا هو ثقافةُ المقاومة. وأولُ ركنٍ من هذه الثقافة هو احترامُ الحياة الإنسانية، والمساواةُ في الكرامة بين الناس، وتفكيكُ البنى القمعية التي أَلحْقتْ من الهزائم بشعوبنا أكثرَ ممّا ألحق جيشُ إسرائيل ببلداننا إنْ لم ندركْ ذلك، فإنّنا سنبقى نتخبّط في وحل الهزيمة

وينبغي القولُ في هذا السياق إنّ ثقافة المقاومة ثقافة وليست مقاومة، خلافًا لما يفضّل أن يعتقده متكلِّمون علاقُتهم بالثقافة (كما بالمقاومة) تُنافِس العَدَمَ. والقول إنّها ثقافة يعني أنّ شرطَها الأول هو الحرية، وشرطَها الثاني نزعُ القداسة ـ وأوّلُها قداسةُ المقاومة. المقاومة ليست مقدَّسًا يعلو رؤوسَ المواطنين الأحرار وقلوبَهم وضمائرَهم، بل هي نشاطُهم المكرَّسُ للدفاع عن حرياتهم وعن أوطانهم التي تَكْفل حريتَهم وتحترم استقلالَ ضمائرهم. إنّ تقديس المقاومة هو حيلةٌ تتوسّلها سلطاتٌ ومنظماتٌ لحماية نفسها من الاحتجاج، وللسيطرة على عقولِ الناس وأفكارهم. ليست ثقافةُ المقاومة شيئًا غيرَ الحرية وقد صارت ثقافةً وأساسًا لكلّ ثقافة

ما أريد الخلوصَ إليه هو أنّ مقاومة الاحتلال دون مقاومة الاستبداد موقفٌ متهافت، لا يبدِّد الجوهرَ التحرري للكفاح ضد الاحتلال لمصلحةِ ثقافةِ هويةٍ أو تشريع سلطاتٍ استبدادية فحسب، بل هو يُخوِّن الكفاحَ ضد الاستبداد ويُجرِّمه ويمدِّد في عمر ثقافة الهزيمة.

على أنّ قولَ «لا للاحتلال ولا للاستبداد معًا» ليس البلسمَ الشافي الذي ربما اهتديْنا إليه بعد طولِ ضلالٍ لتمزُّق وعينا وشلَلِ إرادتنا، بقدْر ما هو محنتُنا ومأساتُنا، بل وقَدَرُنا ـ بأقسى معنى للكلمة. ولأنّه كذلك فلا مَهْرب منه، ولا بديلَ من مواجهته. وإنّها لمواجهةٌ تنتهي حتمًا بمأساة

المأساة تنتظرنا متى وأين؟ لا يُمْكن أن نَعْرف. لكنّها أمامنا، في شكلٍ مذبحةٍ هائلةٍ تتلو تمرُّدًا من تمرُّداتنا، في شكلٍ أرمجدون أبوكاليبسية من النوع الذي بَشَّرَ به بعضُ معتوهي اليمين البروتستنتي الأميركي؛ في شكلٍ محرقةٍ نوويةٍ إسرائيلية تقتل الملايينَ منا

# في تكوين «ثقافة الهزيمة» وأصولها

كان أفضلَ بكثير لو أنّنا بلدانٌ وادعةٌ ضعيفةٌ تواجه عدوانًا من قوًى توسعية مثل إسرائيل وأميركا. كان أفضلَ بكثيرٍ أيضًا لو أنّنا نعيش في ظلّ دكتاتوريات عاتية، لكنّنا غيرُ مهدّدين بطغيانٍ دوليّ لا يكتفي بنهب ثرواتنا بل ويحتقرنا ويزدري كلَّ شيء نحترمه ونحبّه. أمّا أنْ نقع تحت حذاءِ طغيانيْن، فهذا مجدٌ مسمومٌ ليتنا حُرِمنا منه!

**حُكْمُ العار!**

إنّ أوّل ما ينبغي الإقرارُ به لاستعادة شرفنا هو أنّنا فاقدون للشرف منذ أربعين عامًا، لا لأنّنا لم نَعْرِفْ كيف نردّ على العدوّ الذي هَزَمَنا، ولكنْ لأنّنا تركنا المهزومين يَحْكمونننا. كان يُمْكن لهزيمة حزيران، على فداحتها، أن تكون عابرةً لو تعامَلْنا معها كمأساة، فنكَّسْنا أصواتَنا وعيونَنا وقلوبَنا لبعض الوقت، نستوعب فيه ما جرى، ونُصْلح من أمرنا ما نستطيع. غير أنّنا، بدلاً من ذلك، استلمنا المهزومون الذين لم يعودوا يرون العالَمَ، وأوطانَهم قبلَ غيرها، إلا كغابةٍ لا قانونَ لها غير القوة، وتكفّلوا بإلحاق الهزيمة الأشدِّ نكرًا بنا في تاريخنا الحديث. استلمونا وهم يَقْرعون طبولَ النصر. ومن أجل أن يمحوا عارَهم، كان عليهم أن يهزمونا جميعًا ويمرِّغونا بالعار ينبغي أن تنكَّس الرؤوسُ جميعًا كي تبقى رؤوسُهم مرفوعةً. ينبغي اغتيالُ الحقيقة كي تصيرَ أكاذيبُ الطغيان ديانةً رسمية. ويجب كسرُ عيون الناس جميعًا كي يصير المهزومون أبطالاً. ولا بدّ من تحقير العقلاء الأحرار كي تعمّ بركاتُ عبقريةِ الطاغيةِ الأمةَ كلَّها

ترى، كيف يمكن ألاّ نرى مطالبات الإسرائيليين لحكومة أولمرت بأن تَرْحل لأنّها «أخطأتْ،» وقبلها استقالةَ غولدا مائير لأنّها «قصَّرَتْ» في حرب ١٩٧٣، فيما نطالب نحن بأن نكون شهودَ زور ونهنِّئ أنفسَنا لأنّ المهزومين ما زالوا يَحْكموننا؟

لسنا مهزومين لأنّ أرضنا مجتلة بل لأنّ نفوسنا محتلة. وليس الإسرائيليون منتصرين لأنّهم يحتلّون فلسطين أو غيرَها، بل إنّهم يحتلّون لأنّهم منتصرون ـ على الخوف والكذب؛ لأنّهم مسؤولون.

زبدةُ القول إنّ أوّلَ التحلّل من ثقافة الهزيمة هو التحرُّرُ من حكم الطغيان. وأولُ تحرير فلسطين هو تحريرُ فلسطيناتنا الداخلية قد نكتشف عندها كم أنّ فلسطين لا تستحقّ كلَّ هذا الخراب، وقد نتبرَّع بها لليهود!

**دمشق**

**ياسين الحاج صالح**

كاتب سوري ومراسل الآداب في سوريا

# أسمـــاءٌ لا تُقلق منامَ أحـد

خالد جبران

أنا لا أفهم في السياسة. لا رأيَ لي في خبايا اتفاق الطائف. لا أعرف حلولاً للطلاسم المعشِّشة بين سطوره. والجهل قد يغدو نعمةً... أحيانًا.

لستُ دبلوماسيّاً لأبلورَ موقفًا ما من مصير الخلافة. لا دراية لي في ما يجوز وما لا يجوز أن يُقال جهرًا وسرّاً. لا أسلوبَ لي في تقنيع السخطِ بالودّ. لا أفقهُ كيف أحوّل الصراخَ إلى همسٍ، والصفعَ إلى لمسٍ، والجهلُ قد يستحيل عذرًا أحيانًا.

لستُ عقائديّاً. لم أعرف اللهَ يومًا من قريب، ولا أَفْهمه من بعيد. أَكِنّ له الإعجابَ على بعض صنائعه، والاستهجانَ على سُبُلِ اصطفاء خلائقه، ويبادلني التوحُّدَ والترصُّدَ. فالجهل قد يبدو كفرًا أحيانًا.

جوازي ليس أجنبيّاً تمامًا؛ فما تسنَّتْ لي زيارةُ لبنان يومًا. لم أنعمْ بشياكة فندق البريستول، ولا تمتّعتُ بعناق حبيبةٍ مقابلَ صخرة الروشة، ولم أمتِّعْ فمي بمأكولات البردوْني، ولا ارتشفتُ الإسبريسو في شارع مونو.

لستُ فيلسوفًا لأُغازلَ تقاطعًا مفهوميّاً ما على محور الزمان أو الدخان بين الفاكهاني وراس بيروت وغاليري سمعان. ولا أُتقن الفرنسية لأجاري اللبنانيين فَرْنَسَتَهُم لكلِّ ما يُرى وما لا يُرى. لطالما حاولتُ لفظَ اسم «بيير» بطريقتهم، إذ يَلْفظونه فرنساويّاً صِرْفًا، هكذا: «بي ـ اغ» عابقًا برائحة الكاممْبير والسَّكْس إيبل، وبالذات هذه الـ «ر» القاتلة ـ فهي عبارةٌ عن خلطةٍ سريةٍ من الـ «غ» والـ «خ» عبثًا حاولتُ ان أمطّ شفتيّ وألويهما، فلم تَصْدر عن حنجرتي الفلاّحية سوى حشرجة: «إبببييرر.. غخ» مثيرةً حَرَجَ صديقتي المصرية واشمئزازَ ضيفِها اللبناني الأنيق.

حسابي مع اللبنانيين لم يبدأ اليومَ، ولن ينتهي عند حدود منكبيْ «بيير.» هو كوكتيلٌ عجيبٌ يَجْمع الانبهارَ إلى الحسد الدفين، والغيرةَ إلى الاعجاب (مع التظاهر باللامبالاة)، والمشتَهَى إلى المتاح. في سنوات السبعين المبكّرة كنّا نراهق معًا ـ أنا تأهُّبًا لنضجي الفسيولوجي، وبيروتُ استعدادًا لحربها الأهلية ـ حين تفتحتْ عيناي النهمتان على مجلة **الموعد** اللبنانية:

«هاي المجلاّت ولا بلاش،» قلتُ بخبثِ المنتصرين لزميل دراستيَ كريم، «عَدَد مبارح فيه صورة ملوّنة لوَحْدِه اسمها كهرمان، مبيِّنْلها كللل إشي!»

«كل إشي، كللل إشييي؟؟» تشكّكَ كريم محمرّاً من الغيظ.

«كلللللللل إشي... تقريبًا . يعني. » أجبتُه متوخِّيًا الحيطةَ، لأنّه عنيدٌ وتَنِح، وسيزورني حتمًا في النهار نفسِه لنقارنَ محاسِنَ «كهرمان» بمفاتن «نادية أرسلان» التي أنارتْ غلافَ مجلة **الشبكة** في الأسبوع الفائت، وكنّا قد أشبعناه بحثًا وتمحيصًا ودراسةً في صالون الحلاقة التابع لوالده.

البعدُ بين قريتي الجليليةِ العابسة ولبنانَ الضاحكِ كان يتقهقر طرديّاً مع انكماش مساحات الأقمشة عن أجساد اللبنانيات الموشَّحة بالميني والبيكيني على الاطلس لم تزد المسافة عن «خطوة أو تنتين.»

قبل أن ننفِّذَ مشروعَنا ونتسلّلَ إلى لبنان ليومٍ أو يوميْن، طلبْنا مشورةَ ابن عمي الذي يَكْبرني بسنة ونصف؛ وبناءً عليه، فهو مرجعي الذي لا يَنْضب في شؤون الحياة وهمومِ الآخرة.

«هه هه مجانين، تروحوا مَشِي؟ بخخخخخ، بيقتلوكو الفدائيّة (الفدائيون) ياهبلان » أجابنا، بحكمةِ المجرِّب، ابنُ الصفّ السادس ابتدائي.

«ليش؟ هم الفدائيّة مِشْ عرب مثلنا؟ طَبْ منحكي معهم في العربي!»

قَطَّبَ حاجبيْه الكثيفيْن، وأعاد جمعَ حساباته وطَرْحَها، ثم أطلق فتواه بوقار العارفين:

«بيقتلوكو عشان إنتو مسيحيّة (مسيحيون).»

أُسقط في يدي.

«مافيش غير حلّ واحد،» أضاف، «زيّ ما أنا عملت زمان، قَطَعتها سباحة مِنْ عكّاا . لبيروت.»

«بششششرفك؟ احلفْ!»

«مش بيروت بالزبط يعني، وصلتْ عند صيدا وكمّلتْ مَشِي على بيروت وشفت أشياء كتير »

# أسماءٌ لا تُقْلق منامَ أحد

ازدردتُ لعابي متحفِّزًا: «و. وشو شفت؟»

«هه، بلاش أحكيلكْ أحسن تتعقّد، بعدَك زغير، وإنتَ أصلاً بتعرفش تسبح زيي، بخخخخ.»

تعقّدتُ دون أن «يحكيلي»؛ فأنا فعلاً لا أُتقن السباحة. وحلّقتْ بيروتُ مبتعدةً عن دموعي وعن سريري بشقراواتها ورملتها البيضاء، بشوارعها السندسية وفِرَقِ البوپ التي تملأها هيصةً، بدُورِ نَشْرِها وأطنانِ الكتب التي كنتُ قد أزمعتُ أن أقتنيَها أثناء تسلُّلي

صُوَرُ موشيه ديان كَحّلتْ جدرانَ مدرستنا وقناطرها العتيقة احتفاءً بعيد «الاستقلال» المقترب. هذا الرجل، ذو العين المعصوبة والابتسامةِ الصفراء، هو حامينا من الفدائيين؟ لا بل إنّه، وبرحابة صدره، يحمي زملاءنا المسلمين والدروز أيضًا.

لم يعجبْني شكلُه. كونه يهوديّاً يعني أنّه من قوم يهودا الإسخريوطي، وهذا الأخير لم يتمتّع بسمعةٍ حسنة عند خوري القرية، ولا عند جدتي لأمي.

لعب الفارُ في عبّي

«أستاذ؟» تساءلتُ، «قال مزبوط إنّنا لازم نخاف من اليهود ومِشْ من الفدائية؟»

«خالد! سد بوزك وخلّي عينيك في كتابك!»

سَدَدْتُ بوزي وأبقيتُه مسدودًا إلى أبد الآبدين

❖ ❖ ❖

«رُدّني إلى بلادي، مع نسائمٍ غوادِي...»

شَمَخَ صوتُ فيروز متعاليًا فوق النّفاثات الإسرائيلية التي هَتَكتْ سماءَ بيروت وما تحتها في الثمانينيات.

«قمرٌ على بعلبك ودمٌ على بيروت،

يا حلو مَنْ صَبَّك

فرسًا مِنَ الياقوت؟»

يقاطعها صوتُ محمود درويش، وهو ينزّ أسًى، فيكهرب فضاءَ غرفتي في الجامعة المقدسية ويُشْبعه مرارةً

«لطفي! هو قديش صار له ساكن هناك؟» سألتُ صديقي الجديد وفيلسوفَ نضجنا الثوري، أو «حُجَّةَ الدروزِ وسائرِ العروبة» كما كان يحلو له أن أُسمِّيَه.

بحلقتْ عيناه الذكيّتان قبل أن يجيب. «مين؟ محمود؟ في بيروت؟ صارله من أوائل السبعينيات. ليه بتسأل؟»

«يا أخي مِشْ ملاحظ إنّه كلّ الناس العبقرية والحلوة ساكنه هناك.. في بيروت؟ فيروز، زياد، مارسيل خليفة، بطرس البستاني وناصيف اليازجي، وحتى شو سمها هايْ.. جورجينا رزق، كل إشي له علاقة بالحكمة أو الجمال بيسكن في بيروت، وإحنا مالناش غير هالقدس المسكونة بالأنبياء وبالنكد.»

«خالد، إنت واحد هيدونيست (يقصد: مُتعَوي) بتهتمّ في كل هاي القشور، إحنا هون لازم نبني وطن!!»

«يَزْلَه، هو إحْنا عارفين نبني صحن سباغيتي بالأوّل لنَعْرف نبني وطن؟»

«شوف جاي، هو معاك حقّ، بيروت حلوه فعلاً، لا بل هي أمّ الحضارة العربية يا رفيق، بس اللبنانيين يا أخي، بيحبوناش، هيك، أَبْصَرْ ليش.»

«أبصرْ ليش؟ معهم حقّ، أنا كمان 'بحبناش' لأنّنا زنْخين، دِقْشين، ودمنا ثقيل لطفي! إحنا ما عندناش إشي نِنْحَب عليه، هات نِحْكيها بصراحة. الأكل كلّه بيتقنوه أحسن منا، والعتابا والميجانا كمان لبسْهُم كلّه عالموضة وآخر جمال. شقراواتهم أشقر من شقراواتنا حتى آلهة الفينيقيين بتنحب هيك لوجه الله؛ يعني خود هاي عشتار، عمرَك انتبهت شو تخصُّصها هايْ عشتار؟ القرية بيسمّوها ضَيْعه، شوف النغاشِه؟ ضَيْعه مش 'ڤقريهة.' بعدين إذا بتفوت على الضَيْعه وبتفتح أيّ باب بتفزّ في وجهك صحون الكبّة النيّة، وجرار العرق البلدي، وجاطات التبّولة، وهالدّبيكة بيحوطوك مِنْ هون ومِنْ هون وجاي تقوللي ليش بيحبوناش؟ تاريخهم الحديث يا أخي كلّه مليان مفكّرين وفنّانين وملكات جمال، وجبران خليل جبرانات، ودار صادر ودار الجيل ودار مِشْ عارف شو. وإحنا تاريخنا، شو فيه يا ما شاء الله؟ كله زعران وسرّاقين جاج.»

غابرييلا بوليسوفا

دمار سبّبتْه قنابل عنقودية في عيترون

«إنت واحد انهزامي، وبتتمتّع بالشعور بالدونيّة تجاه اللبنانيين. خالد! إنت شكلك مِشْ عارف تحبّهم إو تحسدهم.»

«فِكْرَك؟؟؟»

«طَبْ هذا محمود زلمتك، فلسطيني ومن الجليل كمان.»

«همممم.. هايْ جِبْتها بس حتّى هو، يا أخي، ولا مرّة شفناله صورة ولا سمعناله صوت غير هالأسبوع من هالكاسيت، وقصيدة شو؟ 'بيروت'! هاي بيروت فيها سرّ عَمْ بقولّك، أَبْصَر شو القصّه.»

«طبْ اسكتْ عاد، شو بدّك إيّاه يكتب يعني؟ قصيدة 'مُصمُص[1]'؟!»

«بتعرف لطفي، خسارة إنّهم أهالينا لمّا تهجّروا في الـ ٤٨ رجعوا بعد أسبوعين وما كمّلوش باتجاه لبنان.»

«ششششوووو؟»

«طبعًا، لو هيك صار كان محسوبك اليوم بيتخمع في شوارع بيروت زيّ ديك الحبش.»

«خالد، هاي اللوثة العقليّة اللي صايبيتك مؤقّتة ولاّ مستديمة؟ لَوْ صار اللّي بتحكيه فعلاً وأهلنا ما رجعوش، كنت إنت اليوم، يا دلّوع أهلك يا شاطِر مرمي في عين الحلوة أو برج البراجنة وبتقدرش تِطْلع من باب المخيّم بلا تصريح خاصّ.»

❖ ❖ ❖

«يا قمر مَشْغَرَة! يا بدر وادي التيم.»

أنا مدينٌ لكم باعتراف لا يخلو من بعض الحرج. لم أفهمْ هذه الجملة من أغنية فيروز قبل هذا الاجتياح الإسرائيلي «التثقيفي» ـ موديل ٢٠٠٦. قرأتُ على شاشة التلفزيون اسمَ قرية «مشغَرة» ضمن باقي قرى وبلدات الجنوب التي حاول الطيرانُ الإسرائيلي «تسطيحَها» و«سهمدتها» تمهيدًا لـ «تطهيرها» النهائي من وجع قلوب سكّانها واتّساعِ حدقات أطفالهم.

«ما أهبلني!» قلتُ لنفسي، فالجملة الصحيحة هي «يا قمر مشغرة،» لا «يا قمر مازغرك» (ما أصغرك) ظنًا منّي أنّ القمر بدا حينَها صغيرًا مقارنةً بهموم القلب مثلاً وعلى ذِكْرِ القلب وهمومِه وجدتُني أتساءل: يا ترى لو عرف الطيار الغازي أنّ اسم «بعلبك» يتناغم ايقاعًا وقافيةً مع «بحبك،» هل كان ذلك سيَجْعله «يتلبّك» ولو للحظات قبل إطلاق القذيفة؟

١ ـ اسم قرية فلسطينية

# أسماءٌ لا تُقْلق منامَ أحد

استهواني هذا الدرسُ البديعُ في الجغرافيا السوسيو ـ موسيقية، والمقدَّم إليّ مجّانًا ومع كلّ الحبّ برعاية سلاح الجوّ الاسرائيلي التقيّ النقيّ، فأمعنتُ ربطًا ما بين أسماء البلدان وصداها الثقافي في ذهني.

انتابني هلعٌ حين اكتشفتُ أنّ علاقتي بمعظم هذه الأسماء لا تقلّ عاطفةً عن علاقتي بمدن فلسطين: صور، عنجر، إبل السقي، النبطيّة!...

النبطية شبه مهجورة، مستباحة، تكاد تختنق من الدخان، محرومة حتى من ذِكْر اسمها في أية أغنية، أو عملٍ أدبي. هي ليست بشريّ، ولم يُجْمِلها جبران مع القرى النائمة «على كتف وادي قاديشا.» لكنّ صداها ذو وقع مختلف كليّاً: فهي مسقط رأس إيمان. وإيمان، هذه، قصةٌ بحدّ ذاتها.

كان لقاؤنا الأول في القاهرة، التي احتميتُ بها مشلولاً من القهر في ربيع عام ٢٠٠٢، فارّاً من فظائع مذبحة جنين، يومَ قام الجنودُ بـ «تطهير» مخيَّمٍ للاجئين ملقِّنين سكّانَه درسًا عمليّاً في فن الصَّلْب.

«خالد، والنبي ما تنساش أنّ إيمان دي ستّ شيعيه، متزوِّجه، متديِّنه، ومحجّبه فيا ريت يعني لو تمْسِك لسانَكْ شويّه، وتخفِّف البزاءة الفلستيني المعهوده بتاعتك حبتين منعًا للإحراج. معلش، عشان خاطري.» هكذا هيّأتني صديقتُنا المصرية المشتركة قبل هبوط طائرة ايمان بلحظات.

لم تكد شفتا إيمان تنبسان بأوّلِ كلمة بعد التحية حتى كانت كلُّ أفكاري المسبّقة عن النساء اللبنانيات قد تبخَّرتْ.

لم يكن شغفي بالحركة الشيعية عبر التاريخ العربي بالأمر الجديد، ولا الخفيّ لا ادري إنْ كان ذلك نابعًا من إعجابي بشخصية عليّ وكتاباته، أمْ أنّه تضامنٌ فلسطيني بديهي مع مأساة الطالبيين. على أيّ حال فهذا كلُّه أمرٌ فلسفي و«مقدور عليه»؛ أمّا أن أقابل، ولأوّل مرة في العمر، لبنانية، مؤمنة، محجّبة، وشيعية أيضًا؟

متجاهلاً تحذيراتِ مضيفتِنا، رحت «أشمشم» شخصيةَ إيمان، وأُسائلها إنْ كانت لا تزال تتألّم لطعناتِ عَلِيّ أو تَحْمل في روحها ندباتٍ ما من جراح الحسيْن، متوجِّسًا من نواياها القتالية، وهي تستفسر عن وصفة والدتي الخاصة لتحضير أصابع المعكرون التي طار صيتُها من الجليل إلى النبطية غيرَ آبهٍ بالحدودِ وحقولِ الألغام. بعد دقائق كنّا نتبادل المزاح واللماضة اللبنانية الفلسطينية الشهيرة، واكتشفتُ أنّ طولَ لسانها يتناسب جداً مع قامتها الفارعة، وأن تَعَقْرُبَ قوسيْ حاجبيْها يتناغم مع حجاب رأسها الشِيكْ، وأنّ لسانَها الفرنسي الطليق يتعايش مع لهجتها النبطية بسلامٍ أكثرَ بكثيرٍ ممّا أتعايش مع نفسي. لا أَذْكر إنْ كنتُ ضحكتُ أمْ بكيتُ حنيناً حين قالت. «ولَكْ آآآآشش؟ أنا بأوِّص الرجال كلّهم ولا..» فأعادت إلى ذاكرتي شخصيةَ «أبو سليم» [الممثِّل صلاح تيزاني ـ الآداب] وبعضًا من رائحة طفولتي. أطلقتُ عليها لقبَ التحبّب «أبو الجار» لأنّها فعلاً جدعة و«شيخة شباب.»

«طب يعني هم النسوان المحجبّات برضه بيحلقوا شعر راسهم زي المتديِّنات اليهوديات؟» سألتُ مضيفتَنا المصرية فيما بعد.

«اللّه! إيه الحكاية؟ يا خالد إنت هتِفْضل كده عبيطْ على طول؟ دي إيمان أمّا (حينما) توضَّبَ شعرها تبقى ضفايرها طويله وتخينه أوي!، وشعرها إسود إسود كده زيّ الفحم يا خالد قلتلك كزا مرّه، الستات المحجّبات دول بشر عاديين زيِّنا بالزبط.»

«لاعع؟؟»

❖ ❖ ❖

الإنزال الإسرائيلي العبقري في بعلبك، ذاتِ العمدان الستة، تمخَّضَ عن اعتقال راعي ماعز، أو كما لخَّص أحدُ السكّان المدهوشين «العسكر وأتين ظهروا (عندما ذهبوا)، أموا اعطالوا (اعتقلوا) واحد معيّز.» صرت أضحكُ من لهجته الطريفة، وأبكي للطالع النَّحس الذي انصبّ على رعاة الماعز اللبنانيين في هذه الحرب الإلكترونيةِ الدقّةِ والإسرائيليةِ الأخلاق. هذا ثاني أو ثالث راعٍ يتمّ اعتقالُه لكونه «يَشْغل منصبًا رفيعًا في حزب الله.» ترحَّمتُ على «مَطَر محمد» الذي كان يَعْشق حياةَ الرعاة في

غابرييلا بوليسوڤا

الضاحية الجنوبية نصر من الله

الطبيعة ويمارسها، وعلَّمَ بُزُقَه كيف يبوح لنا بكلّ زغاريد وولولات الجبل والبقاع «الله رحمك يا بو محمد،» قلتُ لنفسي، «لو بقيت على قيد الحياة إلى اليوم لكان 'العسكر اعطالوك' (اعتقلوك) أنتَ أيضًا بتهمة إشغالك منصبًا رفيعًا جدّاً في مغنّاة الأرز والوديان »

❖ ❖ ❖

يتفشخر الإعلامُ العسكري الإسرائيلي، وفي أعقابه قطعانُ التلفزة العالمية، بصور فيديو تُظْهر «أناقةَ» الإصابات من الجو، فترى صورةً علويةً لإحدى «الضيع ياللي عاشقه النجمات» مع مؤشّرٍ يُشْبه الصليب هي لحظات وينفجر المبنى ـ بمن فيه غالبًا ـ مُرفَقًا بتهليل المحلِّلين العسكريين ومُدْمني العاب الكمبيوتر

سئل قائدُ سلاح الطيران الإسرائيلي عن شعور الطيّار حين يكتشف أنّ قذيفته الذكية أدّت إلى موت العشرات من الأبرياء والأطفال، فأجاب بكلّ هدوء. «أشعر برعشة خفيفة في جناح الطيارة، تختفي بعد لحظة.»

هذا اجتياحٌ تثقيفي بلا شكّ، فحتى الآن كنتُ أعتقد أنّ مصطلح «بجاحه» المصري يصف الروحَ الإسرائيلية بشكل عبقري. لكنّي أخشى أنّه سيتراجع متواضعًا منذ الآن. كما أنّ النشيد الجميل للملك سليمان: «ما أجملَ رجليْكِ بالنعل يا بنتَ الكريم.. نهداكِ كشادنَيْ ظبيةٍ توأميْن أنفُكِ كبرج لبنانَ الناظرِ تجاه دمشق» سيَخْرس صاغرًا هو الآخر أمام كلامِ شاعري الأثير[1]:

سماءٌ ثاكلٌ جلستْ على حجرٍ تفكّرُ
وردةٌ مسموعةٌ،
بيروت
صوتٌ فاصلٌ بين الضحيةِ والحُسام.
ولدٌ أطاح بكلّ ألواحِ الوصايا
والمرايا
ثم نام.

**فلسطين**

**خالد جبران**

موسيقي فلسطيني

---

١ ـ محمود درويش

# مقالتان عن حرب لبنان

ماري ك. ويلسون

## أ ـ النصر، ٢٠٠٦/٨/١٤

الكلمات التالية هي للرجل الذي أعلنَ في ٢٠٠٣/٥/١ أنّ المهمة انتهت في العراق:

«كيف تدّعي النصرَ حين كنتَ دولةً ضِمْنَ دولة، آمِنًا في جنوب لبنان، ولكنّكَ الآن ستُستَبْدل بجيشٍ لبنانيّ وقوةٍ دولية؟»

كيف؟

فلأُعدِّد أوجُهَ هذا النصر[1]

١ ـ السيد حسن نصر اللّه هو الآن أكثرُ زعيمٍ محترمٍ في العالم العربي.

٢ ـ حزبُ اللّه الآن يحظى بالاحترام في لبنان والعالم العربي أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى منذ الانسحاب الإسرائيلي عامَ ٢٠٠٠.

٣ ـ حزبُ اللّه ما زال يحتفظ بالجنديّيْن الإسرائيليّيْن اللذيْن أَسَرهما في ١٢ تموز (يوليو) لمبادلتهما وهما في انتظار حصول المفاوضات، التي يُصرّ عليها السيّد حسن نصر اللّه، والتي ستحرِّرهما مقابلَ تحريرِ أسرى لبنانيين وفلسطينيين في إسرائيل.

٤ ـ لقد أَجْبر حزبُ اللّه إسرائيلَ على دفعِ كلفةِ عنصريّتها المعادية للعرب.

٥ ـ بعضُ الجنود الإسرائيليين يَرْفضون أن يَستخدموا التعبيرَ الشائع «إرهابيون» لوصف مقاتلي حزب اللّه بل يصرُّون على استخدام تعبير «جنود،» اعترافًا منهم بالاحترافِ الذي أَظْهره حزبُ اللّه في الحرب الأخيرة

٦ ـ حزبُ اللّه حافَظَ على نسبةٍ منخفضةٍ من الضحايا المدنيين إلى الضحايا العسكريين الإسرائيليين، وذلك مقارنةً بالقوات الإسرائيلية. ومع ذلك فلم يستسلم حزبُ اللّه

٧ ـ ما زال مقاتلو حزب اللّه في مواقعِهم، وما زالوا مسلَّحين لم يُجبَروا على مغادرة عائلاتهم ولا جنوب لبنان دونما حماية.

٨ ـ حزب اللّه بقي في الميدان أكثر من ٦ أيام. ولقد ساعدت الولاياتُ المتحدة الحكوماتِ العربيةَ على أن تبدو أكثر عجزًا وفسادًا في أعينِ شعوبها من أيّ وقتٍ مضى. كما تبدو حكومةُ إسرائيل مُضَعْضَعة

٩ ـ إسرائيل الآن تفاوض حركة «حماس» من أجل الإفراج عن جنديِّها الذي أسرتْه في قطاع غزة قبل أسبوع من ١٢ تموز (يوليو).

١٠ ـ رُفِض التمنّي الأميركي ـ البريطاني ـ الإسرائيلي بإرسال قوات من «الناتو» إلى الجنوب اللبناني.

١١ ـ كان على إسرائيل والولايات المتحدة، اللتيْن تَضْربان عرضَ الحائط بقرارات الأمم المتحدة، أن تلجأا إلى الأمم المتحدة

١٢ ـ ثَبَتَ من جديد أنّ حملةَ الصدم والترويع غيرُ فعّالة.

١٣ ـ لو كان الهجومُ الإسرائيلي مصمَّمًا في الأصل للتحضير لهجوم أميركي أو إسرائيلي على إيران، أو لامتحان الأسلحةِ من أجل هذا الهجوم (على ما يوحي سيمور هيرش في الـ **نيويوركر** في ٢٠٠٦/٨/٢١)، فإنّ ذلك قد فشل. لاحظوا، رجاءً، أنّ هيرش يلمّح إلى أنّ الإدارة الأميركية قد تكون عجزتْ عن فهم هذا الأمر (أصلاً) على ما توحي كلماتُ الرئيس بوش نفسه

## ب ـ الأميركية الطيِّبة

كنتُ محظوظةً. فقد غادرتُ لبنان في ٢٠٠٦/٦/٣٠ مثلما قرّرتُ منذ وصولي في أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٥ كنتُ محظوظةً لا لأنّني أفلتُّ من الحرب بقَدْرِ ما لأنّني لم أكن مضطرّةً إلى أن أقرِّر البقاءَ أو المغادرةَ. وحتى لو قرّرتُ المغادرة فإنّي لم أكن مضطرةً إلى أن أختار بين أن أفعلَ ذلك وحدي أوْ تحت حمايةِ الدولة [الولايات المتحدة] التي كانت وراء هذه الحرب أصلاً

ذكرياتي عن بيروت تستدعي ذكرياتي عن ذلك الصباح من يوم ٣٠ حزيران (يونيو)، الساعة الخامسة والنصف فقد قادني سائقُ

١ ـ استعارة من قصيدة لاليزابيث باريت براوني «كيف أحبُّك؟ لأُعدِّدِ الأوجُهَ»

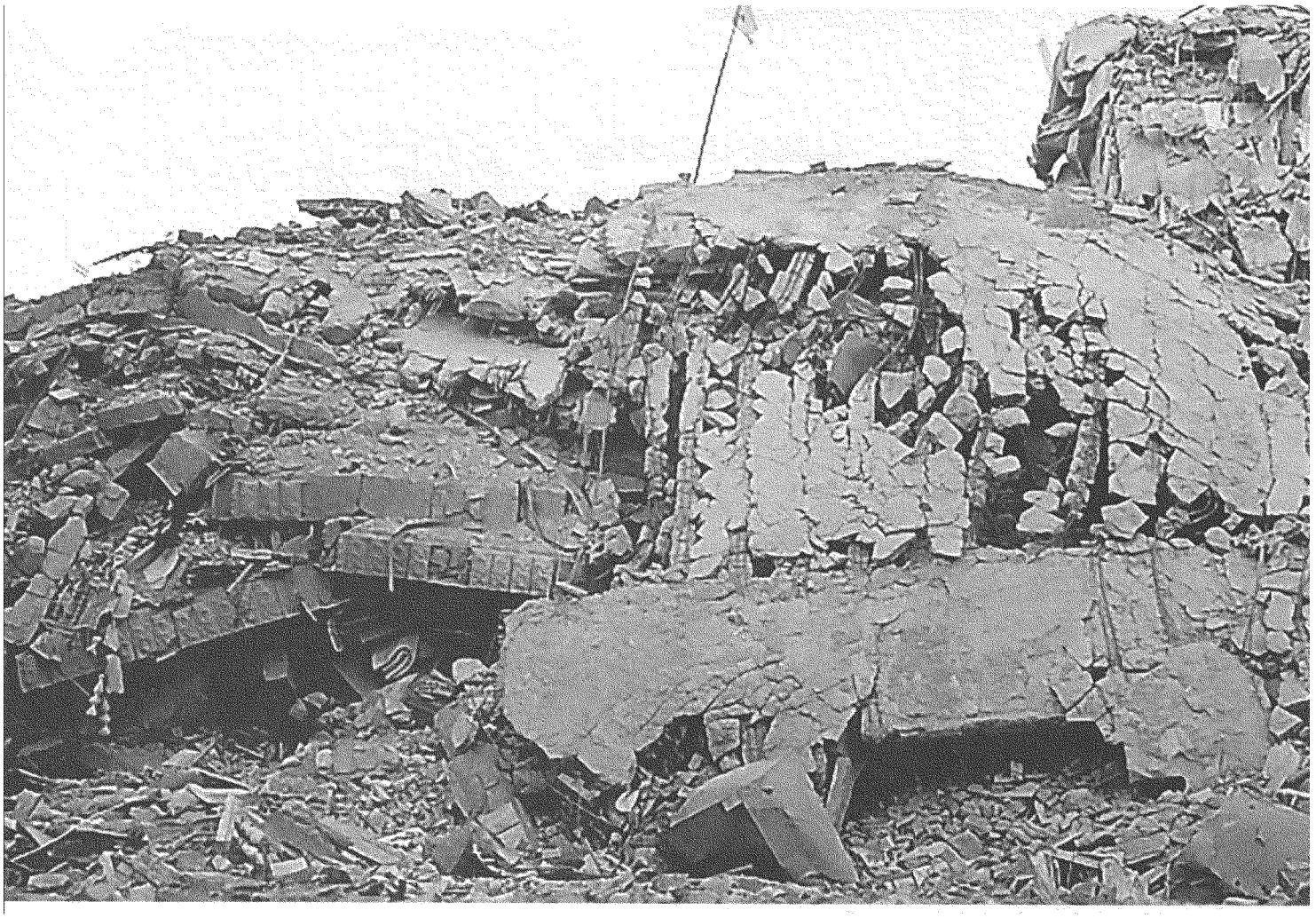

غابرييلا بوليسوڤا

الضاحية الجنوبية علمٌ فوق دمار

التاكسي «علي» إلى الكورنيش، ومنه إلى الروشة، ومن ثم إلى المطار عبر ضاحية بيروت كانت المدينة، وهي على وشك الاستيقاظ، منعِشةً وزهريةَ اللون، كأنّها الشفةُ الخارجيةُ لصَدَفَةِ المحارة

أثناء الطريق رحتُ أَعُدُّ كلَّ الأشياء التي لم أفعلْها، وعزّيْتُ نفسي بأنّها تعطيني مبرِّرًا جيِّدًا للعودة إلى بيروت. لكنَّني أميركية، ويبدو لي أنّ الأميركيين سيحاولون اليوم ـ كما فعل الألمانُ ذاتَ يوم ـ ادّعاءَ البراءة كلّما خَرَجوا من حدود الولايات المتحدة.

قبل عشرين عامًا كنتُ في أحد المؤتمرات. بين المؤتمرين إسرائيلي، وألماني، وعربي. كان الإسرائيلي صارمًا إزاء الألماني، وما لبث أنْ سَمَّره في مكانه وراح يَقْصفه بالأسئلة عن مكان وجود عائلته وما كانت تَفْعله أثناء الحرب العالمية الثانية. ويبدو أنّ الألماني نجح في الامتحان، لأنّه ـ والإسرائيلي ـ أصبحا، لا أقول صديقيْن تمامًا، ولكنْ زميلَيْن يتبادلان الحديث. أما الرجل العربي فلم يَقْصف الإسرائيليَّ بالأسئلة عمّا فعله هو أو عائلته في الأعوام ١٩٤٨ أو ١٩٥٦ أو ١٩٦٧ أو ١٩٧٣ أو ١٩٨٢ أو خلال تلك الأعوام، ولا عن مكانِ عيشه وفي بَيْتِ مَنْ. ذلك أنّه لم يكن على الإسرائيلي، بمقاييسِ ذلك الزمانِ والمكان، أن يَشْرحَ أيَّ شيء

حين أعودُ إلى لبنان قد لا يكون عليّ أن أتعرّضَ لقصفِ أسئلةٍ مُشابه. لكنْ ربّما عليّ **فعلاً** أن أتعرّض لذلك. فماذا تراني سأقول؟ هل أقول إنّني أميركية طيِّبة؟

نحن، معشرَ المعارضين للسياسة الأميركية في الخارج والداخل، نَفْعل ما نستطيع. نتبرّع بالمال، نوقِّع العرائض، نتظاهر، نَخْطب، نَكْتب ونُعْطي المقابلات. لكنّ ذلك، في الحقيقة، يبدو قليلاً جدّاً، على مستوى الجهد أو الأثر. إنّنا، كأميركيين، متواطئون جميعًا. فنحن نَدْفع الضرائبَ التي تَدْعم الحكومةَ الأميركية وسياساتها الضالّة ـ خارجيّاً وداخليّاً على حدّ سواء. ونحن نصوِّت، لكنّنا نكاد لا نَرْفع أصواتَنا حين تبدو النتيجةُ المعلنةُ لتصويتنا مشبوهةً بعضَ الشيء. أنكون «الجلّادين الراضين»[1] نمارس ظلمَنا على الفقراء وغيرِ البيضِ داخل الولايات المتحدة وخارجها؟

**آمهرست**

**د. ماري ك. ويلسون**

أستاذة التاريخ في جامعة ماساتشوستس، آمهرست. وهذه المادة كُتبت خصّيصًا لـ الآداب، وترجمها رئيسُ التحرير

١ ـ من عنوان كتاب دانيال غولدهاجن السِّجالي **جلاّدو هتلر الراضون: الألمان العاديون والمحارق النازية**

# قـــــتـل الـذائـقـــــــة!

إبراهيم صموئيل

أَعْلم أنّ سؤالَ أيِّ مثقفٍ عن موقفه من الحرب، أيِّ حرب، يميل بالسائل إلى الاعتقاد بتضمُّن الإجابة الرفضَ والاستنكارَ الصريحيْن. لكأنّ ممارسة الأدب والفكر والكتابة تقوم على نبذِ الحرب، أيِّ حربٍ، ومعاداتِها على الدوام، لِما تعنيه من قتلٍ ودمارٍ وتشريدٍ وآلامٍ لا تحصى.

ولكنْ ما العمل إذا كانت المعاركُ العسكريةُ الصغيرة أو الحروبُ الكبيرة هي السبيلَ إلى تحقيق (أو محاولةِ تحقيق) كلِّ المعاني الإنسانية الخيّرة التي طالما صبا أدبُ المثقّف وكتابتُه وفكرُه إليها؟! لنقلْ إنّه سيعاود الإلحاحَ على نبذِ الحروب وهدر الدماء، وسيجدِّد اقتراحَه بإقامة عالم من السلام والمحبّةِ والتآخي والحوار. لكنَّ العالم لن يأبهَ، ولم يأبهْ عبر التاريخ، بكلِّ نداءاته واقتراحاته وآماله. بل سيمضي العالمُ، وقد مضى فعلاً، من حروبٍ إلى حروب، ومن أطماعٍ إلى أطماع، ومن نهبٍ إلى ظلمٍ واستعباد، في حركةٍ تصاعديةٍ فاضحةٍ وفادحةٍ وغاشمة. إلى أنْ نَزَعَ القادرون، عسكرياً واقتصادياً وسياسيّاً، كلَّ أوراق التوت عن عورات ذرائعهم الواهية نفسِها، حتى قال كولن باول، أحدُ أبرز مهندسي السياسة الخارجية للولايات المتحدة بعد حربها على العراق بذريعة وجودِ أسلحةِ دمارٍ شامل: «سيَذْكرني التاريخُ بأنّني الرجلُ الذي دافع عن الأكاذيب!»

بجملة واحدة، وبإيضاحٍ بالغ: أنا مع المقاومة والكفاح المسلح لردِّ أو رفع أيِّ عدوانٍ أو ظلمٍ أو احتلالٍ أو سيطرةٍ أو ما شابَهَ من العوراتِ التي نُزعتْ عنها أوراقُ التوت. ومن دون ذلك فنحن ـ كتّابًا وغيرَ كتّاب ـ سنكون، في عصرنا الراهن، كمن يطالب الثعلبَ بالخوفِ من الأرنب، أو الذئبَ بالامتثالِ لحوارِ العقلِ مع الشاة.

وبتوضيح وتخصيص في ما نحن فيه: أنا مع رجال المقاومة في حزب الله، وأُقبِّل ـ على غرار سماحةِ السيد حسن نصر الله ـ رؤوسَهم وأيديَهم وأرجلَهم التي، بكفاحها وصمودها، قد جعلتني، ولأول مرةٍ في تاريخ حياتي، أجرِّب معنى أن أرفعَ رأسي، بعد أن اعتقدتُ، لطولِ ما طأطأتُه منذ ولادتي، أنّ العرب ـ في علم الشعوب والأجناس ـ يولدون مطأطئي الرؤوس ذلاًّ وضعفًا وجبنًا وهوانًا!

ما من حوارٍ ممكنٍ في عالم الغابة: سيأكل القويُّ الضعيفَ، إلا إذا قوّى الضعيفُ نفسَه ونمّى إمكاناتِه. وهل من كتابٍ سماويّ أَقَرَّ بأن تكون الولاياتُ المتحدة السيدةَ المطلقةَ اليدِ والأمرِ في مصائر الشعوب والبلدان؟! هل من وثيقةٍ أرضيةٍ، أو معاهدةٍ دوليةٍ، أو فقرةٍ في تشريعات الأمم، تقول: «وجعلنا لكم واشنطن الزعيمةَ الأوحدَ في عالمكم، تأتمرون بأوامرها، وتَخْضعون لها؟» هل من تاريخ فكرٍ فلسفي لهذه الدولة أو حكمةٍ عريقةٍ بحيث تُمنح منصبَ الحكمِ والحاكم؟ لِمَ لمْ تكن الهندُ مثلاً في هذا الموقع؟ اليونان؟ البرازيل؟ طبعًا سنَضْحك من هذه الاقتراحات ومن أخرى مثلها، مهما تضمّنتْ من أسماءِ دولٍ تَمْلك الحكماءَ والعقلاءَ والعراقةَ في التاريخ، لأنّ الجواب البدهي هو أنّ واشنطن هي القوةُ العظمى عسكريّاً اليوم. إذًا، عن أيِّ حوارِ عقلٍ نتحدث؟ عن أيِّ حوار حضارات؟! أمْ أنّنا الآن فقط، حين انتصرنا على إحدى أعتى القوى في العالم، نزلتْ علينا الحكمةُ، وهَبَطَ التعقُّل على رؤوسنا؟!

كنتُ أعتقد أنّ الكفاحَ والصمودَ والبطولةَ والاستشهادَ دفاعًا عن الحقّ والكرامة في تاريخنا العربي القديم ليست سوى تلفيقِ مؤرِّخين رأوْا أنّ من واجبهم ـ بعد أن خلا الحاضرُ إلاّ من الضعف والجبن ـ إسنادَ روح العربي وإيهامَها بأكاذيبَ عن ماضٍ مجيد. كنتُ أعتقد بذلك كَي لا نقع في اليقين بأنّا خُلِقنا كذلك؛ فما من عربي، مسؤولٍ أو غيرِ مسؤول، تقول له إنّ بإمكان العرب الانتصارَ على الكيان إلاّ واقترح على الفور نقْلَكَ إلى مستشفى المجانين!

أنا واحدٌ من عباد الله الملايين، على امتداد الأرض العربية، كدتُ أوقن أنّا خُلقنا كذلك. لولا الكفاحُ الإعجازيُّ لأبناء فلسطين، والصمودُ الخارقُ لأبناءِ لبنان، والمواجهةُ الأسطوريةُ لرجال المقاومة **الإسلامية** في حزب الله

غابرييلا بوليسوڤا

عبثٌ إسرائيلي متعمّد في منزل في بليدا

ثَبَّتُّ صفةَ «الإسلامية» ردّاً على ملاحقتي، منذ الثاني عشر من تموز وإلى اليوم، بالتساؤل الأميركي الصهيوني الذي عُمِّم علينا «أنتَ تَدْعم المقاومةَ الإسلاميةَ رغم أنّك مسيحي؟» وأوردتُ تلك الصفة عمدًا ـ إذ هي ثابتةٌ أساسًا ـ لأتساءل من دون مماحكة وأدلجةٍ ولغوِ تنظير: لو كان رجالُ المقاومة من الحزب الشيوعي اللبناني مثلاً، أما كنّا جميعًا سنُطارَدُ بجرعة السمّ الأميركية «أنتَ تؤيِّدهم رغم أنّهم شيوعيون، كفرة، لا دينَ لهم ولا هدف سوى مقاومة ديننا وإتْباع منطقتنا العربية بالصين وكوبا وفنزويلا؟» ولو كانت المقاومةُ الوطنيةُ في لبنان مسيحيةً، أما كانت ستصل إلى منطقتنا على وجه السرعة جرعةُ السمِّ الأميركية تَزْعم الخوفَ على دين المنطقة العربية الإسلامي الحنيف واحتمالِ إلحاقِ المنطقة بالمركز البابوي في الفاتيكان؟! أو لو كان المقاومون ناصريين، أو بعثيين، أو من الإخوان المسلمين، أو حتى من المستقلّين الذين لا لون لهم ولا حزب ولا انتماء، أما كانت الإدارةُ الأميركيةُ عَمّمتْ تساؤلَها المسموم «أنتَ تدعم المقاومة الإسلامية رغمَ مخاطر نزع الصفة والهوية والانتماء عن العربي؟!» وهكذا دواليك، ستَعْمَل واشنطن على مبدإ: «وجعلنا لكلِّ انتماءٍ عربيٍّ ناهضٍ مقاومٍ داءً يَنْخر فيه!»

من النافل التأكيدُ، ومعاودةُ التأكيد، على الأسى على تدميرِ لبنان وتهجيرِ الآلاف من أبنائه وهدمِ المساكن والبنى التحتية ـ ذلك الفعل الهمجي الصهيوني الذي يعادل كبرى الجرائم في التاريخ البشري بَيْد أنّه، حتى في هذا الشعور البدهي، أليس من المفجع ألاّ نسألَ **عَمَّن** دمَّر وهَجَّر وارتكب المجازر؟! إنَّ أسخفَ وأغبى ما يُمْكن أن نماحِكَ به (حتى لمجرد المماحكة والثرثرة الفارغة) هو أنّ نعتبر أَسْرَ الجنديَيْن الصهيونيَيْن علّةً وسببًا لكلِّ هذا التدميرِ والقتلِ والإبادةِ الهولاكية.

لقد أُترعَ الأدبُ العربي والفكرُ العربي، منذ نحو أربعين عامًا، بحسِّ الفجيعة وشعورِ الألم وأُتخمتْ أدبياتُ القوى والأحزاب السياسية بالآثار والدلائل المروِّعة المحبِطة لنا جرّاءَ هزيمة حزيران. وامتلأتْ دنيا العرب بظلالِ الهزيمةِ ودلالاتِها وذيولِها، إلى أن باتت تلك الهزيمةُ النكراءُ علامةً مميّزةً مدوّنةً على البطاقة الشخصية للفرد العربي. أهلكتْنا تساؤلاتُ الغربيين عن سرِّ التخاذل العربي إزاء الكيان الصهيوني إنْ كنّا فعلاً ـ كما ندَّعي ـ أصحابَ حقٍّ في فلسطين أو في الأراضي العربية المحتلة. وأطفأ تساؤلُهم كلَّ بصيصِ ضوءٍ

# قـــــتــل الــذائــقـــــــــة!

في عيوننا حين يَصْرخون «ولِمَ لا تنهضون؟!» أفحين يَحْدث، ولو لمرةٍ استثنائية، أن نَنْهض، نتزاحمُ ونتدافعُ بالمناكب وذرائع الحجج وسَقْطِ الكلام في ما إذا كنّا على حقٍّ أم لا، وفي ما إذا كان ما كان يمكن أن يكونَ على نحوٍ آخر، وفي ما إذا كان النصرُ يستحقّ خسائرَ الأرواح والممتلكات و... و... إلى آخر الحروب التي نشنّها ـ **نحن** هذه المرةَ ـ على انتصارنا لمرة واحدة؟!

مَنْ تراه، في دنيا الآدميين الأسوياء، إذا ما اعترضَتْه مع حبيبتِه عصابةٌ من رجالٍ أشدّاء يَبْغون اغتصابَها . مَنْ تراه يتأمّل في الموقف ثم يرجوهم التريُّث قليلاً، فيختلي مع نفسه ليَطْرحَ ويَجْمعَ ويَضْربَ، حتى إذا ما تبيّنتْ له استحالةُ الغلبةِ في مواجهتهم، قال لهم: «تفضّلوا، اغتصبوا، لأنّ ميزانَ القوى ليس لصالحي أبدًا»؟ إنّ غريزةَ الوجود الآدمي تأبى ذلك، إلاّ إذا كانت الهزائمُ والانكساراتُ والاندحاراتُ ـ عبر مئات السنين الماضية ـ قد انتَزعَت منّا غريزةَ الدفاع عن النفس، وأحلّت مكانَها العقلَ والمنطقَ والحسابات!

رغم ذلك، فمِنْ نِعَم اللّه، وفَضْلِ رجال المقاومة في لبنان الذين أَحارُ في توصيفهم لاستبسالهم وإبائهم وصمودهم، أنّا انتصرنا؛ أنّا تذوّقنا طعمًا غيرَ الهزيمة التي صارت ذائقةً عربيةً بامتياز؛ أنّا بِتْنا في مصادفةٍ تَجْمعنا مع المتقدّمين قوة عسكرية واقتصادية وسياسية في العالم بأسره، نستطيع أن نبُشَّ وتلتمعَ عيونُنا بهجةً بعد طول اختباءٍ في الجحور كالفئران.

ورغم علمي أنّ نصرًا عسكريًا واحدًا كالذي تحقّقَ في لبنان لن يمحوَ انكساراتِ تاريخ الهزائم من حيواتنا؛ ورغم علمي أنّ هذا النصرَ العظيمَ سيكون غريبًا نافرًا عمّا اعتدناه وأُكرِهْنا على تجرّعه لسنواتٍ وسنواتٍ حتى صار جزءًا من زمرة دمنا... رغم كلِّ ما شاكل من القول السابق، فإنّ غبطتي لا تُحَدُّ، وفَرَحي لا يُقدَّر، بأنّي شَهِدتُ بأمِّ عيني، وساعةً بساعةٍ، على الأرض لا في كتب التاريخ الصفراء، كيف أنّا انتصرْنا، وكيف أنّا بالإمكان أن ننتصرَ لا عسكريًا فحسب، وكيف أنّ من الصحيح الصَحيح قولَ أمل دنقل الشهير «ليس سوى أن تريد،» بعد أن كنتُ خلتُ ـ طوال خمسين عامًا من حياتي ـ أنّ ذلك لا يعدو أن يكون كلامًا إنشائيًا مدرسيًا، وجملاً فارغةً من المعنى في خطابٍ رنّانٍ سخيف، وآمالاً وأحلامًا لا تعدو أن تكون كالسُّكَّر الذي يُرَشُّ على الموتِ عزاءً ومواساةً.

**دمشق**

**إبراهيم صموئيل**

كاتب سوري

# الحــــرب على لبنــان وتنــاقـــضــات المرحلة

عثمان أشقرا

صمود المقاومة اللبنانية أمام العدوان الإسرائيلي معطًى باهر، ولكنّ الانتصار ملتبس. وهذا بالطبع لا يعني التقليلَ من حجم الصمود والمقاومة وقيمتهما. فهل نقول، إذن، إنّ إسرائيل لم تنتصرْ وحزبَ الله لم ينهزمْ؟ سيكون هذا نوعًا من حلّ العقدة عن طريق قطع رأسها. والواقع أنّ العرب لم يفعلوا شيئًا منذ أكثر من قرنَين سوى قطع رأس العقدة، بدلاً من حلّها الحلَّ التاريخيَّ الجذريَّ والمناسب. والعقدة هنا مزدوجة: إنّها عقدة الذات/الآخر. أمْ أنّ هذا نوعٌ من التفلسف النظري التجريدي الفارغ، في مقابل ملموسية واقع المقاومة والصمود وامتلائه؟

إنّنا (وأقصد «الأمة» العربية) اعتدْنا أن نَلْعنَ في المساء ما كنا نعبده في الصباح. وهذا منذ مرحلة «القومية» إلى مرحلة «الاشتراكية» وما بعدها. والآن ـ ونحن في عزّ المدّ الإسلاموي ـ مَنْ يجرؤ على القول بأنّ حزب الله هو في الأصل حزبٌ طائفيٌّ محدود، ذو مرجعية دينية خاصة؟ وأنّ الطائفية داءٌ وبيلٌ جَلَبَ، ولا يزال يجلب، أعظمَ الكوارث على الأمة؟ وأنّ تداخُلَ الدين والسياسة (فضلاً عن هيمنة الأول على الثاني واستتباعه بالمطلق، كما هي حالةُ المرجعية الشيعية بالنسبة إلى حزب الله اللبناني) شكّلَ، ولا يزال يشكّل، لبَّ العقدة العربية؟

وحتى لا يساءَ فهمُنا، فإنّنا نبادر إلى تقديم التوضيحات التالية:

١ ـ إنّ مقاومة العدوّ الإسرائيلي الغاصب والمتغطرس ـ ومنْ ورائه الولاياتُ المتحدة الأمريكية بقيادة الرئيس الأرعن جورج بوش الابن ـ واجبٌ أخلاقي وحقٌّ سياسي وعسكري مشروع. ومن ثم فإنّ تصدّي حزب الله لهذا العدوّ، وخَدْشَ الصورة التي بناها الإعلامُ المزيّف والموجّه «للجيش الذي لا يُقْهر»، واقعةٌ جديرةٌ بالاعتزاز «القومي» و«الإسلامي». لكنّ منطق الصراحة ـ صراحة المثقف الملتزم غورًا بحال الأمة ومآلها ـ يَفْرض الجهرَ ببعض التفاصيل التي قد تسير في عكس اتجاه ريح الحماس الغالبة اليوم.

٢ ـ وعليه، فما ينبغي الجهرُ به بدءًا يتمثّل في أنّه، باستثناء الاحتضان الجماهيري الشعبي الواسع والعريض (وهو احتضانٌ في أغلبه أصيلٌ وعفويٌّ)، لم تَنْخرطْ أيةُ قواتٍ سياسيةٍ أو عسكريةٍ أخرى (بما فيها اللبنانية) في المعركة التي خاضها حزبُ الله ضدّ العدوان الإسرائيلي * بل إنّ بعض الأطراف اللبنانية جاهَرَ بمعارضته للحرب القائمة. وهذا يعطينا فكرةً أوليةً عن حجم التقاطبات الطائفية في لبنان؛ كما يؤشّر على ضبابية المشروع الوطني اللبناني.

٣ ـ إنّ مَنْ وقفوا موقفَ السلب أو المعارضة داخل الصف العربي العريض ليسوا بالضرورة «خونةً» و«استسلاميين» بل أناسٌ تَكْمن خلفهم مصالحُ وقوى عديدةٌ، وبالتالي فهم قَدَّروا تقديراتٍ متباينةً. والصراحة تَفْرض القولَ بأنّ جزءًا من هذه التقديرات بانت هشاشتُه، بل وسَقَطَ سقوطًا مدوِّيًا بفضل صمود المقاومة وإدارتها الجيدة للصراع الناشب. وعليه، فالتحاجُجُ بأنّ في الأمر «مغامرةً» يبدو متجاوَزًا الآن؛ أو على الأقل يُمْكن فعلاً الحديثُ عن مغامرة ولكنّها مغامرة وُضعتْ لها حساباتٌ رجَّحَتْ كفّتَها. ومع ذلك، مَنْ يستطيع الإنكارَ أنّ هذا جاء على حساب ضرب لبنان في بنياته المادية وخطته الإنمائية، وأنّ مستقبل وحدة الدولة والمجتمع في لبنان يبدو غامضًا ومهزوزًا؟

٤ ـ ونصل إلى ما يمكن اعتبارُه عقدةَ العُقَد في الحرب التي خاضها حزبُ الله وخرج منها بمكاسب معنوية حاسمة: إنّها كاريزميةُ الزعيم حسن نصر الله، وإشعاعُ المثال السياسي والأخلاقي المتمثّل في حزب الله. والسؤال المصيري المطروح هنا في تقديري هو التالي: كيف سيتمّ تصريفُ هذه المكاسب وتوظيفُها في خدمة المشروع العربي القومي التنويري والحداثي، الذي يمثّل البديلَ الحقيقيَّ لتجاوز العطب العربي الذي طال واستطال حتى تحوّلَ أيُّ انتصار ـ مهما كان حجمُه ومضمونُه ـ إلى أسطورةٍ قابلةٍ للتصديق؟

المغرب

د. عثمان أشقرا
باحث وأكاديمي مغربي

* ـ تعليق الآداب: حرصًا على الحقيقة، نشير إلى وقوع عدد من الشهداء المقاتلين (يفوق العشرين) في صفوف الحزب الشيوعي، وحركة أمل، والحزب السوري القومي الاجتماعي، وأحزاب أخرى، في ميدان المواجهة مع العدوّ. وهو ما يشكّل ٢٠٪ من الشهداء المقاتلين. فاقتضى التنويه.

# الخيار الوحيد الباقي

هاني أبو أسعد

قبل أن نتأمّل ما قد يَحْدث في لبنان عقب وقف إطلاق النار، علينا أن نَنْظر إلى ما حَدَث فعلاً حتى هذه اللحظة الراهنة. فالولايات المتحدة وإسرائيل وحلفاؤهما قد شَنَّت، في ذروة قوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية، حربًا على المقاومة في لبنان بهدف تدميرها وجَعْلِ لبنان حليفًا لمخطّطات تلك الدول في المستقبل. ولقد تلقّت إسرائيل دعمًا شاملاً ـ تكنولوجيّاً، وديبلوماسيّاً، وإعلاميّاً، إلخ... ـ من قبل حلفائها، بمن في ذلك بعضُ الأنظمة العربية، وبعض الدعم الداخلي من لبنان نفسه واستخدم الإسرائيليون كلَّ الإمكانيات المتوفّرة لديهم. لكنّهم لم يَنْجحوا رغم ذلك.

أكان في استطاعتهم فعلُ المزيد؟ الجواب الواضح هو لا. فلو كان في استطاعتهم ذلك لفعلوه. لقد كان واضحًا أنّ الخيار الأوحد الباقي أمام إسرائيل هو استئنافُ قتل المدنيين اللبنانيين وإلحاقُ المزيد من الدمار بالبنى التحتية اللبنانية لكنّ المقاومة أَثْبتتْ قدرتَها المذهلة على مواجهة الخيار الإسرائيلي؛ بل لو قُصِفتْ أماكنُ محدّدةٌ في بيروت لقَصَفت المقاومةُ تل أبيب على الأرجح ولهذا أَوْقف الإسرائيليون اعتداءاتهم، إذ تبيّن أنّ هجومَهم البرّي فَشِلَ فشلاً ذريعًا، وتواصَلَ سقوطُ صواريخ المقاومة على إسرائيل

لقد كان النموذجُ الذي أرستْه المقاومةُ بسيطًا إنِ استخدمتم تقنيتَكم وسلاحَ جوّكم لاستهداف لبنان، فسنردّ براجمات صواريخ متحرّكةٍ وغيرِ مرئية، ملحقين بكم أذًى فادحًا. أما على مستوى الهجوم البري، فسنواجه كل ما ترمونه على لبنان بمعرفةٍ دقيقةٍ بطبيعة الأرض، وبمقاتلين متمرّسين غير هيّابين، وبأنفاقٍ سريةٍ وشبكةِ اتصالاتٍ لا يستطيع العدو ضبطَها ولا الوصولَ إليها. والأهمّ أنّ الشعب اللبناني أَثْبتَ استعدادَه للوقوف ضدّ العدوان ولتقديم التضحيات المطلوبة لقد نجح نموذجُ المقاومة، إذن، في حين فشل النموذجُ الإسرائيليُّ القائمُ على التفوق العسكري

إنّنا، بالطبع، متألّمون لضحايا الاعتداءات الإسرائيلية ولعائلاتهم. غير أنّ إعادةَ بناء لبنان أثر هذا الدمار لن تكون مهمةً مستحيلةً. فالاقتصاد اللبناني قبل المعركة الأخيرة كما نَعْلم لم يكن مساويًا، مثلاً، لاقتصاد انكلترا الذي كان سيتطلّب عقدًا لإعادة بنائه. ثم إنّ الجهودَ المبذولةَ لإعادة إعمار لبنان يُمْكن الآن أن توجَّه لبناءِ اقتصادٍ أقوى وأكثر عافيةً ـ اقتصادٍ واثقٍ بوسائل دفاعِه الوطنية.

إنّني لا أعتقد أنّ إسرائيل ستهاجم لبنانَ في المستقبل، بالرغم ممّا يُقال اليوم عكسَ ذلك ـ ومعظمُه حربٌ نفسيةٌ تَهْدف إلى إشعار اللبنانيين باللاأمان واللاثقة بالنفس. ومردُّ اعتقادي يعود إلى سببٍ بسيط، وهو أنّ الهجوم الإسرائيلي الأخير تضمّن كُلَّ شروط النجاح اللازمة كما ذَكَرْنا ـ من دعمٍ أميركيٍّ، ودعمٍ شاملٍ من قِبل المجتمع الإسرائيلي، وتواطؤٍ من بعض الأنظمة العربية، وتفوقٍ إسرائيلي ساحق بالمعدّات العسكرية، وأصواتٍ من داخل لبنان تعادي المقاومة ـ ولكنّه فَشِلَ رغم ذلك. وعليه، فإنّ أيَّ عاقلٍ لن يحاول أن يُعيد الكرّةَ، وتصعيدُ الموقف يعني توسيعَ القتالِ واحتمالَ استخدام أسلحة الدمار الشامل ـ وهذا ليس خيارًا متاحًا لأنّه سيهدّد المصالحَ النفطية العالمية ويَجْعل بالمقابل دمارَ إسرائيل الكامل احتمالاً أكثرَ رجحانًا

لهذا السبب يمكننا الثقةُ بأنّ لبنان سيكون قادرًا على بناءِ اقتصادٍ يُشْعِر المستثمرين بالأمان. ويزيد من هذا الاحتمال أنّ تمويلَ إعادة بناء لبنان لن يَقْتصرَ على المقاومة وحدها، إذ سيتهافت فرقاء عديدون لنيل ذلك الفضل، ولاسيّما مَنْ يريد الحفاظَ على تأثيره وحفظِ ماء وجهه في لبنان بعد أن تخلّى عن دعم المقاومة في اللحظة الأولى.

السؤال المهمّ هو: كيف نقوم ببناء لبنان أقوى وأكثر عافيةً؟ الحقّ أنّنا مازلنا في هذه اللحظة عند مفترق طرق. فإحدى طرق التفكير تؤكّد أنّ العربَ غيرُ قادرين على قتال الغرب بسبب كلفة هذه القتال الباهظة ـ «واليد التي لا تستطيع كَسْرَها، قبّلْها وادعُ عليها بالكَسْر (كما يقول المثل). ولذا على العرب أن يَسْتخدموا «الدعمَ الغربي» لإعادة بناء الشرق الأوسط والمثالان الواضحان على طريقة التفكير هذه هما مصر والأردن

غابرييلا بوليسوڤا — الضاحية أولمرت رمز الموت

أما طريقُ التفكير الثانية فتشجِّع المقاومةَ حتى يَنْفضَ العالمُ العربيُّ عن نفسه الأنظمةَ الفاسدةَ الحاكمة، ويحقِّقَ الاستقلالَ الحقيقي، الذي تَتْبعه إعادةُ بناءٍ مستندةٌ إلى تجاربنا الخاصة ومصالحنا الذاتية

المفكّرون المنطقيون سيتّخذون، في رأيي، الخيارَ الثاني، وذلك لأسبابٍ عدة السبب الأول هو أنّ العراق يقدِّم مثالاً ساطعًا على ما يَحْدث حين تُلقى كُلُّ مسؤوليات إعادة البناء على كاهل القوى الغربية ولكنْ حتى لو تناولْنا حالةً أقلَّ تطرُّفًا، فهل يريد أيُّ بلدٍ حقّاً أن يقلِّد مصرَ أو الأردن؟ فالحال أنّ العلاقة بين هذيْن البلديْن من جهة و«الرمز الأبويّ» (إسرائيل والولايات المتحدة) من جهة ثانية تذكِّر بالعلاقة التي تَرْبط الولاياتِ المتحدة بدول أميركا اللاتينية أكثرَ ممّا تذكِّر بالعلاقات التي تَرْبط دولَ أوروبا بعضَها بعضًا ذلك أنّ قطاعًا صغيرًا محدَّدًا من ذَيْنك المجتمعيْن (مصر والأردن) قد غدا وكيلاً للرمز الأبوي، وقد يزداد ذلك القطاعُ غنًى غير أنّه سيَخْلق ـ على المستوى الأعظم ـ سوقَ عمّالٍ رخيصةً لصالح اقتصاد ذلك الرمز الأبوي فمصر مثلاً، بعد ٢٥ عامًا من اتّباع تلك السياسة، ما زالت تَمْلك أعلى نسبةٍ من الأميّة في الشرق الأوسط إذن، لماذا يَجْدر بأيٍّ كان، والحالُ هذه، أن يقتدي بالنموذج المصري؟ هل غدتْ مصرُ ذاتَ اقتصاد عالميٍّ رائدٍ في ربع القرن الأخير؟ من الواضح أنّ اتّباع الدولِ طريقَ التفكير هذه يؤدِّي إلى أن تصبح معتمدةً على الفتاتِ الذي يلقيه إليها أسيادُها في الخارج ولم يَحْدث في التاريخ أن احترم السيِّدُ خادمه؛ فَمَنْ شبَّ على شيءٍ شاب عليه!

سببٌ هامٌّ أخيرٌ لاختيار خيارِ المقاومة، وهو أنّ النظام الاقتصادي/الاجتماعي ـ السياسي الغربي الذي يَرْتكز عليه خيارُ الاندماج العولمي مليءٌ هو نفسُه بالعيوب ويعاني أزمةً داخليةً حادّة. فكلما ازداد الاقتصادُ الأميركي غنًى مثلاً، ازدادت المظالمُ الاجتماعيةُ: فهناك ثلاثةُ ملايين بلا مأوى، وثلاثون مليونًا يعيشون تحت خطّ الفقر، والأرقامُ تَكْبر كلّما ازداد الأغنياءُ غنًى. أضِفْ إلى ذلك أنّ المجتمعات الرأسمالية الغربية لم تعطِ جوابًا حقيقيّاً للأسئلة البيئية الفادحة الخطورة، وهي أسيرةُ دوّامةٍ من الاستهلاك العبثي، ولا تقدِّم بدائلَ جديّةً لنموذج الشركات الطاغية الحاليّ الذي أَشْبَهُ ما يكون بالأخطبوط الذي يحتوي كلَّ الاختلافات ويُعطي القيمةَ الأولى لمفهوم أوحدَ قائمٍ على المصلحة والربح المادي وإنّي أُعفي القارئَ من وصفٍ مفصّلٍ للآثار السلبية التي يُلْحقها هذا

# الخيار الوحيد الباقي

النموذجُ بنسيج المجتمع نفسه، حيث يغدو كلُّ شيء سلعةً ـ بما في ذلك الحبُّ والصداقةُ.

المثيرُ للقلق هو أنّ الحريات الديموقراطية في الولايات المتحدة تتراجع في حين يزداد تأثيرُ لوبي الشركات ومجموعاتِ المصالح الخاصة. والفسادُ مستشرٍ (حتى وفقًا للإحصاءات الرسمية)، وصارت حريةُ الصحافة مزحةً ثقيلةً ـ بل إنّني أجرؤ على مقارنة وسائل الإعلام الأميركية اليوم من حيث جرعتها الدعائية بوكالات الأنباء الرسمية العربية في الخمسينيات والستينيات... سوى أنّ وسائل الإعلام الأميركية تديرها الشركاتُ؛ وأعني الشركات التي لها مصلحةٌ أكيدةٌ في سياسات التوسع الأميركي، والشركاتِ التي تستفيد من إطعام الشعب وجبةً دائمةً من الأكاذيب ونكرانِ الحقائق وعقدةِ التفوُّق.

إذن، لماذا ينبغي أن نتّبعَ نموذجًا هو، في أحسن السيناريوهات، محفوفًا بالأزمات الخطيرة؟ فلو تحوّلَ العالم إلى مجتمعٍ استهلاكيٍّ كالمجتمعات الغربية فسنَخْتنقَ بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى، وستَغْبق رائحتُنا بنتن التلوُّث، ولن يبقى لدينا مصادرُ طبيعيةٌ نستهلكها. وإلى هذا اليوم ليس ثمة إجاباتٌ على هذه المشاكل الخطيرة ـ بل إنّنا نكتفي بأن «نَدْعو لأندلسٍ إنْ حُوصِرتْ حَلَبُ» (كما يقول محمود درويش)

أعتقد أنّ بمقدورنا أن نتعلّم من النظام المهيمن حاليّاً على العالم، غير أنّ علينا أن نفعّلَ خيارًا جديّاً آخر من أجل أن نزيد العدالةَ الاجتماعية والأمنَ والحريةَ الشاملة. لقد جرّبنا، نحن البشرَ، أنظمةً مختلفةً على امتداد عقود، غير أنّنا فشلنا دومًا في أن نفعّل مثلَ ذلك الخيار. صحيح أنّنا قد لا نَبْلغ المجتمعَ الفاضلَ في السنوات القادمة، غير أنّ حاجتنا إلى تجريب شيءٍ جديدٍ ومفعَمٍ بالآمال ما زالت ملحّةً، بل يجب أن تكون ملحّةً. وإذا كانت هذه هي الحال، فمن المستحيل أن نجرّب خيارًا جديدًا ما دمنا تحت هيمنة نظامٍ أجنبيٍّ عاجز: نظامٍ يستغلّ مواردَ منطقتنا، ويُنْكر أزماتِه الداخلية، بل ويستخدم الشرقَ الأوسطَ من أجل حَرْفِ الانتباه عن تلك الأزمات.

إزاءَ هذه الوقائع لم يبقَ أمام الالم العربي إلاّ خيارُ مواصلة القتال من أجل استقلالٍ حقيقي ـ وهو ما يَفْرض بَذْلَ التضحيات؛ ذلك أنّه لا يُمْكننا الاستحمامُ إنْ كنّا نخشَى الماء. وقد يكون لبنانُ نموذجَنا الأعظمَ صحيحٌ أنّه قد يكون علينا خوضُ صراعاتٍ داخليةٍ كثيرةٍ، غير أنّني آمل أن تبقى المقاومةُ ناضجةً ومركّزة على هدفها الرئيسي فيما هي تتعامل مع تلك الصراعات، بدلاً من أن تنزلقَ إلى أفخاخ سياسيةٍ صغيرةٍ تَنْصبها المعارضةُ في طريقها. إنّ «التركيز» هنا يعني تطويرَ نظام اجتماعي ـ اقتصادي نابعٍ من تجارب المجتمع الخاصة، ويلبّي حاجاته، ويشدّد على صوْنِ العدالة لدى أضعف عناصره أيّاً كانت طائفتُهم ـ كلُّ ذلك مع الأخذ في الاعتبار مصالحَ الآخرين والحاجاتِ المختلفةَ للفئات الأخرى. كما أنّ دعمَ حوارٍ ديموقراطي بين الناس، ودعمَ النماذج الباقية غيرِ الفاسدة، أمران حاسمان لتحقيق الأهداف المذكورة أعلاه؛ والشيء نفسه ينطبق على ضرورة العمل من أجل إدراج الآراء السياسية المختلفة ضمن بوتقة النضال. والأهمّ أنّ «التركيز» يعني إيجادَ نموذجٍ فعّالٍ راهنٍ لحماية الأرض للجميع.

غنيّ عن القول إنّ تطويرَ مثل هذا النظام البديل يتطلّب معادلةً مركّبة تأخذ في الحسبان العواملَ الحيوية الكثيرة الراهنة. إنّ التحدّي هائل، غير أنّ علينا أن نجرّب. والحقّ أنّ أمام المقاومة في لبنان فرصةً ذهبيةً اليوم، وينبغي ألاّ تضيّعها. فلقد ربحت الحربَ ضدّ العدوّ الخارجي؛ ومع أنّ الحرب من أجل تطوير الداخل تبدو أسهلَ كثيرًا بالمقارنة، فإنّ التحدّي ما زال ماثلاً.

**فلسطين**

**هاني أبو أسعد**

سينمائي فلسطيني

# لبنان: من الحجر إلى الزهرة

أحمد الخميسي

يقول الكاتب الأرجنتيني خورخي بورخيس: «إنّ الأعمالَ الجديرةَ بالذِّكْر لا تحتاج إلى عباراتٍ جديرةٍ بالذِّكْر.»

ربما لا تكون المقاومةُ اللبنانية بحاجة إلى بلاغةٍ للدفاع عنها، لكنّها بحاجة إلى امتدادها الروحي ـ في القصائد، والصور السينمائية، والأغاني ـ وبحاجة إلى أفق معنوي تَضْرب فيه بجناحيْها على مرأًى من شعبها. إنّ الطير الذي دافع عن عشّه بحاجة الآن إلى الهديل.

لقد وَضعت المقاومةُ اللبنانيةُ المنطقةَ بأسرها على أعتاب مرحلةٍ جديدةٍ من التحرُّر الوطني، بمضمونٍ اجتماعي جديد، وأدواتٍ وقدراتٍ تنظيمية وعسكرية جديدة، تقود خلالَها الفئاتُ الشعبيةُ الصراعَ ضدّ المشروع الأميركي. هذه هي الحقيقة الرئيسية التي أَسفرتْ عنها الحربُ. وهذا هو البابُ الضخمُ الذي أحاطته الأساطيرُ والتعاويذُ طويلاً، ففتحه الشعبُ اللبناني، وغَرَسَ حربتَه في جنب الوحش، وواصل التقدُّم. لقد أَدرك الناسُ ذلك، أينما كانوا، وهم يتتبّعون أنباءَ القتال ـ بتوجُّسٍ في البداية، ثم باطمئنان، وأخيرًا بفرح غامر، لأنّ النفس تحرررتْ من وطأةِ مهانةٍ تراكمتْ نصفَ قرنٍ كنّا نَشْهد خلاله يوميّاً قتلَ أطفالنا ونسائنا، ونَعْجز عن الردِّ، أيِّ ردّ.

وكنتُ مع الآخرين أتتبّع الأنباءَ الظاهرةَ من الحرب. عددَ صواريخ المقاومة، المواقعَ التي تصيبها، حجمَ عمليات العدو، أعدادَ القتلى والشهداء .. لكنّني كنتُ أريد أن أرى الحربَ من **الداخل**، فأخذتُ أتتبّع التقاريرَ الإخباريةَ الجانبية التي يتحدث فيها اللبنانيون البسطاءُ من الشوارع، وقربَ بيوتهم المحطّمة، وأقرأ الانفعالَ على وجوههم وإشاراتِ أياديهم. . ودموعِهم أحيانًا. لقد كانت الانفعالاتُ وحدّةُ المشاعر الغاضبة لا تقلّ أهميةً، بالنسبة إليّ، عن عدد الصواريخ ونوع الضربات العسكرية فتلك كانت نشرةَ أنباءٍ أخرى عن احتشاد الروح اللبنانية في هذا الاتجاه أو ذاك، بهذا القَدْر أو غيره. يقول الكاتبُ الروسي العظيم أندريه بلاتونوف: «الشعب من غيري ناقص» ـ أيْ أنّ لكلِّ فردٍ أهميتَه المطلقةَ التي يختلّ من دونها بناءٌ كامل. هكذا كان كلُّ انفعال فرديّ على وجه امرأة أو عجوز، وكلُّ اختلاجةِ مَلْمح، وكلُّ صيحةِ دعمٍ للمقاومة، أمرًا لا يستقيم من دونه الانتصارُ، وإلاّ أصبح مجردَ نصرٍ عسكري. لقد كان اللبنانيون الذين يقفون وقتلاهم على أذرعهم هاتفين «فدى المقاومة،» يصيبونني بالذهول وهم يُريقون سحرَ البطولة ووهجَها على تراب الوطن فيَلْمع بلون الذهب. وهكذا كنتُ أستمدّ ثقتي بالنصر من الإدارة العسكرية اللبنانية للحرب؛ ولكنّني كنتُ أستمدّها بالقدْر نفسه من وجوهٍ وعيونٍ لبنانيةٍ عابرة، لن تَدْخل كتبَ التاريخ، ولن يَذْكر أحدٌ أسماءها.

أَذْكر هنا سيدةً وقفتْ ضخمةً كشجرة أمام عدسة التلفزيون. سألها المراسلُ عن شعورها وهي ترى بيتَها مهدَّمًا أمامها على مرمى البصر. سألتِ السيدةُ المراسلَ: «ماذا ترى أنتَ أمامك؟» أجابها بهزّة رأس اعتيادية دون أن يَفْهم ما تَقْصده «أحجارًا.» فهتفتْ به غاضبةً، وقالت: «هذه ليست أحجارًا. إنّها زهور ورود ستصبح غدًا حديقةً كبيرةً. الحجر يرمِّم، لكنْ إذا تحطَّمتْ كرامتُنا أصبحنا لا شيء.»

كنتُ أتابع مظاهرَ الشعور بالكرامة باعتبارها الذخيرةَ التي يقاتل بها الناسُ، جنبًا إلى جنب مع صواريخ المقاومة ومَدافعها. وبدون ذلك الشعور لا يمكن لأحدٍ، أو جماعةٍ، أو شعبٍ، أن يحقِّق انتصارًا ذاتيّاً، أو موضوعيّاً، أو تاريخيّاً. أما حين يصبح ذلك الشعورُ ظاهرةً نفسيةً عامة، فلا بدّ أن يزحزح التاريخَ إلى الأمام.

الكثيرون يَنْظرون إلى المعارك والحروب على أساس أنّها صراعُ موازين القوى المادية وحدها، ومن المنظور ذاته يقدِّرون الربحَ والخسارة. والذين يكرِّسون هذه الرؤيةَ لقراءةِ ما جرى يريدون أن يقولوا لنا إنّ لبنان خسر، لأنّ عددَ البيوت التي دُمِّرتْ بلغَ كذا بيتًا، وعددَ الجسور التي حُطِّمت بلغ كذا جسرًا، وعددَ النازحين من الجنوب وصل إلى مليون نازح. وباختصار، فإنّهم لا يرونْ في الحجر سوى حجر. فكيف، إذن، رأى اللبنانيون الحجرَ وردةً ـ وهم الذين نَزَحوا، وفَقَدوا الأحبّةَ، والمسكنَ، والعملَ، ورؤوسَ الأموال؟

يثير كلُّ حدثٍ تاريخي دوّاماتٍ من ردود الأفعال التي تتباين باختلاف الطبقات والمصالح المتعددة ومفكِّريها ومع الخطوة

# لبنان: من الحجر إلى الزهرة

التاريخية التي قامت بها المقاومةُ اللبنانية، أدركت الأنظمةُ العربيةُ التابعة أنّ حركةَ مقاومةٍ قادرةً على تحرير بلادها ستكون قادرةً أيضًا على الإطاحة بتلك النظم وبمجمل العلاقات الاجتماعية القديمة وما تقوم عليه من استغلال وفسادٍ وهوان. ولهذا حاول المحورُ السعودي ـ المصري ـ الأردني منذ البداية تطويقَ المقاومة، واتهامَها بأنّها مغامرةٌ غيرُ محسوبة. فلما رَسَّخَتْ أقدامَها وَحقَّقتْ نصرَها، أخذ أقطابُ ذلك المحور يشكّكون في قيمة ذلك الانتصار، ويسعَوْن إلى سرقة مغزاه من الوعي العامّ، لأنّ أكثر ما يفوق الانتصارَ خطورةً هو أن يعي الناسُ أنّ **بوسعهم** الانتصارَ. هكذا تحدّث أولئك الأقطابُ عن أنّ حزبَ الله انتهك السيادةَ اللبنانيةَ بتجاوزه خطَّ الهدنة دون إذن. ولكنّ ما هي السيادة اللبنانية التي انتهكتْها المقاومةُ؟ ألم ينتهكها الاحتلالُ الإسرائيلي من قبل؟ من أين يبدأ الانتهاك إذن؟ من الاحتلال أمْ من التصدي له؟

ثم راح أقطابُ المحور المذكور بعد توقُّفِ العملياتِ الحربية يزعمون أنّ المقاومة لم تجلبْ سوى الدمار على لبنان لكنْ ألم يكن لبنان معرَّضًا دائمًا للدمار في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي لشبعا، وفلسطين، والجولان، وتجريدِ سيناء من السيادة المصرية عليها؟ ما الذي كان يحمي لبنانَ والعربَ من تفجُّر الدمار سوى القبول بالمهانة؟ لقد التزم العربُ الصمتَ ثلاثين عامًا مع بدء التسوية السياسية، فلم يَحْصدوا سوى المزيد من التهديد و العدوان ألم يهدِّد آرييل شارون خلال الانتفاضة الفلسطينية بقصف السدّ العالي؟ ألا يُقتل جنودُنا المصريون في «رفح» بنيرانٍ صديقةٍ، فلا يجرؤ أحدٌ على فتح فمه بحرف؟ ألا يُقصف الفلسطينيون بوحشيةٍ كلَّ يوم؟ ألا تحلِّق الطائراتُ الإسرائيلية في المجال الجوي السوري؟ ألم يكن كلُّ هذا سابقًا على المقاومة؟

بعد كل وقف لإطلاق النار يبدأ إطلاقُ الأفكار للتهوين من انتصار طرف، أو لتصوير هزيمةِ الطرف الآخر باعتبارها فوزًا أو تعادلاً. فعندما انحسرتْ ثورةُ البطل أحمد عُرابي، بدأ إطلاقُ الأفكار المكثّف، وتمّ تصويرُ الثورة العظيمة التي أنارت الشرقَ كلَّه باعتبارها مجردَ «هوجةٍ» جَلَبتْ على مصر الاحتلالَ. ولزمنٍ طويلٍ خَسِرَ الوعيُ ما كسبته الثورة. هكذا أيضًا فعلوا وهم يفتّشون في أوراق ثورة يوليو ١٩٥٢، فقالوا إنّ «مغامرات» عبد الناصر أصْلُ الكوارث. وهكذا تحدّثوا عند بزوغ المقاومة الفلسطينية عام ١٩٦٥، ومع الأيام الأولى لظهور المقاومة العراقية للاحتلال الأميركي. وهكذا يتكلمون الآن مع انتصار لبنان، وهكذا تَذْرف أسرابُ الغربانِ الدموعَ على خسائر لبنان ـ ليس تعاطفًا، ولكنْ لتشويه مغزى الكفاح الشعبي الذي شارك فيه الأطفالُ والنساءُ والمقاتلون والكتّابُ والمثقفون اللبنانيون. لكنّ هذا النعيق لم يَدْفع شعبًا إلى التخلّي عن القتال دفاعًا عن كرامته.

عام ١٩٦٤ احتلّت أميركا ڤيتنام، ونشرتْ فيها نصفَ مليون جندي طوال عشر سنوات، لكنّها بعد أعوام جرجرتْ خلفَها حوالى ستين ألف عسكري أميركي قتيل. وبعدها تَوجَّه أحدُ الصحافيين بسؤال إلى هوشي مِنْه: «ألم يكن السلامُ أوفرَ لبلادكم؟» فأجابه القائدُ الڤيتنامي: «بالطبع. لكنّ الحرية أغلى » إنّ هذا هو ما قالتْه أيضًا النساءُ اللبنانيات الواقفاتُ قرب بيوتهنّ المهدّمة. و«الحرية الأغلى» ليست عبارةً رومانسية. فقد أدرك الشعبُ اللبناني أنّ الحرية التي سعت إليها المقاومةُ اللبنانيةُ ليست مجرَّدَ شعورٍ عزيزٍ بالزهو والكرامة، بل هي أيضًا حسابٌ ماديٌّ (وبالأرقام) للقدرة على حياة أفضل. ففي ظلّ الحرية وحدها يمكن أن تتحرَّر الشعوبُ الفقيرة من شروط صندوق النقد الدولي الذي يَفْرض عليها الخصخصةَ والمجاعةَ، ومن شروط الاستعمار الذي يَحْرمها الانتفاعَ بالطاقة النووية ويُجْبرها على فتح بلادها سوقًا لسلع الغرب. وفي ظلّ التحرر وحده تتّسع فرصُ التعليم، والسكن، والتصنيع، واستصلاح الأراضي، والتطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. الحرية أغلى، لأنّها تفسح مجالاً أوسعَ لحياة كريمة. وليس ثمة حريةٌ، أو حياةٌ كريمة، ملقاة على قارعة الطريق بالمجّان. أما الذين يتحدّثون عن «معايير النصر والهزيمة،» ويشكّكون في الإنجاز التاريخي للمقاومة اللبنانية، فإنّهم يدّعون أنّ المقاومة لم تحقّق انتصارًا حاسمًا. نعم. ولكنْ هل حقّقتْ «كومونةُ باريس» انتصارًا حاسمًا؟ ألم تكن تجربةً تمهيديةً لعرضٍ تاريخيٍّ آخر، أقوى، وأعظم؟ وهل حققتْ ثورةُ ١٩٠٥ في روسيا نصرًا حاسمًا؟ ألم تكن مقدِّمةً لثورة ١٩١٧؟ وهل كانت ثورة أحمد عرابي سوى جسرٍ عَبَرَ

عابرييلا بوليسوڤا

بقايا التزام وإيمان في الضاحية الجنوبية

عليه مصطفى كامل وعَبَرَتْ فوقه ثورةُ ١٩١٩؟ إنّ مراحل الانتصارات الانتقالية لا تَحْصد نصرًا واضحًا، حاسمًا لكنّها تُراكِمُ النصر، وتضع المقدّمات الموضوعيةَ لظهوره بشكل حاسم والآن، فإنّ حزب الله سوف يصبح مَقْصدًا لآلاف يتدفّقون نحوه وحين تقرّر إسرائيلُ أن تَضْرب ضربةً ثانية، فسيكون وضعُها أسوأ بكثير؛ فقد ألهمت المقاومةُ اللبنانيةُ الناسَ في كلّ المنطقة أن يديروا ظهورَهم للاستسلام نهائيّاً، وفَتحتْ لهم الطريقَ، ووضعت الوسائلَ بين أياديهم ليَمْضوا بها إلى الأمام

يريدون للشعب اللبناني الآن أن يَحْسبَ نتائجَ القتال والحرب وفقًا لعدد البيوت المنكوبة، والجسور التي دُمِّرت، والمحالِّ التي أُغلقتْ. لكنّ اللبنانيين لديهم حسابٌ **آخَر** يخصّ الروحَ، والكرامةَ، ويروْنَ الحجرَ ـ على ضوئه ـ وردةً. وحسابُ القوى المعنوية بدأ منذ زمنٍ بعيدٍ، عبر رحلة تاريخية، أصبح خلالها كلُّ ما هو معنويٌّ قوةً ماديةً أخطرَ شأنًا من القوى المادية الظاهرة. في هذه الرحلة أصبح الإنسانُ هو الكائنَ الوحيدَ الذي يَقْبل عن وعي بأن يبيدَ ما هو ماديٌّ ـ بدنَه ـ من أجلِ ما هو معنويّ، أيْ كرامته. حالاتُ الصمود حتى الموت داخل المعتقلات والسجون في كلّ بلدان العالم كثيرةٌ، وكلُّها تفيد معنًى واحدًا أنّ الروح تنتصر على البدن، وأنّ كلّ ما هو معنوي يَقْبل بالخسائر المادية ليُنقذَ مغزى حياته. والذين ينتحرون من أجل حبٍّ لم يتحقّق يبيدون وجودَهم المادي، من أجل وجود معنوي. والذين يَفْتدون أوطانَهم أيضًا يفعلون ذلك. وفقط عَبْر تلك الخسارة المادية، تصبح الروحُ قوةً أخرى ملموسةً ذاتَ أثرٍ ضخم ولذلك تصبح الأحجارُ وردًا عند نساء لبنان، أو تظلّ أحجارًا عند البعض.

إنّ قصة تطور التاريخ الإنساني كلِّه هي قصةُ التقدم من الحيوانية إلى الإنسانية، ومن الجنس إلى الحب، ومن حشو المعدة إلى الشعور بالكرامة، ومن الحجر إلى الزهرة. هذا ما قدَّمْته المقاومةُ اللبنانية بشهدائها وأبنائها ونسائها وكتّابها ومثقفيها

تحيةً لدماءِ شهداء اختفَوْا لنبقى. وتحيةً لنساءٍ وقفن ببطولة وراء المقاومة وأمامها. وتحيةً لشعبٍ بطل. وتحيةً لأطفالٍ قانا الذين أغمضوا عيونَهم على أحلامٍ توقّفتْ صورُها عند القصف، وهم يمدُّون أذرعَهم وسيقانَهم إلى أبدان أمّهاتهم يلتمسون الدفءَ عندها. هؤلاء سيواصلون أحلامَهم بعيونِ أطفالٍ آخرين أسعدَ حظّاً. أما نحن فإنّنا لن ننسى أحدًا، ولن نَغْفر شيئًا.

**القاهرة**

**د. أحمد الخميسي**

كاتب مصري، ومراسل الآداب في القاهرة

# التقاءُ المصالح: الدفعُ الإسرائيلي باتجاه التطبيع

إسطفان شيحا

غالبًا ما شعرتُ، بوصفي أستاذًا سابقًا في الجامعة الأميركية في بيروت، بأنّ سياساتي التقدُّمية كانت تميِّزني من زملائي الذين كنتُ لأنسجمَ معهم لولاها بل إنّ عددًا من زملائي، مثلاً، بدوْا مهتمِّين بمشاركتي في اعتصامٍ داعمٍ لفلسطين كان مخطَّطًا له أن يُعقَدَ في ١٢ تموز (يوليو). وكانَ الاعتصامُ في ساحة البرج قد تمّ تنظيمُه على يد ائتلافِ مجموعاتٍ ناشطةٍ تقدُّميةٍ، لبنانيةٍ وفلسطينيةٍ، احتجاجًا على توغُّلاتِ إسرائيل واعتداءاتها على غزّة، واحتفاءً بمقاومة الشعب الفلسطيني وصمودِه؛ وكان يُنْتظر أن يُشاركَ في ذلك الاعتصام فنّانون وموسيقيون وشعراء ولمّا كنتُ قد قبلتُ أن أتولّى منصبًا جامعيّاً جديدًا في الولايات المتحدة، ووافقتُ على السفر إلى هناك في آب (أغسطس)، فإنّ مشاركتي تلك كانت على الأرجح آخرَ عملٍ لي على الأرض في لبنان قبل مضيّ زمنٍ طويل. غير أنّ الهجوم الإسرائيلي على لبنان أَثْبتَ خطإي.

فبحلولِ يوم السبت ألغى الجيشُ اللبناني الاعتصامَ المقرَّر لأنّه كان على بعد ١٠٠ متر فقط من «الرينغ» (جادّة فؤاد شهاب)، وهو الجسرُ والشريانُ الرئيسي الذي يَرْبط شطريْ بيروت الغربيةِ والشرقية، خوفًا من أن يتعرّضَ للقصفِ الإسرائيلي بيْد أنّ الائتلافَ المذكور، الذي انضمّت إليه حفنةٌ من المنظّمات اللبنانية والأجنبية غيرِ الحكومية، استطاع خلال تلك الأيام الثلاثة أن يُعيدَ تشكيلَ نفسِه بسرعةٍ على صورةِ هيئةِ إغاثةٍ للنازحين كانت من أوائلِ هيئاتِ الإغاثة على الأرض آنذاك.

تدفَّقَ النازحون إلى العاصمة بيروت، ونام كثيرون منهم في حديقة الصنائع. عندها راح الائتلافُ، الذي بات اسمُه «صامدون،» ينسِّق انطلاقًا من مركز الإغاثة (زيكو هاوس) مع عدد من منظّمات الإغاثة الأخرى ولاسيّما «الصليب الأحمر اللبناني» الذي كان ومايزال من أبرز المؤسَّسات اللاطائفية غيرِ المسيَّسة في لبنان وخلال أسبوع كان المتطوّعون في مجموعة «صامدون» يهتمّون بأكثر من ١٠ آلاف نازح منتشرين في حوالي ثلاثين مدرسة على امتداد العاصمة.

تقدّمتْ مجموعةُ «صامدون» في غياب حكومة لبنانية فاعلة وحازمة، مع أنّ «النقّاد» وصانعي السياسة الغربيين لا ينفكّون يُسْبغون الثناءَ على السنيورة وكتلةِ ١٤ آذار لكونهما مؤشِّريْن على ولادة لبنان ديموقراطي؛ وفي الإطار عيْنه يتّهم المحافظون الأميركيون الجدد والليبراليون الأميركيون العالمَ العربيَّ «اللاعقلاني» بالافتقارِ إلى «مجتمعٍ مدنيّ» ضروريّ لقيامِ «مجتمعٍ حرّ.»

لكنّ عمليات إغاثة النازحين أثبتتْ أنّ «الشارعَ العربي اللاعقلاني» ـ المؤلَّفَ من ناشطين وأساتذة جامعيين وطلاب وعمّال ومهنيين ومدبّراتِ منزل . ـ أَظْهر فضائلَ ديموقراطيةً ومدنيةً كانت غائبةً عقب مأساة إعصار كاترينا مثلاً. والأهمّ أنّ نشاطَ أولئك الناس فَضَحَ أساطيرَ محور الحريري ـ جنبلاط ـ القوات اللبنانية، المهمّةَ بشكلٍ خاصٍّ لـ «شرقِ بوش الأوسطِ الجديد.»

كانت الحكومةُ اللبنانيةُ الموالية لأميركا مصعوقةً من جرّاء القصف، أو متواطئةً. ومع أنّها برئاسةِ أوْ دعم أغنى القادة في العالم (من المؤسسة الحريرية إلى العائلة السعودية المالكة إلى شركة بوش)، فإنّها تَفْتقر إلى الموارد اللازمة وإلى التخطيط والتنظيم. ويدلّ ردُّ فعلها الضعيفُ على عجزها ولامسؤوليّتها، إنْ لم يكن استخفافها (الذي باتَ ماركةً مسجلّةً لها) بالطبقات الفقيرة من سكّانِ المدن والأريافِ اللبنانية الأكثر من ذلك أنّ ردَّ فعل الحكومة يستدعي إلى الذهن عاملاً أساسيّاً كانت إسرائيلُ والولاياتُ المتحدة قد أخذتاه في الاعتبار عند التخطيط لاعتدائهما على لبنان: وهو أنّ الهدفَ الأشملَ للحرب الإسرائيلية اللاشرعية على لبنان قد يُنْظر إليه بعيْن العطف من قِبل خصوم حزب اللّه في التحالف اللبناني الحاكم. والحقّ أنّ اعتداءات أولمرت لم تَهْدفْ إلى تدمير حزب الله **مباشرةً** بقدْر ما هَدَفتْ إلى إجبار الحكومة اللبنانية على نشرِ جيشٍ لبنانيٍّ ضعيفٍ وعاجز على الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية، دافعةً بذلك لبنانَ رويْدًا رويدًا إلى التطبيع مع إسرائيل. ولقد أدركتْ إسرائيل أنّها ـ بخَلْقها أزمةً إنسانيةً ومعاناةً شعبيةً وبتدميرها

غابرييلا بوليسوڤا

سيارة تحت الأنقاض في الضاحية الجنوبية

لاقتصاد لبنان ـ قد تَبْلغ أهدافًا سياسيةً يؤكّد إلياس عطا اللّه (في مقابلاتٍ أُجريتْ معه مؤخّرًا) أنّها هي نفسُها أهدافُ حكومة ١٤ آذار من وراء «الحوار الوطني.»[١]

لقد كان واضحًا أنّ ما تحاول إسرائيل فرضَه على لبنان هو أهدافٌ سياسيةٌ تشاركها فيها حكومةُ ١٤ آذار، ألاَ وهي: نزعُ سلاح حزب اللّه، وإضعافُه سياسيّاً، ونشرُ الجيش اللبناني في الجنوب، وإزالةُ الطابع العسكري عن الحدود (بما في ذلك مزارعُ شبعا وكفرشوبا). وهذه كلُّها خطواتٌ حاسمةٌ على طريق التطبيع.

علاوةً على ذلك، فإنّ بقاء سورية خارج النزاع سيعرِّضها للمزيد من العُزْلة، وسيُظْهر عجزَها بشكلٍ ساطع. ولكنْ إذا استُفزّتْ إيرانُ وسوريا (التي يتبجَّح كثيرون داخلها بانتصاراتهم) إلى ميدان القتال، فذلك سيقدِّم لإسرائيل والولايات المتّحدة مبرِّرًا لتدمير قُدُرات إيران النووية (التي تَجْحَظُ باتجاهها عيونُ الصقور من الحزبيْن الجمهوري والديموقراطي الأميركيين). وسيَفْتح انخراطُ سوريا (غيرُ المرجَّح) في الحرب البابَ أمام قصفٍ جويٍّ هائلٍ يتعرّض له الجيشُ السوري أملاً في التعجيل بانقلابٍ داخليّ ضدّ النظام السلطوي في سوريا. هذه السيناريوهات، الرابحةُ في كل الأحوال بالنسبة إلى إسرائيل وكتلةِ ١٤ آذار والولايات المتحدة، هي وراء رفض كوندوليسّا رايس منذ البداية العملَ على «وقْفِ إطلاق النار.» بل إنّها، بدلاً من ذلك، جاءت إلى لبنان للبحث عن تأمينِ استسلام أُحاديّ الجانب (من طرف حزب اللّه) للمطالب الإسرائيلية، وإلاّ دَعَتْ إلى «خطةِ سلام.» وهكذا فإنّ لبنان، بعد إزالة الطابع العسكري عن حدوده مع إسرائيل، وبعد إزاحة سلاح حزب اللّه (الذي أَثْبت أنّه رادعٌ عسكريٌّ فعّال)، سيُعَرَّى من ورقتيْن رابحتيْن أساسيتيْن في المفاوضات، وهذا ما سيَسْمح لإسرائيل بالضغط من أجل معاهدةِ سلامٍ ثنائيةٍ تكون أكثرَ «حميميةً» مع لبنان وتكون ـ من دون أدنى شكّ ـ برعاية الولايات المتحدة «النزيهة.»

لا يحتاج المرءُ إلى أن يكون بروفسورًا لكي يدركَ أنّ حربَ إسرائيل، المسمّاةَ (بتعبيرٍ انتقاميٍّ) «عمليةَ الثواب العادل،» لم

١ ـ يورد Bryan Bender من **Boston Glob** نقلاً عن عطا اللّه قولَه «إنّ حزبَ اللّه لا يريد التخلّي عن سلاحه، وهذا يعني أنّ الأزمةَ ستستمرّ لقد تركوا [حزبُ اللّه] مائدةَ [الحوار الوطني] وذهبوا لإطلاق النار.» أنظر www.boston.com/news/world/articles/2006/08/08

# التقاءُ المصالح: الدَّفعُ الإسرائيلي باتجاه التطبيع

تكن أبدًا بهدف استرجاع الجنديّيْن الإسرائيليّيْن اللذيْن أسَرَهما حزبُ اللّه في ١٢ تموز (يوليو). ولا يحتاج المرءُ أيضًا إلى أن يكون عربيّاً لكي يُدركَ منذ البداية أنّ هذه الحربَ لم تكن «حربًا على الإرهاب» بل حربٌ إرهابيةٌ ضدّ الشعب اللبناني. فلقد أدرك اللبنانيون والفلسطينيون، بالحَدْس والبديهة، أنّ ردّ الفعل الإسرائيلي على عملية الأَسْر هو عمليةٌ محسوبةٌ ومخطّطةٌ بدقّةٍ قَبْلَ حدوثها، وأنّها تمّت بمعرفةٍ كاملةٍ من طرف وزارة الدفاع ووزارة الخارجية الأميركيتيْن ومع ذلك فقد اكتشفتُ بعد إجلائي إلى الولايات المتحدة أنّ كثيرًا من أصحاب العقول المسيَّسة ممّن يكادون لا يثقون برؤيةٍ بوش إلى «الشرق الأوسط الجديد» يَعْجزون عن فهم الالتقاءِ المشؤوم لمصالح إدارة بوش ومصالح حلفائها في الحَكومتيْن الإسرائيلية واللبنانية. ولعلّ هذا هو أكثرُ ما صدمني عند وصولي إلى الولايات المتحدة؛ إذ لم يَعْلم أولئك الناس أنّ ضابطًا إسرائيليّاً رفيعًا زار وزارةَ الدفاع الأميركية العامَ الماضي ليَعْرِضَ خطةَ الحرب القادمة على لبنان غير أنّ أساتذةً جامعيين أميركيين التقيتُ بهم على امتداد الولايات المتحدة رُوِّعوا حين قرأوا سيمور هيرش يورد أنّ مستشارًا للحكومة الأميركية قال: «في وقتٍ مبكّر من هذا الصيف . زار واشنطن عدةُ مسؤولين إسرائيليين، كلٌّ على حِدة، 'من أجل أن يَحْصلوا على ضوءٍ أخضر لعملية القصف' » بل إنّ قلّةً قليلةً من زملائي الأميركيين والأوروبيين عَلِموا أنّ الولايات المتحدة وافقت العامَ الماضي على أن تبيع لإسرائيل ١٠٠ قاذفة مدمِّرة للحصون العسكرية (Bunker Busters)، كلٌّ منها تَزِن ٢٥٠٠ كغ، ومزوَّدة برؤوس حربيةٍ مطليّة باليورانيوم المنضَّب والموجَّهة بالليزر، وأرسلتْ على عَجَلٍ محروقاتٍ وأسلحةً إلى الجيش الإسرائيلي في منتصف تموز (يوليو). والهدف، بعبارة أحد المسؤولين الأميركيين، هو «إعادةُ تزويدٍ طارئةٌ» (emergency re-supply) للجيش الإسرائيلي

في العام الماضي اتَّهَمَ محافظون جُدُدٌ من الهُواة، في كلٍّ من بيروت وواشنطن، الجامعةَ الأميركيةَ في بيروت بأنّها ذاتُ عواطف «يسارية.» وشأنَ حفنةٍ من اليساريين الملتزمين وسطَ هيئةٍ مدرّسين محافظين سياسيّاً واجتماعيّاً، فقد استمَتعتُ بسخفِ ذلك الزعم، بقدْر ما أغاظني نقلُ الهجوم الرجعي الأحمق ضدّ الأكاديميين في الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) و«ازدراعُه» في لبنان. والحال أنّه برغم الآراء السياسية المنوَّعة التي تبنّاها أساتذةُ الجامعة الأميركية في بيروت من لبنانيين وأجانب، فإنّ عدوان إسرائيل العاري على لبنان قد فَتَحَ أمامنا مجالاً للتوحّد، ولاسيّما في مجال إغاثة النازحين وأعتقد أنّ معظمَ هؤلاء الأساتذة، بمن فيهم الكثيرون ممّن انتقدوا حزبَ اللّه، سيوافقون على كثير من الأفكار الواردة في هذه المقالة غير أنّ انتقالي إلى الولايات المتحدة يناقِضُ تجربتي في لبنان: فعلى أثر نشري لمقالاتٍ عن العدوان الإسرائيلي على لبنان، تلقّيتُ سلسلةً من التهجُّمات الشخصية المنشورة في المطبوعات أو في الإعلام الالكتروني، وعَلَت احتجاجاتٌ رُفعتْ إلى أعلى المناصب في الجامعة تطالب بإقالتي. والحقّ أنّ ثمة مفارقةً مشؤومةً في هذا الانتقال من المحيط الأكاديمي اللبناني إلى المحيط الأكاديمي الأميركي، وهي تؤشِّر إلى التيار عينِه الذي يَرْبط ما بين مقاومة حزب اللّه و«الإرهاب»؛ وهو التيارُ الإيديولوجيُّ نفسُه الذي سيُجبر الحكومةَ اللبنانيةَ المطواعةَ في النهاية على التطبيع الأحادي الجانب بكلامٍ آخر، فإنّ جوّ التخويف النيو ـ محافظ، بالرغم من دفاع الجامعة المحموم عن الحقّ في حرية التعبير المطّلع، قد بدأ بتشكيلِ رؤيةٍ نيوليبراليةٍ إلى العالم بحيث يُربط الكلامُ ضدّ الظلم الإسرائيلي والإجرام الأميركي ربطًا فوريّاً بالنشاط «الهدّام» وبدعم تنظيم «القاعدة.» غير أنّنا «لن نَصْمت» كما تَذْكر عبارةٌ على قمصان ناشطين أميركيين من أجل السلام.

**جنوب كارولاينا**

**د. إسطفان شيحا**

بروفسورٌ مشارك في الثقافة العربية، دائرة اللغات والآداب والثقافات في جامعة جنوبي كارولاينا

# شعبُ حزبِ اللّه

منى حرب

وُلدتُ وترعرتُ في حارة حريك. في سنة ١٩٨٩ غادرتُ الحارةَ إلى بيروت، لأنّ والديَّ كانا يَخْشيان من صعود حزبٍ متطرّف ـ هو حزب اللّه ـ غَيَّرَ بشكلٍ هائلٍ الأسبابَ التي سبق أن دفعتْهما عامَ ١٩٦٧ إلى الانتقال من بيروت إلى «الحارة»؛ ولأنّني وأخي كنّا نَرْغب في أن نعيشَ على مقربةٍ من أصحابنا.

نشأتُ وفي ذهني انطباعاتٌ سلبيةٌ عن حزب اللّه، الذي صُوِّرَ لي وكأنّه بَيْدَقٌ إيرانيٌّ «يُؤَسْلم» حارتَنا، ويرشو النساءَ كي يرتدينَ الحجابَ، ويرشو الرِّجالَ كي يصبحوا «ملتزمين.» وكانت أُمّي تَكْره أن أشيرَ إلى حارة حريك بـ «الضاحية» لأنّها كانت تَرْفض أن تسمّي حارتَنا باسمٍ يَدلُّ على منطقةٍ سياسيةٍ صاعدةٍ لم تستطع أن تتماهى معها

حين كنتُ أتابع دراستي في التخطيط المُدُني، أَسَرَني أن أحاولَ فهمَ ما يسمّى بـ «أسلمة الفضاء،» وأن أَكْشفَ دورَ حزبِ اللّه في إنتاجها. على هذا النحو اكتشفتُ مؤسَّسات حزب اللّه، وانتهيتُ (أثناء تحضيري لنيل الدكتوراه) إلى أن أكتشفَ أيضًا كيف يُنظِّم الحزبُ تقديمَ خدماتِه المُدُنيةِ والاجتماعيةِ عبر سلسلةٍ من الشبكات. وكان ذلك أيضًا سبيلاً لأن أَكتشفَ أنّ المقاومة ليست كفاحًا مسلَّحًا فحسب، بل هي ـ في الأساس ـ مقاومةٌ اجتماعيةٌ وثقافيةٌ تَحْمل معانيَ بالغةَ الأهمية لجمهور حزب اللّه، وذاتُ جذورٍ ضاربةٍ في تاريخ التشيُّع، وتطبَّقُ من خلال تشكيلةٍ من الممارسات اليومية. وما لبثْتُ أفكاري المسبَّقة عن حزب اللّه أن تهاوتْ، ومَرَرْتُ بمرحلةٍ افتُتِنْتُ فيها بتنظيم هذا الحزب وبحِرَفيَّتِه وفعّاليته. واستغرقني الأمرُ طويلاً قبل أن أعي محدوديّةَ هذا النموذج، ولاسيّما بالنسبة إلى مجتمعٍ متعدِّدِ الطوائف حيث الاستقطاباتُ الطوائفيةُ ليست هي الجوابَ الأفضلَ لي ـ أنا العَلْمانية. ومع ذلك، فإنّ سيرورةَ بحثي مَكّنتْني من تحليل حزب اللّه بطريقةٍ «موضوعية» وأن أفهَمَه وأَقْبلَه بوصفه لاعبًا سياسيًا مشروعًا.

هكذا، بدلاً من أن أعتبرَ حزبَ اللّه ذراعًا لإيران في منطقة البحر المتوسط، قمتُ بدراسته على أنّه نتاجٌ للنظام السياسي الطوائفي اللبناني ـ وهو نظامٌ يحثّ على الانتماء إلى الطوائف ويَدْفعها إلى الاهتمام بأمورها بنفسها وبصورةٍ أخصّ، فإنّ النظام السياسي اللبناني يحثّ على نموذجيْن للحكم: أ) «سحبُ» موارد الدولة وإعادةُ توزيعها على جمهور الطائفة، ب) بناءُ جهازٍ إداريّ مستقلّ. والحقّ أنّ غالبيةَ الحركات السياسية في لبنان تنتمي إلى أحد هذيْن النموذجيْن، وقد تَدْمجهما كليْهما في استراتيجياتها التعبويّة: فحركة «أمل» والحزب التقدُّمي الاشتراكي والمجموعات السنيّة والأورثوذكسية تنتمي إلى النموذج الأول، في حين أنّ «القوات اللبنانية» وحزبَ الطاشناق أقربُ إلى النموذج الثاني أما حزبُ اللّه فهو ذروةُ النجاح في النموذج الثاني. ومن ثم يغدو من الضروري إعادةُ النظر جديّاً في الشعار الأثير اليوم لدى الولايات المتحدة، وهو أنّ حزبَ اللّه «دولة ضمن الدولة»؛ فالحقّ أنّ حزبَ اللّه يتصرّف فعلاً كدولة، ولكنْ ليس ضِمْنَ الدولة، وإنّما ضِمْنَ **نظامٍ سياسيٍّ** يشجِّع ـ من خلال دستوره نفسه ـ على بناءِ دويلات داخلة.

إلاّ أنّ هذه المعرفة لم تساعدْني في التعامل مع الحرب الأخيرة، بل بَعَثتْ في نفسي المزيدَ من الخوف لكوني أُدْرِكُ حجمَ التزام حزب اللّه بالقضية وقوّةَ عزيمته. والحقّ أنّني، في بادئ الأمر، لم أستطع أن أتعاملَ مع الحرب بوصفي باحثةً. وبعد الصدمة الأُولى ذُهِلتُ بقدرات حزب اللّه العسكرية على البقاء، وبمستوى ردّه على الحرب الإسرائيلية. ثم غَمَرتْني مشاعرُ متضاربةٌ: فقد أرعبتني فكرةُ التصدّي لـ «جيش الدفاع الإسرائيلي»؛ لكنّني كنتُ أيضًا فخورةً بالنَّصْر، وتماهيتُ تماهيًا صادقًا مع خُطَبِ السيد حسن نصر اللّه. إلاّ أنّ مشاعر الفخر لم تعمِّر طويلاً، وما لبثْتُ أن اكتسحتْها مشاعرُ القلقِ والهمّ.

# شعبُ حزبِ اللّه

كان واضحًا لأيٍّ كان أنّني لم أعِشْ مجتمعَ المقاومة: فأنا لم أستطعْ أن أتعامَلَ مع الحرب إلاّ بوصفي أُمّاً وإنسانًا سَبَقَ أن عاشَ حربًا في الماضي. وكلُّ الآلام النفسية المكبوتة الناجمة عن الاختباء في الملاجئ، والخوفِ من رجالِ الميليشيات، والفزع من الغارات الجوية، عادت لتَسْكُنَني. وتملّكتْني مخاوفُ لاعقلانيةٌ لم تَخْمدْ إلاّ بعد انقضاء أيامٍ عديدة. وبدأتُ ـ تدريجيّاً ـ أَفْهم أنّ هذه الحرب تختلف عن الحرب السابقة، وأنّ العدوّ الذي نواجهه مختلفٌ هو أيضًا. هذا الفهم ساعدَني في التعامل مع أسئلة ابني «نديم» التي كنتُ أتمنى لو لم يسألْني إيّاها قطّ. كنتُ غاضبةً وتحوّلَ الغضبُ إلى غيظٍ شديد، كانت تَقْطعه غالبًا فتراتٌ طويلةٌ من الحزن وعدم التصديق، اللذيْن راحا يتضاعفان كلّما توالَتْ صورُ وحكاياتُ القتلِ والتهجيرِ والعقابِ الجماعي لم أستطع أن «أفكّر» في الحرب رغم محاولاتي. فلقد قرأتُ كلَّ ما يُمْكن قراءتُه من تحليلاتٍ سياسيةٍ عن الأزمات المحلية والإقليمية والعالمية، فلم تَزِدْ مشاعري المتضاربةَ إلاّ اشتدادًا. لم أَقْدرْ على التعبير عن موقفٍ واضح: فساعةً أَشْعرُ بالغضب الشديد لأنّ الصُّمود بدا أمرًا طبيعيّاً جدّاً، وساعةً أشعرُ بالاستنزاف التامّ وبأنّني على استعدادٍ للاستسلام. كنتُ أُحِسّ بالخجل والذّنْب، بالأنانية والضعف. ولطالما صرختُ في وجهِ الصحفيّين الذين اتّصلوا بي ليسألوني رأيي في ما سمّوْه «الصراع» كنتُ منزعجةً من زملائي الذين استطاعوا أن يجدوا القوةَ على نشر تحليلاتهم. كنت أريدُ لسفكِ الدماء أن يتوقّفَ لكي أستطيعَ أن أعملَ من جديد لم أستطعْ أن أَفْهم عجزَ العالم عن وضع نهايةٍ لهذه الجرائم المريعة، وقبولَه تبريراتِ إسرائيل التي لا يُمْكن تبريرُها. وشعرتُ أيضًا بما لا بدّ أن يكون العراقيون والفلسطينيون يَشْعرون به كلَّ يوم. وشعرتُ بالذّنْب لأنّني عِشْتُ كلَّ هذا الزمن وأنا أُنْكِر الحقائقَ الدامغة.

اليومَ، فيما الحربُ تتواصل بطُرُقٍ لا تستدعي سفكَ الدماءِ بشكلٍ مرئيٍّ ولكنّها لا تقلّ عنفًا وظلمًا، ها أنا أبدأُ باستيعابِ الأمور نوعًا ما. إنّ هذه الحربَ تبدو لي الآن صراعًا من أجل الكرامةِ والعِزّةِ والحرية قد يبدو الأمرُ ساذجًا، لكنّه ليس في هذه السذاجة. ذلك أنّ تلك الكلماتِ الثلاث لا تؤدّي المعنى نفسَه لدى كلِّ اللبنانيين: ففي حين أنّها تَرْسم حياةَ الجنوبيين الذين عاشوا تحت تهديدِ إسرائيل طوال العقودِ الثلاثةِ الأخيرة، فإنّها لا تعدو أن تكون مجرّدَ كلماتٍ بالنسبة إلى كثير من اللبنانيين الذين لا يَعُونَ ذلك التهديدَ. إنّ هذا التهديدَ هو ما يميّز موقفَ أولئك عن هؤلاء. فحين تعيش حياتَكَ كلَّها مع عدوٍّ لا ينفكُّ يُثْبتُ لك أنّه سيدمّر بيتَك وسيُحْرِق أرضَك وسيقتلُ أطفالَك، فإنّ خيارَك في الحياة لا يُمْكن إلاّ أن يكون مقاومةَ هذا العدوِّ والتيقُّنَ من ألاّ تصبحَ أنتَ وعائلتُكَ لاجئين أو خاضعين للاحتلال. إنّ فلسطين المحتلة لا تَبْعد عن بلداتِ الجنوب إلاّ بضعةَ كيلومترات، وإنّ مرأى المستوطنات الإسرائيلية يذكّر المرءَ بتلك الحقيقة في كلِّ لحظة إنّ الكرامةَ والعزةَ والحريةَ هي مفاهيمُ مُهَيْكِلةٌ أوْ مشكِّلةٌ (structuring concepts) تعزّز معنى الحياة بالنسبة إلى الناس الذين يعيشون في الجنوب، مثلما تقرّر معنى حياةِ الناس في فلسطين والعراق. والحقُّ أنّ التشيُّعَ يعزّز من خيارِ المقاومة، ويمدُّ الكفاحَ الجنوبي بمفاهيمَ تاريخيةٍ ودينيةٍ مميَّزة.

كثيرٌ من اللبنانيين لا يَعتبرون الحربَ الأخيرة نصرًا للبنان، ويَنْتقدون حزبَ اللّه لأنّه «قادَنا إلى هذه الكارثة.» نعم، إذا لم يَجدِ المرءُ مفاهيمَ المقاومةِ والعزّةِ والكرامة ذاتَ معنى فلن يستطيع أن يَفْهم هذه الحرب، ولن يستطيعَ ـ من ثم ـ أن يَكْسَبَها! فإذا كنتَ مثلَ ذلك المرء، فاسمحْ لي أن أدعوكَ إلى الجنوب إنْ لم تكن قد زُرْتَه بَعْدُ (وأنا أَقْصد جبلَ عامل، لا شواطئَ الجيّة والرميْلة)، لتتحدّثَ مع الناس الموجودين في ما تبقّى من القرى والبلدات، ولتَسْمعَ حكاياتِهم، ولتَشْعُرَ

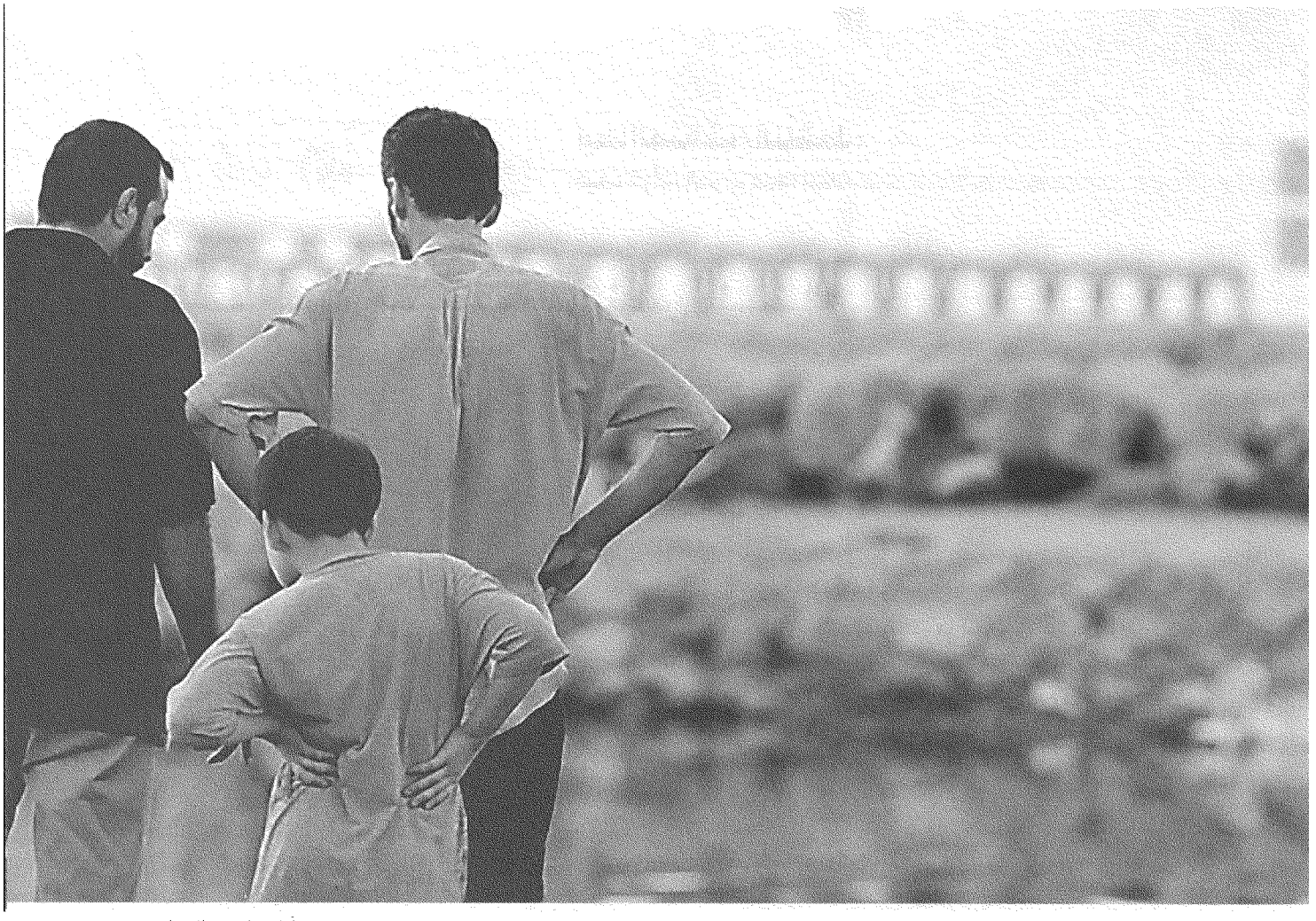

غابرييلا بوليسوڤا

معاينة الأضرار في الأوزاعي

بحقيقةِ الجنوب وتَحْياها. فعندها ربّما قد تُدركُ معاني هذه الحرب. وربّما سيَفْتح الناسُ عقولَهم وقلوبَهم ليَقْبلوا حزبَ اللّه وجمهورَه الشيعي لا بوصفهما تهديدًا انشقاقيّاً مفروضًا على كيانهم، ولا بوصفهما مجموعاتٍ تعرّضتْ لغسيلِ دماغٍ إيديولوجي، ولا بوصفهما أناسًا غيرَ متعلّقين بأولادهم وبيوتهم، بل شركاءُ صلبون وفعّالون في بناء الوطن.

قد يبدو الحزبُ وجمهورُه الشيعيّ مختلفيْن عنكَ، وقد يتصرّفانِ بطريقةٍ مغايرةٍ لتصرُّفاتك. ولكنّهما بالتأكيد متجذِّران في المجتمع اللبناني والسياسة اللبنانية مثل الآخرين، ويستطيعان أن يُسْهما إسهامًا كبيرًا في صياغة «المشروع اللبناني »

**بيروت**

**د. منى حرب**

أستاذة التنظيم المُدُني في الجامعة الأميركية في بيروت

# المقـــاومـــــة بـالـنـاس ولـلـنـاس

إصلاح جاد

## لماذا توقّعتُ الحرب؟

قـرأتُ الحـربَ على لبنان في ٢٠٠٦/٧/١٢ بالاسـتناد إلى معرفتي السابقة بالعقلية الصهيونية، التي تقوم على قناعةٍ راسخةٍ بأنّ «العربي لا يَعْرف إلا لغةَ القوة،» وأنّ العربي «يزداد توهُّجًا كلّما ضُربَ على رأسه،» وأنّ «ما لا تستطيع أن تَحْصل عليه بالقوة ستَحْصل عليه بمزيدٍ من القوة.» هذه الأقوال الفاضحة في عنصريتها تجعل المرءَ يدرك أنّ ما حقّقتْه المقاومةُ اللبنانيةُ الباسلة بقيادة حزب الله في عام ٢٠٠٠ قد خَطَّ سابقةً خطيرةً على حياة دولة إسرائيل في المنطقة، كان من الصعب أن تمرّ دون «عقاب» سريع لئلاّ تنتقلَ «عَدْواه» إلى بقية شعوب المنطقة المقهورة ـ بحكّامها، داخليّاً، وبالغطرسة والإذلال المستمرّ من قِبل إسرائيل وحليفتها أميركا، خارجيّاً.

توقّعتُ الحربَ أيضًا كلّما كنتُ أرى أولادي وأصدقائي وجيراني يتسمّرون أمام التلفاز عندما يُلقي سماحةُ السيد حسن نصر الله خطابًا يتابعونه بتلهُّف وشغف. كنتُ أسأل دائمًا عمّ يَجْذب كلَّ هؤلاء، من صغار وكبار، إلى ما يقول. ثم رجعتُ بالذاكرة إلى أكثر من ثلاثة عقودٍ خَلَتْ عندما كنتُ أستمعُ في طفولتي وصباي إلى خطابات جمال عبد الناصر، وكيف كانت كلماتُه الواضحةُ البسيطةُ المفعَمةُ بروح العزّة والكرامة والإباء تهزُّ مشاعري وتُوقِظُ وعيي على ما يَحْدث حولي ـ سواء في مصر أو في بقية العالم العربي والعالم النامي بشكلٍ عامّ. هكذا يتسمّر الجميعُ اليوم لأنّهم يَستمعون إلى قائدٍ عربيٍّ جديد، يَشْعر بشعور شعبه، ويعيد إليهم مرةً أخرى روحًا عمل العديدُ من الأنظمة العربية (وزبانيتها من محطّات الإعلام المختلفة) على إخمادها لكي تَبثّ روحَ اليأس والهزيمة في النفوس.

لهذه الأسباب كلّها توقّعتُ الحرب. كيف لا وإسرائيلُ وأميركا تَعْملان بلا كللٍ ولا مللٍ على «صناعة النُّخب» السياسية التي تَحْكمنا، وعلى صناعة النخب التي تفكّر وتَخْلق رأيًا عامّاً من المثقفين والأدباء والفنّانين والصحفيين؟ فكيف بعد هذا الجهد المبذول لتطويع كلّ عنصرٍ يُمْكن أن يساعد على التغيير في المنطقة، كيف يُسمح لقياديٍّ من نمط نصر الله بالاستحواذ على قلوبِ وعقولِ اللبنانيين بل العرب والمسلمين أيضًا؟!

## المقاومة: جديدُها وعظمتُها

أما المقاومة اللبنانية فجديدُها أنّها تقوم على دورٍ واضحٍ لا يَقْبل التأويلَ بأهمية الناس العاديين، وكيف أنهم قادرون فعلاً على صنع المستحيل بالاستناد إلى وعيهم وقدراتهم وتنظيمهم وقيادتهم الخلاّقة التي هي جزءٌ لا يتجزّأ منهم. إلاّ أنّ هؤلاء الناس كلّما ضَحّوا أكثرَ وأعطوْا أكثر، تعالى صراخُ مَنْ لا يضحّي ولا يعطي بأنّ المقاومة تَجْلب الدمار وهي بالطبع تَجْلب الدمار... ولكنْ على مصالح هؤلاء الصارخين، وعلى نمط عيشهم المُتْرف الذي تأسّسَ على استعبادِ الغالبية التي اعتقدوا أنّها صامتة! غير أنّ عظمةَ المقاومة اللبنانية لا يتجلّى فقط في إيمان قادتها العميق بالناس العاديين ومدى أصالتهم ومدى قدرتهم الواعية على العطاء، بل يتجلّى أيضًا في احترام قادة المقاومة وتقديرهم لذلك العطاء، وفي العمل على تعزيز حسِّ الكرامة والإباء لدى أولئك الناس. ومن هنا كان السلوكُ السريعُ من قِبل قادة حزب الله في إجلالهم، ومنعِهم من الانتظار، أو منعِهم من طلب المساعدة لمحو آثار العدوان والدمار، وتمكينهم من العيش سريعًا بعزّة وأنفة.

إزاء كلّ هذا المشهد الجديد العزيز، وبعد قضاء الأيام الأولى من الحرب وأنا أتابع أحداثَها عبر أجهزة الأعلام المختلفة، وبعد أنْ حمدتُ اللّه على وجود قناة إعلامية واحدة (فقط واحدة) ارتقتْ إلى مستوى الحدث ومستوى ما يَعْتمل في صدور الناس من أمثالي، وبعد أن حمدتُ اللّه مجددًا على هذه القناة ـ قناة المنار ـ التي استمرت في نقل صوت الناس العاديين سواء على خطوط النار أو في الخطوط الخلفية يقاومون دون خوف ولا هوان بعد ذلك كلّه رأيتُ أنّ أفضلَ سبيلٍ لدعم هذا المشهد العظيم هو أن أفعلَ شيئًا، أن أَخْرجَ إلى الشارع، أن آخذَ أطفالي، أصدقائي، جيراني وكلَّ من أعرف، للتظاهر. استخدمتُ الهاتف، والبريدَ الإلكتروني، والرسائلَ الهاتفيةَ لتعميم مواعيد كافة الأنشطة والمظاهرات المقترحة من كافة الفصائل الوطنية والإسلامية، ولدعوة الجميع إلى الخروج معًا وأمام بعض التعليقات القليلة والسخيفة (من قبيل «كيف تسيرين وراء قيادة طائفية دينية وأنتِ النسويةُ العلمانيةُ اليسارية؟!»)، قررتُ أن أخرج للتظاهر وأنا أحمل صورةَ أول قائدٍ عربي جاء من الشعب ولم ينفصلْ عنه أبدًا لا بقصور ولا بألقاب. لا بل قرّرتُ أيضًا أن أحمل علمَ مقاومته، مقاومتي، مقاومتنا.

غابرييلا بوليسوتا

الحدود مع فلسطين عند مارون الراس

إذنْ، التظاهر، وإظهارُ موقفٍ واضح لا لبسٌ فيه ولا «فذلكاتٌ» فكرية أو لغةٌ رمادية أو بحثٌ عن ذكورية الميلشيات وسحرها (وكأنّ جولدا مائير ومارجريت ثاتشر لم تكونا من النساء!) كلّ ذلك كان ردةَ فعلي على ما يحدث لقد رأيتُ أنّ أَخْذَ هذا الموقف الواضح والصريح مهمٌّ في زمنٍ تعولَم فيه بعضُ المثقفين، وأصبح بعضٌ آخر معبِّرًا عن النخبِ القليلة التي تَحْكم بالسياسة والاقتصاد والقلم لتتركَ الغالبيةَ العظمى من الناس «لحال سبيلها.» ولكنّ هذه الغالبيةَ لم تُتركْ لحال سبيلها، بل نهضتْ، لتَكْشفَ عمّن يعبِّر فعلاً عن مصالحها ويرقى إلى مستوى تضحياتها من جهة، وعمّن يختار مصالحَه وفتاتَ ما يرميه إليه سادةُ العولمة من جهة ثانية. يجب ألاّ ننخدع بعد الآن بأنّ «العلماني الحقّ لا يسير خلفَ أحزابٍ أو شعاراتٍ دينية» ـ وكأنّ العلمانية «الحقّة» لا مكانَ فيها للقيم الدينية والحال أنّ تقاعُسَ البعض، بحجّة الليبرالية أو العلمانية أو غيرهما، عن أخذ موقف واضح مما يَحْدث سيَجْعل مِنْ هؤلاء الخاسرَ الأعظمَ مِنَ العدوان الأخيرِ فمَنْ قال إنّ الليبرالية والعلمانية في بدايتها الأولى لم تخوضا معاركَ وثوراتٍ؟ إنّ الليبراليين والعلمانيين العرب الذين تخاذلوا عن دعم كافة أشكال المقاومة إنّما بذلك يَضْعون أنفسَهم، شاءوا أم أبَوْا، في معسكر المعتدي المغتصِب، إذ لم توجد دولةٌ واحدةٌ في العالم حصلتْ على حريتها و«تنويرها» دون ثورات وعنف وتضحيات ومقاومة.

## الحفاظ على الإنجاز

والآن، كيف يمكن المحافظةُ على هذا الإنجاز العظيم؟ كيف نَضْمن أن يكون صوتُ الناس العاديين هو المسيطِرَ، فلا يسيطِرُ عليه مَنْ لا يُضحّون ولا يشاركون؟ هنا أرى أنّ ترسيخ المقاومة بالناس هو الأساس إنّ أيَّ فعلٍ يقوم به الناسُ العاديون، شرطَ أن ينبني على النظام والاستمرارية، أمرٌ هامّ ولتكنْ بؤرةُ العدوان هي نقطةَ الانطلاق التي بإمكانها إن تَجْذب الآلافَ من كلّ بقاع الأرض، للتطوع في مخيّمات عمل من أجل المشاركة في الإعمار، وللالتقاء مباشرةً مع من تحدَّوا وصَمَدوا وانتصروا لكرامتهم. فإذا خرجت المظاهراتُ أثناء هذا العدوان بالآلاف، فيجب أن تخرج في المرات القادمة بمئات الآلاف. ولكنّ هذا يستدعي العملَ من الآن مع كافة الأطر الشعبية، وعلى كلّ مستويات التواصل بين الأطفال والنساء والطلاب والعمال والفلاحين والموظفين والإعلاميين والنقابيين وغيرهم الكثير من قطاعات الشعوب العربية الشريفة. فبالاعتماد على الناس، وبالناس، تنتصر المقاومةُ في كلّ مكان

**فلسطين**

**د. إصلاح جاد**

أستاذة في معهد دراسات المرأة، دائرة الدراسات الثقافية، جامعة بيرزيت، فلسطين

# إلى أين بعد النصر؟

جون تشالكرافت

شَهِدت الأسابيعُ الماضيةُ فصلاً دمويّاً جديدًا في التاريخ المديد الذي تخوضه المقاومةُ ضدّ نزعة التوسُّع الإسرائيلية وضدّ الهيمنة الأميركية «ذاتِ الأطيافِ الشاملة» على الشرق الأوسط.

والحال أنّ الهجومَ على لبنان في ١٢ تموز (يوليو) سبق أن خُطِّطَ له في كلٍّ من تل أبيب وواشنطن دي. سي. فالإسرائيليون، الذين وَصَفوا الغزوَ بأنّه حربٌ ضروريةٌ لمواجهةِ خطرٍ وجوديّ يتهدَّدُهم، كانوا في واقع الأمر يسعَوْن إلى إلغاء حزب اللّه انتقامًا من انسحابهم الذليل من لبنان في أيار (مايو) ٢٠٠٠ أولاً، ولكنْ ـ ثانيًا وأساسًا ـ من أجل إزاحةِ عائقٍ في وجه استعمارهم في الأراضي الفلسطينية المحتلّة عامَ ١٩٦٧. بل إنّ تضامُنَ حزب اللّه مع الشعب الفلسطيني قد جرى تأكيدُه في صميم «الذريعة» التي نَشبتِ الحربُ بسببها: ذلك أنّ أَسْرَ حزبِ اللّه لجنديَيْن إسرائيليَيْن كان يَهْدف، في ما يَهْدف، إلى تخفيف الضغط الإسرائيلي على الفلسطينيين المحاصَرين، ولاسيّما في غزة.

أما البيت الأبيض فكان، من جهته، سعيدًا بمنح إسرائيل بضعةَ أسابيع لكي تحقِّق أهدافَها. وكان سهلاً إقناعُ الجمهور الأميركي بضرورة القيام بـ «ضربةٍ جراحيةٍ» ضدّ «الإرهابيين المُلْتحين» وكان ممكنًا أيضًا مواصلةُ تصوير «ثورة الأرز» في لبنان، أمام ذلك الجمهور الأميركي، بوصفها نجاحًا لسياسة الرئيس بوش الخارجية. وقد افتَرضَتْ واشنطن أنّ الهجوم الإسرائيلي سيَلْقى استحسانًا هادئًا من «المسيحيين» اللبنانيين، وسيثبِّت لبنانَ دولةً تابعةً للولايات المتحدة. والأهمّ أنّ إلغاءَ حزب اللّه سيُضْعف رصيدًا إيرانيّاً إستراتيجيّاً في التحضير لصدِّ هجومٍ أميركيٍّ مخطَّطٍ له على إيران ـ التي هي «الجائزةُ الكبرى» في الخليج الفارسي الغنيّ بالنفط. وذهب التفكيرُ الأميركيُّ إلى أنّه ما دام الإسرائيليون يَمْضُون في «عملهم» بسرعةٍ لا تَرْحم، فإنّ السقوطَ الأميركي في المنطقة ـ وخاصةً على مستوى القوات الأميركية في العراق ـ سيكون أقلّ، وسيُمْكن حصرُ شكاوى الأوروبيين وغيرهم.

غير أنّ هذه الخطط فَشِلَتْ بسبب المقاومة العسكرية التي أَظْهرها حزبُ اللّه للغزو الإسرائيلي. فرجالُ العصابات المنظَّمون، والملتزِمون، والحانِقون بفنون التكتيك، والمسلَّحون بأسلحةٍ جيّدةٍ نسبيّاً، صَمَدوا في مواجهةِ أقوى جيوش العالم وأكثرها تفوُّقًا من الناحية التكنولوجية. وعَجَزتْ إسرائيلُ عن إحرازِ أيّ تقدُّمٍ ملموسٍ في نزعِ سلاح حزب اللّه وتدميرِه، وتكبَّدتْ عددًا كبيرًا لم تعتدْه من القتلى في صفوف جيشها. لقد وَقَعَ الإسرائيليون في مستنقع، ولم تكن الولاياتُ المتحدةُ ـ التي لم يُعْجبها الفشلُ الإسرائيلي ولا العراقُ الملتهبُ ـ على استعدادٍ للسماح بذلك وبتغييرِ كلّ تفكيرها الذي كان وراء الحرب الأخيرة. ولِذا أعطى قرارُ الأمم المتحدة المتأخّر (رقم ١٧٠١) الإسرائيليين الحجةَ للانسحاب وإعادةِ التقويم. ولكنْ لمّا كان غيرَ مرجَّحٍ أن يُنْزَعَ سلاحُ حزب اللّه بعد نجاحه السياسي والعسكري الكبير، فإنّ الأهدافَ الأساسيةَ للولايات المتحدة وإسرائيل لم تتحقّق.

فالانسحابُ الإسرائيلي من لبنان لن يسهِّل بأيِّ حالٍ من الأحوال التوسُّعَ الإسرائيليَّ في الأراضي الفلسطينية. كما أنّ إيران والمقاومةَ العراقية وسوريا قد ازدادتْ جرأةً على الأرجح، لهذا السبب أو ذاك. ثم إنّ «زبائنَ» الولايات المتحدة في لبنان وفي غيرِه من بلدان العالم العربي يعانون أزمةً متفاقمةً في شرعيّتهم، بعد أن بُثَّتْ صورُ المجازر الإسرائيلية في كلّ بيتٍ عربيٍّ من دير الزُّور إلى مرّاكش. بل إنّ الخططَ الأميركية لمهاجمة إيران يمكن أن تكون قد تراجعتْ هي الأُخرى.

لكنْ برغم الوهج الورديّ للنصر والتضامن فإنّ المدنيين اللبنانيين، ولاسيّما الشيعة، هم الذين يَدْفعون الثمنَ الأبهظَ

غابرييلا بوليسوڤا

حرّافة في الضاحية

فهؤلاء الذين عادوا عودةً شجاعةً، وبمئاتِ الآلاف، يواجهون الآن مهمةً طويلةً وبائسةً تتمثّل في إعادةِ ترميم عائلاتهم وقراهم وضواحيهم المدمَّرة. كما أنّ أحداثَ الأيام الماضية لم تحلّ أيّاً من المشكلات الأساسية. فكيف يُبْنى جيشٌ لبنانيٌّ قادرٌ فعلاً على حماية لبنان من إسرائيل؟ وكيف يتمّ تجنُّبُ أن يصبح لبنانُ بيْدقًا في يد الولايات المتحدة أو إيران أو سوريا؟ وكيف يجري خلقُ ائتلافٍ يتّسعُ للانزياحات السياسية الأخيرة ويَحْفظُ الوحدةَ الوطنيةَ الهشّة؟ وكيف يتمّ جذبُ الاستثمارات من أجل إعادة البناء، من دون رهنِ البلاد ـ من جديد ـ للمصارف الأجنبية؟ وكيف يَنْخرط لبنانُ في إعادة إعمارٍ تُشرِك وتفيدُ غالبيةَ الناس، لا النخبةَ المعولَمَةَ وحدها؟ وكيف تتمّ حمايةُ كلّ العاملين على إعادةِ صياغةِ لبنان، بمن في ذلك السوريون والسيريلانكيون والسودانيون، وهلمجرّاً؟

في رأيي أنّ شتى الإجراءات العسكرية والسياسية اللازمة للدفاع عن لبنان وعن وحدته قابلةٌ للتحقُّق ـ وهذا أقلُّ ما يُقال في هذا الشأن غير أنّ البلدانَ الساعيةَ إلى جذب الاستثمارات ضِمْنَ شروطِ العولمة الأُحادية النيوليبرالية ستظلّ عرضةً لأزماتٍ اجتماعيةٍ أساسيةٍ يبقى حلُّها مرهونًا بقيام الثورة الحقيقية

**بيروت**


**د. جون تشالكرافت**

أستاذ التاريخ وسياسات الإمبراطورية / الإمبريالية في مدرسة لندن للاقتصاد **(London School of Economics)** وقد كَتَبَ هذه المقالة خصّيصًا لـ الآداب أثناء زيارته إلى لبنان تضامنًا مع شعبه، وترجمها رئيس التحرير

# استعادة المعنى

سنان أنطون

## وقفة

قبل كلِّ شيء، وقبل كلِّ سلام، ومن بعده، استحضارٌ لذكرى الذين سقطوا بسبب البربرية الإسرائيلية، واستحضارٌ لذكرى الذين وقفوا بشجاعة كي يُسْقطوها ثانية.

نادرةٌ هي اللحظات التي تستحقّ ـ وبجدارة ـ أن تكون منعطفًا تاريخيّاً يتغيَّر عندهُ الأفقُ السياسي، وتتزلزل معه مجموعةُ أفكار مهيمنة أو تتضعضع أركانُها على الأقلّ. فالحال أنّ ذاكرتَنا الجمعية العربية مكتظّةٌ بالهزائم، وبتاريخ جلُّه من الأكاذيب والخيانات التي طالما غُلِّفتْ بخطاب العنتريات الرثّ، ودَمَغَها النظامُ الرسمي بزيفه المعهود، ثم ساقها وسوَّقَها على أنّها انتصارات أو مراحلُ انتقاليةٌ نحو «النصر الحاسم» والحقّ أنّ هذا «النصر» استُخدم ذريعةً لتأجيل أيّ تقدُّم حقيقي، ولتبرير وجودِ دكتاتورياتٍ تفنّنتْ في قمعها واضطهادها للمواطن وتحالفتْ مع عدوّه سرّاً وعلانيةً. ولقد تفاقم الوضعُ حتى صارت الهوّةُ بين الكلمات وبين معناها القاموسي أكبرَ من أن تُحْتمل، وأضْحت هذه الكلماتُ «الكبيرةُ» مدعاةً للسخرية. ومن هنا تأتي أهميةُ هذه اللحظة، لحظةِ الانتصار الذي حقّقه حزبُ اللّه في مواجهته الأخيرة مع إسرائيل. وإنّ تسميته انتصارًا لا يعني أبدًا التقليلَ من فداحة الخسائر البشرية والمادية التي تكبَّدها لبنانُ وشعبُه. لكنّه نصرٌ ميدانيّ بامتياز، كما أنّه نصرٌ ساحقٌ على المستوى الرمزي الذي لا يقلّ أهميةً، خصوصًا في عالم اليوم

## لِمَن النصر؟

لقد تساءل البعضُ، ولأهدافٍ ومصالحَ مفضوحة، عن الجهة التي سيجيَّر النصرُ لصالحها لا شكّ في أنّ النصر سيسجَّل، في أحد مستوياته المباشرة، لصالح حزب اللّه كحركة سياسية لها حساباتُها ومصالحُها الداخلية ضمن معترك السياسة اللبنانية ـ وهذا حقٌّ مشروع لكنّ للحرب، التي كانت هذه المعركةُ فصلاً من فصولها، مستوياتٍ أخرى أيضًا لا تقلّ أهميةً ترتبط بمشروع الإمبراطورية الأميركية وسيناريو «الشرق الأوسط الجديد» الذي نَعْرف أهدافَه ونتائجَه الكارثية في العراق وفلسطين ولعلّ الحربَ الأخيرة قد تُساعد البعضَ على التخلُّص من عمائهم الإيديولوجي لكي يعوا خطورةَ ما يَحْدث. فمن الحماقة أن يصدِّق أيُّ عاقل أنّ الإمبراطورية الأميركية تسعى إلى نشر الديموقراطية. ذلك أنّ ما ينتجه المشروعُ الأميركي هو أنظمةٌ دكتاتوريةٌ تنفِّذ مشاريعَ أميركا المحلية وتديم هيمنتها، كما هو الحال في منطقتنا منذ نصف قرن لكنّ الخطورة اليوم هي أنّ «القرن الأميركي الجديد» يَعِدُنا بطيشٍ يَحْلم فيه المحافظون الجُدد بإلغاءِ دولٍ بأكملها، وباستبدالها بكياناتٍ حسب مزاجهم وأحلامِهم الإمبراطورية، وبسوقٍ شاسعةٍ تلتهم ما تبقّى من موارد المنطقة وتستعبد شعوبَها بأرخص ما يمكن.

ولمّا كانت الحربُ أميركيةً ـ إسرائيليةً ولها أبعادُها وتبعاتُها التي تتعدّى لبنانَ وجنوبَه، فإنّ التصدّي لها من قِبل حزب اللّه يجب أن يُنظر إليه أيضًا من منظار مقاومة مشروع الإمبراطورية الأميركية. فليس من الصعب اليوم أن يدرك المرءُ أنّ المعركة ضدّ هذه الإمبراطورية هي معركةُ الكوكب بأكمله، الذي تُستنزف مواردُه البشريةُ والطبيعية بسبب هيمنتها التي تسير بالعالم نحو الهاوية. وهكذا فإنّ خنادق المواجهة التي وقف فيها مقاتلو حزب اللّه هي امتداداتٌ لخنادقَ شتّى في مواجهاتٍ شتّى في كلِّ مكانٍ من الأرض مع الإمبراطورية ومشاريعها وتمظهراتها الحربائية لذلك وقف الملايينُ في الخندق الرمزي الشاسع تضامنًا مع المقاومة ومع الحقّ في الدفاع عن النفس (الذي تحتكره إسرائيلُ وتشوِّه معناه منذ تأسيسها) وتضامنًا مع المدنيين الذين استهدفتهم إسرائيلُ ببربرية قَرْوَسطية

## الخزي والابتذال

من المخزي حقّاً أن يتردّدَ بعضُ المثقفين العرب العلمانيين في الوقوف في الخندق ذاته، مهما كان الاختلافُ عميقًا مع الإطار الإيديولوجي لحزب اللّه. بل لا يتردّد الكثيرُ من هؤلاء العلمانيين في انتقاد التطرُّف والإقصائية، لكنّهم يمارسونهما في الوقت ذاته ضدّ الآخر السياسي!

كما تمّ ابتذالُ مقولة «المقاومة» في السنين الأخيرة باستسهالِ إطلاقِها على أفعالٍ بل جرائمَ وحشيةٍ تُرتكب ضدّ مَنْ يُفترض

دجوني باربِرْ

بنات في سلعا يشاركن في نشاطات مع «حملة المقاومة المدنية»

أن تحرِّرهم هذه المقاومةُ والعراق ومذابحُه خيرُ مثال على ذلك إنّ إعادة الرأسمال الرمزي لـ «المقاومة،» أو إعادةَ تأكيدِ معناها الذي كان حزبُ اللّه أساسًا متميِّزًا في ترسيخه منذ سنوات طويلة، تصحيحٌ غايةٌ في الأهمية.

## ميِّزات حزب اللّه

لقد نجحتْ إسرائيل منذ عقود في ترسيخ أسطورة القوة الخارقة و«الجيش الذي لا يُقْهر» ـ وهي أسلحةٌ ماضيةٌ في ترسانتها الرمزية وفي تفوُّقها الشامل لا تقلّ خطورةً عن الأسلحة الفتّاكة. ولئن تصدّعتْ هذه الأسطورةُ غيرَ مرةٍ بشجاعة الفلسطينيين وبتحرير الجنوب اللبناني، فإنّ ذكاءَ حزب اللّه وبسالةَ مقاتليه وصمودَهم الخرافي حطّمتْ تلك الأسطورةَ وأدخلت المؤسسةَ العسكريةَ الإسرائيلية في حالةِ ارتباكٍ وترنّحٍ لا سابقَ لها وفي دوّامةٍ ستطول وستطاول أبعادُها المجتمعَ الإسرائيليَّ بأكمله

أما الذاكرة الجمعية العربية التي اعتادتِ الهزيمة، فقد أدركتْ أنّ الانتصار على الآلة العسكرية الإسرائيلية، المدعومة والمجهّزة أميركيّاً، هو أمرٌ **يمكن** تحقيقُه بعدما كان يبدو محالاً كما أنّ الخطاب الذي استخدمتْه أثناء المواجهة قيادةُ حزب اللّه، ممثّلةً بالسيد حسن نصر اللّه، كان متميِّزًا بهدوئه وواقعيّته وابتعاده عن الخطابة المبالغ بها. ما كان أحوجَ الشعوب العربية إلى سياسيٍّ وقائدٍ يحترم عقولَ المواطنين وينفِّذ ما يَعِدُهم به ويرسم أفقًا واقعيّاً ـ وهو ما فعله السيّد حسن نصر اللّه بامتياز.

## المقاومة: تفاؤل الإرادة

بالإمكان، إذًا، عرقلةُ المشروع الأميركي الإسرائيلي ومقاومتُه المطلوب هو أن تتوفّر الرؤيةُ والمعرفةُ اللازمة بتضاريس أرض المعركة، بكلّ ما تعنيه كلمةُ «تضاريس.» وهذا هو أثمن ما يُمْكن استخلاصُه من دروس الحرب الأخيرة لكنْ ليس من الحكمة الإفراطُ في التفاؤل: فشراسةُ الإمبراطورية وشراسةُ وكيلها المحلي لا حدودَ لهما، ولا حدود أيضًا للخنادق التي يمكن أن تُحفر أمام مشاريعها. وهنا مَنْ يقف وهناك من يعود ويبني من جديد. ولعلّ ما يجب أن نتسلّح به، في النهاية، هو ما نُسِب إلى غرامشي عن «تشاؤمِ الفكر وتفاؤلِ الإرادة »

**نيويورك**

**د. سنان أنطون**

شاعر وروائي عراقي أستاذ الأدب العربي في جامعة نيويورك.

# من ثقافة الهزيمة إلى ثقافة الثقة بالنفس

زياد حافظ

## النشوة والهزيمة

يعيش الإنسانُ العربي بعد ١٢ تموز، بالتحديد، نشوةً غريبةً عجيبةً لم يألفْها منذ أكثر من ستين سنة، بل ربما إلى فترةٍ تعود إلى معركة عين جالوت التي أوقفت الهجمةَ المغولية، أو إلى معركة حطّين التي شهدتْ هزيمةَ «الفرنك.» والمثقف العربي شاهدٌ على (وأحيانًا مشاركٌ في) الهزائم المتتالية التي مُنيتْ بها أنظمةٌ نَخَرها الفسادُ حتى أصبح هاجسُها الأوحد هو الحفاظ على ذاتها. وهذه الأنظمة أفرزتْ ثقافةً خطيرة، هي ثقافة الهزيمة، وهدفُها تكبيلُ طاقات الشعوب العربية، وإخضاعُها إلى «قيم» الريع والفساد بوصفها «تراثًا» لا يُمْكن التخلّي عنه تحت طائلة «التغريب» و«استيراد الثقافات الخارجية.»

تتراوح العناوينُ المتعددة لثقافة الهزيمة بين «الواقعية» و«العقلانية» و«الحداثة» و«الديموقراطية» و«الليبرالية» ـ وجميعُها تلفيقٌ أُلحِقَ بثقافة النظام القائم، يردِّدها أربابُها كالببغاء، وكانت وماتزال تَهْدف إلى إحباط (بل وإلى شيطنة) كافة المجهودات التي تريد أن تنقل المجتمعاتِ العربيةَ من واقع الاحتلال إلى واقع التحرير، ومن واقع الشرذمة إلى واقع الوحدة، ومن واقع الاستبداد إلى واقع الحرية، ومن واقع التبعية السياسية والاقتصادية إلى واقع المساءلة والاستقلال الذاتي، ومن واقع الركود الثقافي إلى واقع التجدُّد المبنيّ على التراث، ومن واقع التخلّف العامّ إلى واقع النهضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحال أنّ كلّ هذه الأهداف التي عبّرتْ عنها، عبر العقود الستة الماضية، كافةُ حركات التحرّر العربية والتيارات السياسية الوحدوية قد كان لها بالمرصاد التحالفُ الجهنميُّ بين الاستعمار والإمبريالية من جهة والصهيونية وقوى الرجعية والقمع العربية من جهة ثانية.

هذه الثقافة التعيسة روّجتْها نخبةٌ من المثقفين العرب، واللبنانيين بشكل خاص، سواء لاعتباراتٍ معيشيةٍ أو بسبب قناعتهم بالهزيمة ـ علمًا أنّ الهزيمة أصابت الأنظمةَ أساسًا، لا الشعوب. وهذه النخب مسؤولةٌ بشكل مباشر عن إحباط عزيمة الشعوب في التمرّد على الواقع (المفروض بكافة أشكال القمع) وأوصلتْها إلى أفقٍ مسدودٍ في إمكانية تغيير النظام السائد. والحقّ أنّ خطاب هذه النخب لا يتجاوز السعيَ إلى نيل رضى النخب الغربية، دون الالتفات إلى مصالح الشعوب العربية. كما أنّ النخب الانهزامية التي ارتدت لباسَ «المعارضة» باشرتْ بترويج ثقافة الالتحاق بقوةِ المستعمرِ الجديد ـ القديم من أجل تغيير الواقع وفقًا لمصالحها الضيقة والمتقاطعة مع مصالح الإمبريالية الجديدة. هكذا كان النموذجُ العراقي، وهكذا هو النموذج الذي تمثِّله بعضُ رموز قوى ١٤ آذار في لبنان.

## أبعاد المشروع النهضوي

ولكنْ، في المقابل كانت وما تزال نخبٌ عربيةٌ ولبنانيةٌ تقاوم ثقافةَ الهزيمة، وتروِّج، لمشروع عربي نهضوي وحدوي جديد، وتتمسّك بخطابٍ قومي لا يتناقض مع متطلّبات الشأن القُطْري. هذه النخب الملقَّبة بـ «أصحاب اللغة الخشبية» هي صاحبةُ تاريخ نضاليٍّ عريق يعود إلى أيام النهضة العربية والإسلامية في القرنِ التاسع عشر، مرورًا بحقبة التحرر العربي والمدّ القومي في الخمسينات والستينات. أما حقبة السبعينات فشَهدتْ صعودَ ما يُمْكن تسميتُه بـ «الثورة المضادّة» عبر الإفساد المادي التي مارستْه الأنظمةُ النفطية وترويج ثقافة الهزيمة. ولكنّ النخب التي لم تَرضخْ للابتزاز المادي والترهيب باشرتْ بمراجعة خطابها السياسي والثقافي في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، عبر بلورة المشروع العربي النهضوي الوحدوي بأبعاده الستة، وهي:

١ ـ الديمقراطية في مواجهة الاستبداد.

٢ ـ العدالة الاجتماعية في مواجهة الاستغلال

٣ ـ الوحدة العربية في مواجهة التجزئة

٤ ـ الاستقلال في مواجهة الهيمنة الأجنبية والمشروع الصهيوني

٥ ـ التنمية المستقلة في مواجهة النموّ المشوَّه والتبعية

٦ ـ الأصالة الحضارية في مواجهة التغريب والمسخ الحضاريْن

كيرستن شايد

منزل بيت بزيع حيث حصلت المجزرة في زبقين

كان ذلك المشروعُ النهضوي، وما زال، وراء دعم النخب المناهضة لثقافة الهزيمة لكافة حركات التحرر العربي في فلسطين والعراق ولبنان. من هذه الزاوية نَفْهم مدى ترابُطِ تلك النخب مع إنجازات المقاومة في كافة الأقطار العربية التي تشْهد صراعًا مكشوفًا ضدّ المشروع الأميركي ـ الصهيوني المشترك. ومن تلك الزاوية نَفْهم إصرارَ الإدارة الأميركية وإسرائيل وأعوانِهما، من أنظمة ونخب عربية ودولية مرتبطة بها، على القضاء على أيّ شكل من الثقافة المقاومة أو الممانعة للمشاريع المشبوهة والمناقضة لمصالح شعوب المنطقة.

صحيح أنّ معظم حركات المقاومة هي حالياً من منبتٍ دينيّ. إلاّ أنّ الخطابَ السياسي لتلك الحركات هو قوميٌّ بامتياز؛ ولو لم يكن كذلك لما استطاعت استقطابَ قواعد شعبية واسعة. فالحركات الإسلامية، كالإخوان المسلمين في مصر أو في سوريا أو في العراق، ليست كحركتيْ «حماس» أو «الجهاد الإسلامي» في فلسطين المحتلة. والكلّ يَذْكر كيف كان الخطابُ السياسي الإسلامي البحت لحزب الله في مطلع الثمانينيات، وكيف لم يستطع أن «يقلِّع» بعد أن تبنّى حزبُ الله مشروعَ تحرير الجنوب، وصاغ خطابَه السياسي بالمبادئ الوطنية والقومية، فاستطاع عندئذ أن يمثِّل مشروعًا تحرريّاً وطنيّاً وقوميّاً يلتقي مع كافة أطياف المجتمع اللبناني والعربي.

إنّ التلاقي بين التيارين الإسلامي والقومي يتمثَّل في الخطاب السياسي المقاوم للمشروع الأميركي ـ الصهيوني المشترك وهذا التلاقي يشكِّل منعطفًا إستراتيجيّاً هامّاً في توحيد القوى المناهضة لقوى الهيمنة والتوسع. كما لا بدّ من الاعترافِ بأنّ ذلك التلاقي لا يلغي خصوصياتِ التياريْن، ولا حتى الملفّاتِ العالقةَ التي حالت دون التوافق في حقبة التناحر المدمِّر بينهما. فالمرحلة الحالية هي مرحلةُ التصدِّي للمشروع الأميركي ـ الصهيوني، لا مرحلةُ الصراع على السلطة. كما أنّ المرحلة الحالية تقضي باستمرارِ الحوار حول كافة القضايا المرحلية والإستراتيجية ضمن إطار «المؤتمر القومي العربي» و«المؤتمر القومي ـ الإسلامي »

والواقع أنّ الخطاب السياسي المقاوم مرشَّح للانتشار لبنانيّاً وعربيّاً بعد الإنجاز الذي حققته المقاومةُ في لبنان. لكنّ ذلك يتطلب مجهودًا كبيرًا من المثقفين الملتزمين بمقاومة المشروع الأميركي ـ الصهيوني المشترك. فالهدف الإستراتيجي لذلك المشروع، وهو القضاء على ثقافة المقاومة وترسيخُ ثقافة

# من ثقافة الهزيمة إلى ثقافة الثقة بالنفس

الهزيمة، مُنِيَ بهزيمةٍ نكراء بسبب صمود المقاومة أمام العدوان الإسرائيلي. ولكنّ ذلك لا يعني نهايةَ الحرب المفتوحة، ولا نهاية المعركة. فما هي، إذًا، المهامُّ الواقعة على عاتق المثقفين؟

## مهمّات المرحلة ثقافيّاً

أعتقد أنّ المهمة الأولى هي محاصرةُ الخطاب الانهزامي، عبر التذكير مرارًا وتكرارًا بإمكانية المقاومة الناجحة. ويتمثّل ذلك في إبراز فشل الطروحات القُطْرية الضيقة والخيارات الإستراتيجية التي رافقتْها، وفي الترويج للخطاب القومي في القُطْر، كما على مستوى الأمة. ثانيًا، لا بدّ من طرح مشروعٍ ثقافي بديلٍ للمشروع الاستسلامي، منبثق من المشروع العربي النهضوي الوحدوي المذكور سابقًا. فكما ظَهرتْ نهضةٌ ثقافيةٌ في الخمسينات والستينات في ذروة المدّ القومي فإنّه لا بدّ من ترجمة المشروع البديل إلى إنجازات ثقافية تَعْكس مزاجَ الشعب المشدود إليه. ثالثًا، لا بدّ من إنشاء مرجعية فكرية سياسية هدفُها حشدُ الطاقات الفكرية وتفعيلُها لمعالجة مختلف القضايا الناتجة عن فعل المقاومة وعن طرح المشروع البديل. وهذه المرجعية لا بدّ من أن تصبح القوةَ الضاغطةَ على مسلكية النخب المثقفة العاملة وعلى إنتاجهم، ولاسيّما بعد الانتقال من العمل الفردي إلى العمل المؤسسي، خاصةً بين المثقفين، الأمرُ الذي يَفْرض إنشاءَ معاهد ومراكزِ أبحاث تحدِّد الأولويات في مختلف المراحل.

أما على الصعيد اللبناني فبالإضافة إلى ما سبق فإنّه لا بدّ من معالجة الوضع الداخلي، وخاصةً التركيبة الداخلية الطائفية المستندة إلى «ثقافة» الريْع والفساد المتناقضة مع مقتضيات الدولة الحديثة القوية. إنّ النظام الطائفي يولّد التجزئةَ والتفككَ الاجتماعي، ويعطّل تحقيقَ اقتصادٍ منتج تتمّ من خلاله المحاسبةُ والمساءلةُ السياسية والاقتصادية والاجتماعية. والاقتصاد الريعي السائد يعوّق، بل يَمْنع، تحقيقَ الديموقراطية بسبب تلازمه مع الفساد المتفشّي، ويكرّس التبعيةَ للخارج، ويُضعف اللحمةَ الوطنية التي تتعرّض إلى هزّات دورية كلما تأزّمت الحالةُ في المنطقة. وكلاهما، النظام الطائفي والاقتصاد الريعي، يمنعان قيامَ الدولة التي تحمي الوطنَ والمواطنَ وتؤمّن له التنمية والرفاهية. لذلك أعتقد أنّ دعم المقاومة في لبنان وثقافةِ المقاومة بشكلٍ عام مرتبطٌ عضويّاً بإعادة بناء المجتمع اللبناني على قاعدة اقتصادٍ منتج ومتوازنٍ قطاعيّاً وجغرافيّاً ووفقًا لمؤسسات تعتمد المساءلة والمحاسبة.

إنّ مهمة المثقف المقاوم هي إعادةُ صياغة طبيعة الدولة اللبنانية - من دولة «الحاجز» إلى دولةٍ قائمةٍ بحدّ ذاتها تستطيع تسويقَ رغباتها وتَرْفض الإملاءاتِ عليها.

**د. زياد حافظ**

كاتب وباحث لبناني عربي مقيم في الولايات المتحدة

# حرب الخاسرين: هزيمة إسرائيلية وثلاث هزائم لبنانية

جاد الكريم الجباعي

## تقديم: انتصر حزبُ اللّه وانهزم لبنان!

توقّفت الأعمالُ الحربية، ولكنّ «المسألة اللبنانية» ـ بما هي مظهرٌ من مظاهر «المسألة الشرقية الجديدة» ـ لم تنتهِ فصولاً بعد. هُزمتْ إسرائيلُ هزيمةً مذلّة فتَحَتْ بابَ النقد والمحاسبة اللذيْن قد يدحرجان رؤوسًا كبيرةً، إنْ لم يوديا بالحكومة الإسرائيلية؛ وانتصر حزبُ اللّه «انتصارًا تاريخيّاً واستراتيجيّاً» (بحسب تعبير أمينه العامّ)، هو بالأحرى حربٌ استباقيةٌ على كلّ نقدٍ أو محاسبة، على مألوف الانتصارات العربية منذ عام ١٩٦٧. هُزمتْ إسرائيلُ هزيمةً واحدة ذاتَ أبعاد عسكرية وسياسية وأخلاقية؛ لكنّ لبنان تجرّع ثلاثَ هزائم دفعةً واحدة: هزيمة مشروع الوطنية اللبنانية، وهزيمة مشروع الدولة، وهزيمة العقلانية وما يتّصل بها من إنسية وعلمانية وديموقراطية... فضلاً عن الخسائر البشرية والمادية وعن شحوب الأمل بـ «الاستقرار السياسي.»

انتصر حزبُ اللّه بمعزل عن الشرط اللبناني، وانهزم لبنان الذي يبدو كلُّ شيء فيه هشّاً وقابلاً للانكسار. إسرائيل قتلت المدنيين العزّل، ودمّرت المرافقَ والمساكنَ والبنى التحتية بوحشية لا نظيرَ لها في أيامنا، لكنّها لم تَهزمْ لبنان. مَنْ هَزَمَ لبنانَ، هذه المرةَ، هو حزبُ الله، كما هزمتْه الطائفيةُ المسلّحة وغيرُ المسلّحة من قبل! عواملُ الهزيمة لا تزال داخليةً بصورة أساسية، في لبنان وفي غير لبنان. أرجو أن يكون هذا الرأيُ خطأً محضًا وضلالاً خالصًا، وألاّ يكونَ المستقبلُ، مستقبلُنا جميعًا، محكومًا بهذه الحيثية: حيثيةِ انتصار الجزءِ وهزيمةِ الكلّ. وهذه من أهمّ حيثيات المسألة الشرقية الجديدة.

لم يَأْسَ أحدٌ من «المنتصرين» لآلاف القتلى والجرحى ومئات آلاف النازحين، للمجازر المروِّعة والمآسي الإنسانية التي يَشْعر كلُّ ذي قلب وعقل وضمير أنّه مشمولٌ بها ومعنيٌّ بها ومسؤولٌ عنها. ولم يشعرْ أحد منهم أنّ الدمار الذي أصاب لبنان هو خسارةٌ شخصيةٌ مفجعةٌ لكلّ لبناني، ولكلّ مَنْ يحب لبنان. ولم يأبهْ أيٌّ منهم لكونِ جميع اللبنانيين باتوا رهائنَ لدى حزب اللّه ودرعًا بشريةً له، بل انتشَوْا بمقولة «استحالة هزيمة حزب الله وتصفيته ونزع سلاحه» ـ وهي مقولةٌ صحيحةٌ واقعيّاً، لأنّ حزب اللّه يستمدّ قوتَه البشرية والمعنوية من نبع لا يَنْضب، ولأنّه يحتمي بالشعب ولا يحميه، ويتحصّن به ولا يحصّنه، فليس بوسع أحد أن يقضي عليه من دون أن يجفّف منابعَه ويدمّرَ حماياته وتحصيناتِه. وقد أصاب مَنْ قال إنّ «حزب الله هو الشعب» لا يُمْكن القضاءُ عليه، وهو قولٌ ذو دلالة مجازية وأخلاقية رفيعة. ذلكم هو عنصرُ قوةٍ استثنائيٌّ لحزب الله، وعنصرُ ضعفٍ استثنائيٌّ للبنان، في الحرب والسلم، بخلافِ ما كانت عليه الحالُ أيامَ المقاومة من أجل التحرير قبل عام ٢٠٠٠، يومَ كان ثمة توافقٌ بين جميع الأطراف اللبنانية على مشروعية المقاومة ومشروعية السلاح. ولعلّ زهوَ حزب الله بسلاحه وبانتصاره الذي لم يُهْدِه قطّ إلى لبنان، أيْ إلى مشروع الدولة الوطنية وجنينِ الوطنية اللبنانية التي برهنت المرة تلو المرّة، ولا سيما في أوقات الشدّة، أنّ العدوانَ على لبنان مكلفٌ جدّاً وأنّ قوة لبنان في وحدته الوطنية. ولعلّ زهوَه بمصادر دعمه وإسناده وتمويله، وبتحالفاته السياسية، دَفَعَه إلى ممارسة نوع من غطرسة القوة منعتْه من الاستماع إلى مَنْ يُفترض أنّهم شركاؤه في التحرير، أو إلى مَنْ هم شركاؤه في الوطن، على افتراض أنّهم لم يكونوا شركاء في التحرير، فوَضَعَ سلاحَه وانتصارَه في المعادلة السياسية الداخلية وسيلةً لاختطاف السيادة الوطنية، وراح يتصرّف على أنّه القوةُ الوطنيةُ الوحيدة في لبنان، لها وحدَها امتيازُ التحرير وامتيازُ المقاومة وامتيازُ الدفاع عن الوطن، لا باسم اللبنانيين، شاؤوا أم أبوْا، فقط، بل باسم الأمة العربية والأمة الإسلامية اللتيْن ينوب حزبُ اللّه عنهما أيضًا، كما ناب حزبُ البعث العربي الاشتراكي عن الشعبين السوري والعراقي وعن الأمتيْن العربية والإسلامية من قبل. وليس من عجب أن «يتحزبل» حزبُ البعث العربي الاشتراكي، أيْ أن يتماهى بحزب اللّه، ويتأسلم، بعد أن نَفَدَ وقودُه القومي، وخوى وفاضُه إلاّ من الشعارات. وليس من عجب أيضًا أن يتحزبل ويتأسلم معظمُ القوميين الأشاوس من المحيط إلى الخليج، حتى المسيحيون منهم، بعد أن أفلسوا

# حرب الخاسرين: هزيمة إسرائيلية وثلاث هزائم لبنانية

فكرياً وسياسياً وأخلاقياً جرّاء تذيُّلهم لأنظمة التسلط والاستبداد.

## قضايا ثلاث

أثارت الحربُ الإسرائيلية على لبنان، التي أَطلق شرارتَها حزبُ اللّه، جدلاً واسعًا في جميع الأوساط السياسية والثقافية والشعبية وأَسفر هذا الجدلُ حتى اليوم عن جملة من القضايا التي يبدو أنّ الفكر السياسي العربي لا يزال يتجاهلها، أو لا تزال تقع عنده في باب اللامفكَّرِ فيه والممنوعِ التفكير فيه أبرز هذه القضايا وأهمُّها، في نظر الكاتب، ثلاث:

**أ ـ القضية الأولى هي قضية الوطنية أو القومية**، وهما عندي بمعنًى واحد من وجهة نظر الراهنية التاريخية، أيْ تحوُّل الممكنِ إلى واقع، والموجودِ بالقوة إلى موجودٍ بالفعل، إذ يغدو المستقبلُ هو ممكنات الواقع فحسب. فسيْلُ الأحاديث والكتابات عن هذه الحرب، خاصةً في سورية، يشي أنّ الوطنية لا تزال مجردَ حكم قيمةٍ أخلاقيّ يَخْضع لمعايير ذاتية خالصة: فكلّ مَنْ يساند حزبَ اللّه ويتبنّى قضيته ويرى رؤيته وطنيٌّ، وكلُّ مَنْ عدا هؤلاء يصنَّفون في الجانب الآخر النقيض وتتفاوت الأحكامُ عليهم بين الجهل والعمالة للولايات المتحدة وإسرائيل. ولا نريد أن نتوقف عند هذه القسمة الثنوية، المانوية، التي تقسم العالمَ عموديّاً إلى فسطاطيْن، فسطاطِ الخير وفسطاطِ الشرّ، التي لا تزال السمةَ الأبرزَ للوعي الاجتماعي بوجهٍ عامّ والوعي السياسي بوجه خاصّ. كما لا نريد أن نتوقّف عند المنطق الصوري الساذج الذي لا يستطيع أن يتصور أن تكون معارضًا له ومعاديًا لعدوّه في الوقت نفسه. بل نكتفي بالإشارة إلى تلك القسمة لتعلقها برؤية الأفراد والجماعات لماهيّة الوطنية أو القومية. ويمكن صوغُ هذه القضية في عبارةٍ لا تخلو من استفزاز للمشاعر تصف هذه الحربَ بأنّها حربٌ وطنيةٌ إسرائيلية مقابلَ حرب فئوية لبنانية، سواء في ميدان القتال أو في ميدان الدبلوماسية، مع التنوية برؤية الرئيس فؤاد السنيورة ومواقفه ومناقبه التي تبشّر بمستقبلٍ وطنيٍّ للبنان لا يقوم إلاّ على مثل هذه الرؤية وهذه المواقف وهذه المناقب. وأمثال الرئيس فؤاد السنيورة كُثُرٌ جدّاً في لبنان، من شماليِّه إلى جنوبيِّه، ومن بقاعه وجبله إلى بحره، ولكنّهم ليسوا قوة سياسية بعد. والأملُ معقودٌ على أن يصيروا كذلك.

الوطنية صفةُ الدولة الحديثة وفضيلتُها وماهيتُها وضمانةُ صيرورتها دولةً ديموقراطية وهي، بهذا التحديد، موئلُ وطنيةِ الأفراد، الذين يستمدّ كلٌّ منهم وطنيتَه من عضويته فيها، ومشاركتِه في حياتها العامة، وإمكانيةِ مشاركته في إحدى مؤسساتها التشريعية أو التنفيذية أو القضائية بحُكْم مؤهّلاته لا بحُكْم انتمائه إلى عشيرةٍ أو طائفةٍ أو جماعةٍ عرقية أو حزبٍ حاكم، أو بحكم ولائه لهذه القوة أو تلك، ومن ثم فهي موئلُ وطنيةِ الجماعات أو الطبقات الاجتماعية والأحزاب السياسية (التي يُفترض أنّها تعبِّر عن هذه الطبقات) لا عن المذاهب والطوائف الدينية والجماعات العرقية

الانتماء إلى الدولة الوطنية الحديثة، لا إلى العشيرة أو المذهب أو الطائفة أو الجماعة العرقية، هو المعيار الموضوعي الرئيس للوطنية. ولا تتجلّى الوطنيةُ في شيء أكثرَ ممّا تتجلّى في تربية النفوس على محبة الدولةِ الوطنية واحترام قوانينها والدفاع عنها وحمايةِ سيادتها وحريتها واستقلالَها ومن هنا يمكنَ القول إنّ الروابط الوطنية لا تزال هشّةً قياسًا بالروابط ما قبل الوطنية، لا في لبنان فقط، بل في سورية والعراق وغيرهما من البلدان العربية أيضًا. وإذ لا يستطيع أحد من مواطني الدولة المعنية أن ينتمي إلى دولته الوطنية أكثرَ من الآخرين، فإنّ الوطنية بهذا المعنى تَحْمل مبدأَ المساواةِ في المواطنة، وتؤكّد أنّها صفة لا تَقْبل التفاوتَ والتفاضل

الوطنية ليست حكمَ قيمةٍ يُطْلَق على هذا الشخص أو ذاك أو على هذه الفئة أو تلك أو على هذا الحزب أو ذاك، على نحوٍ يشي بنزعه عن الآخرين، «الأغيار،» فتغدو مثلَها مثلَ الطائفية عاملَ تنابذٍ وشقاق؛ بل هي حكم واقع يَشْمل جميعَ مواطني الدولة، باستثناءِ مَنْ يَحْكم عليه قضاءٌ عادلٌ ونزيهٌ بخلافِ ذلك

غابرييلا بولبسوڤا

أضرار في الطريق إلى زبقين

ذلك لأنّها في الأساس جملةٌ من العلاقات الحديثة، تعيِّن جملةً من الحقوق والالتزامات، بحيث تغدو حقوقُ الأفراد هي واجبات الدولة، وحقوقُ الأقلية هي واجبات الأكثرية، وحقوقُ النساء هي واجبات الرجال، وهكذا. هذا من دون أن نغفل الجانبَ الوجداني، الذاتي، للوطنية، حينما يرتكز على المعايير الموضوعية التي أشرنا إليها، إذ من دون هذه المعايير تتحوّل الوطنية التي تبنى على الاقتناع الذاتي فقط إلى وطنية خاوية إلا من المشاعر والحدوس والأوهام، أو إلى هوية ميتة، أو إلى مذهبية جديدة لا تقل خطرًا على وحدة النسيج الوطني من المذهبية والطائفية

فإذا كانت كلمةُ «لبناني» تعادل، أو يفترض أن تعادل في دلالتها الواقعية، كلمةَ «وطني،» فهل حزبُ اللّه حزبٌ لبناني، أمْ هو حزب يمثِّل طائفةً من طوائف لبنان، شأنه في ذلك شأنَ أحزاب الطوائف الأخرى؟ الإجابة عن السؤال ليست قضية ثانوية، ولا تقبل المداورة والمسايرة، لأنّها تتصل بمعنى الوطنية اللبنانية، وتشير إلى أنّ أبناء الطوائف اللبنانية لا يزالون لبنانيين بالقوة، شأنهم في ذلك شأن السوريين، يحتاجون إلى رافعة سياسية ليصيروا لبنانيين بالفعل وهذه الرافعة هي الدولة الوطنية الحديثة. ذلك أنّ الطائفية والوطنية ضدّان لا يجتمعان معًا، والوطنية والاستبداد ضدّان أيضًا لا يجتمعان معًا. يجب أن نعيد للكلمات معناها، وإلاّ فَقَدَ الشعبُ حريتَه. ذلكم واحد من أهمّ جوانب المسألة اللبنانية، أي الجانب الوطني الديموقراطي فماذا تعني الطائفية إنْ لم تكن إنتاجَ العلاقات ما قبل الوطنية في الحقل السياسي الذي يُفترض أنّه حقلٌ وطنيٌّ عامّ؟ وعليه، لا يحقّ للطائفية أن تتكلم لغةً وطنية، ولا يليق بالوطنية أن تتكلم لغةً طائفية، وحينما يَحْدث هذا أو ذاك تصير الوطنيةُ حرفًا ميتًا

هل حزبُ الله دولةٌ داخلَ الدولة؟

لا يسع مَنْ يعرف لبنانَ بوجه عامّ، ومَنْ يَعْرف حزبَ اللّه بوجه خاصّ، إلاّ أنْ يُثْبت هذه الحقيقة ويؤكِّدها أجل إنّه دولةٌ داخل الدولة، بالتعبير الدارج. بل إنّ «الدولة اللبنانية» هي مجموعٌ حسابيٌّ لدولٍ داخل «الدولة» تتفاوت قوةً ونفوذًا، دولٍ كان لكلٍّ منها جيشُها في وقت قريب، كما لحزب اللّه اليومَ جيشُه، إذا نظرنا إلى الجيش على أنّه عنصر أساسي من عناصر الدولة. وهذا ما يَدْعو إلى فحص مفهوم «الدولة» لدى القوى اللبنانية الفاعلة، وفحصِ مفهومِ «الوطنية» بالتلازم الضروري. أليس

# حرب الخاسرين: هزيمة إسرائيلية وثلاث هزائم لبنانية

لافتًا في هذا الصّدد أنّ جيشَ دولة حزب اللّه أقوى من الجيش اللبناني، الذي يُفترض أنّه الجيشُ الوطني الوحيد في لبنان، عسكريّاً وسياسيّاً وأخلاقيّاً، لأنّ الجيش اللبناني محكومٌ بموازين القوى وبالتجاذبات الطائفية التي تَجرّ عليه غيرَ قليل من الضعف والفساد؟ فحين يؤكّد حزبُ اللّه في كلّ مناسبة أنّ مهمته هي حمايةُ لبنان والدفاعُ عنه، وأنّ سلاحه هو ضمانةُ ذلك، فإنّما يؤكّد هو نفسُه أنّه دولةٌ موازية (اجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً وعسكريّاً) إنْ لم نقل إنّه بديلٌ عن الدولة، وأنّ حماية لبنان فرضُ كفايةٍ إذا قام به حزبُ اللّه سَقَطَ عن بقية اللبنانيين. ويبدو أنّ حزبَ اللّه يسعى إلى أن يظلّ الأمرُ كذلك حتى تقوم في لبنان «دولةٌ قويةٌ ومقاومةٌ وعادلة،» أيْ حتى تقوم في لبنان دولةٌ شرعيةٌ فاضلة مسلّحة، ربما تكون شرعيتُها الوحيدة وفضيلتُها الوحيدة هي السلاح. فحزبُ اللّه من هذه الزاوية يعيد إنتاجَ حمَّى الوَلَع بالسلاح، التي أصابتْ معظمَ «فصائل حركة التحرر القومي» فَي الماضي القريب

**ب ـ القضية الثانية إذًا هي قضية الدولة الوطنية الحديثة** التي لا تزال في كلّ من لبنان وسورية والعراق على جدول أعمال «شعوب» هذه البلدان التي ليست أوطانًا بعد وسكانُها ليسوا شعوبًا بعد، بدلالة ظاهرتَي الهجرة والرعوية (من الرعيّة). وكاتب هذه السطور يعتقد أنّ شروطَ حزب اللّه على الدولة المنشودة في لبنان كلامُ حقٍّ يراد به باطل. والباطل هنا هو الإسهامُ في إعاقة مشروع الدولة الممكنة، والتعلُّقُ بمثالِ الدولة الكاملة أو المتخيّلة؛ وهو في حالة حزب اللّه إسهامٌ مسلَّح وماليّ، أي إعاقةٌ بقوة السلاح والمال، وهما غيرُ لبنانيّي المصدر، الأمرُ الذي يَضَعُنا أمام مظهرٍ آخر من مظاهر المسألة الشرقية الجديدة ـ إذ العربُ هذه المرّة هم «الرجل المريض،» وإذ القوى المحليةُ لا تزال استطالاتٍ لقوى خارجية.

لا نأتي بجديد حينما نقول إنّ الطائفية نقيضُ الدولة الوطنية، وإنّ الطوائف اللبنانية كانت ولا تزال تتقاسم السلطةَ السياسيةَ بنسب معلومة. ولكنّ اللافت اليوم في سلوك حزب اللّه هو تقاسُمُ السيادة، التي يفترض أنّها سيادةُ الشعب كلّه، بل محاولةُ احتكارها. وهذا الاحتكار يتمّ أ) بالإيجاب، أيْ باحتكارِ قرارِ الحرب والسلم، واحتكارِ حقّ التفاوض وحقّ وضعِ الشروط والمعايير ـ وكلُّها من أعمال السيادة. ويتمّ أيضًا ب) بالسلب، أيْ بالاستنكاف والتعطيل، بحجّة كون حزب اللّه القوةَ الوحيدةَ الراغبةَ في التصدّي لإسرائيل والقادرةَ على ذلك، أيْ بحجّة كونه القوةَ الوطنيةَ الوحيدة. هذا من دون أن يدري حزبُ اللّه (ولعلّه يدري) أنّه يبني رؤيَته للوطنية على عاملٍ خارجي (نعني التصدّي لإسرائيل عسكريّاً)، لا على عوامل داخلية أولاً، وعلى الاقتناع الذاتي، لا على الحقائق الواقعية ثانيًا، وهو متمسك بذلك ومصرٌّ عليه «شاء اللبنانيون (الآخرون) أم أبوا.» إنّ أخطرَ ما يمكن أن يصيبَ مجتمعًا ما أو دولةً ما هو إقامةُ مفهوم «الوطنية» على الاقتناع الذاتي، ومن ثم إقامةُ مفهوم «الحقّ» على الاقتناع الذاتي أيضًا، الأمرُ الذي يعني تخوينَ الآخر المخالِف والمختلفِ وتكفيرَه واستباحةَ حقوقه وهدرَ دمه. وذلك لا ينتج سوى الاستبداد وخرابِ العمران وضياعِ الأوطان. ومن ثم، فإنّ هزيمة مشروع الدولة، الذي أشرنا إليه، هي هزيمةُ الحرية الموضوعية (التي تجسّدها الدولةُ الوطنيةُ الحديثة، دولةُ الحقّ والقانون، مفهوميّاً وواقعيّاً) أمام الحرية الذاتية المنفلتة من كلّ قيدٍ اجتماعي ومن كلّ قيمةٍ وطنيةٍ ومن كلّ عقلٍ وعقال؛ وهي هزيمتها أمام الاستبداد الديني والاستبداد السياسي، اللذيْن ليسا سوى هذه الحرية الذاتية محمولةً إلى المجال السياسي

**ج ـ القضية الثالثة هي قضية العقلانية** وما يتصل بها من مفاهيم وقيم إنسانية ووطنية وديموقراطية، ومن مناهج حديثة في النظر والعمل. فقد كشفتْ هذه الحربُ عن القاع الغوغائي، لا في وعي الجماهير فحسب، بل في وعي القسم الأكبر من النخبة أيضًا، وأعادت إحياءَ الرؤية السلاحوية التي لا ترى العالم إلا من ماسورة البندقية المستوردة أو الممنوحة (لوجه الله!)، وحَقَنت الوعيَ الإيديولوجي، المذهبي والطائفي، بمنشّطاتٍ جديدةٍ من الانتصارات الوهمية والمفخَّخة.

لقد هاجت الجماهيرُ العربية وماجت من المحيط إلى الخليج. ولكنّها لم ترفعْ شعاراتٍ وطنيةً أو قوميةً هذه المرة، ولم تحملْ

دحوني باربرْ

مهى عيسى (من حملة المقاومة المدنية) مع أطفال سلعا

صورَ عبد الناصر، بل رَفعتْ شعاراتٍ إسلاميةً، وحَملتْ صورَ حسن نصر الله وأعلامَ حزبه وتبعها القسمُ الأعظمُ من النخبة، التي لا تزال مصرّةً على أنْ «تحشو الجماهيرَ تبنًا وقشّاً وتتركهم يَعْلكون الهواء،» بتعبير الشاعر الراحل نزار قبّاني.

الإسلام السياسي، ومنه حزبُ اللّه، يَلْعب اليومَ اللعبةَ القديمةَ التي مارستها مَنْ كانت تسمَّى «الدول التقدمية.» وأعني باللعبة توظيفَ الصراع العربي الإسرائيلي توظيفًا إيديولوجيّاً نفعيّاً ماكرًا في تعبئة الجماهير في مشروع تلك الدول الذي لا يعدو حدودَ إطلاقِ الغرائز الهمجية وإشاعةِ الفوضى وتفكيكِ ما نسجه التاريخُ المعاصرُ ـ من بوادر اجتماعية واقتصادية وثقافية وأخلاقية عصرية وحديثة، ومن بنًى سياسيةٍ قابلةٍ أن تصير دولاً وطنية حديثة ـ تحت شعارات «المقاومة والجهاد والاستشهاد وتحرير فلسطين من البحر إلى النهر» وإنّه لَمما يدعو إلى العجب والدهشة أن تكون هذه الجماعاتُ أكثرَ فلسطينيةً من غالبية الفلسطينيين

بقي أن نقول إنّ هذا الإسلام السياسي، سواء في لبنان أو في فلسطين أو في العراق، وفي غير بلد عربي وإسلامي، هو الوجهُ الآخر لما آلت إليه تلك الأنظمةُ الثوريةُ الراديكالية من تسلُّطٍ واستبدادٍ وفسادٍ ومن «تحرُّر قومي» من جميع القيم الوطنية والإنسانية ـ وبعضُه من إنتاج هذه النظم ذاتها. إنّ الثورية أو الراديكالية، القومية والإسلامية والاشتراكية التي خبرناها، وكان أكثرُنا من محازبيها ومن ضحاياها، كانت ولا تزال ثوريةً أو راديكاليةً بلا عقل ولا قلبٍ ولا ضمير، وكانت وبالاً على الدول والشعوب التي ابتُليتْ بها، ولا سيّما في العراق وسورية، وينبغي أن تَمْثل أمام محكمةِ العقلِ والقلبِ والضمير.

فهنيئًا للثوريين «المقاومين» انتصارهم، وليكن اللّهُ في عون لبنان

**دمشق**

**جاد الكريم الجباعي**

كاتب سوري

# حـــوار مع المصطفى المعـــتـــصم

أجراه: عبد الحق لبيض

## المحور الأول: حزب اللّه.. ومشروعية الانتصار

الآداب: **ما الذي يمثّله صمودُ المقاومة اللبنانية وانتصارُها أمام العدوان الإسرائيلي الأخير على لبنان في ظلّ تزايد الإحساس لدى الشعوب العربية بمرارة الخيبة والهزيمة أمام جبروت «العالم الحر»؟**

**المصطفى المعتصم:** شكّل الصمود والانتصار المذكوران عنوانَ عافية هذه الأمة وعنفوانها، وتجسيدًا ساطعًا لنبضها الذي ما تزال فيه بقيةٌ من حياة، بالرغم من كلّ ما يُحاك ضدّها من طرف الغرب الاستعماري ومحميّيه داخل الوطن العربي والإسلامي. إنّ انتصار المقاومة اللبنانية معناه انتصارٌ إرادة الصمود على إرادة الهزيمة والاستسلام، وانتصارٌ لإرادة الحياة على إرادة الموت الحضاري، وانتصارٌ للوحدة ضدّ التجزئة، وانتصارٌ للحرية والكرامة والعز على الاستعباد والذلّ والمهانة. انتصار المقاومة معناه الهزيمة للمشروع الصهيو ـ أميركي في بناء شرق أوسط كبير أو جديد مبني على الفوضى الخلاّقة. في التدمير والتقتيل والعنف الطائفي والمذهبي

الآداب: **هل يمكننا الإيمانُ، فعلاً، بأنّ المقاومة حقّقت انتصارًا على أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقْهر؟ أمْ يجب أن نتحوّط فنقول إنّنا ربما كسبنا جولةً في معركة مفتوحة، وعلينا الاستعداد لمراحل أكثر عنفًا؟ وما هي الأدوات الناجعة لإدارة الجولات القادمة من هذه المعركة؟**

**المعتصم:** لا يمكن الاعتقاد بأنّ انتصار المقاومة في لبنان مجرّدُ ادّعاء إعلاميّ، بل هو أمر واقع يعترف به العدوُّ قبل الصديق وإذا كان الصمودُ، لأزيد من شهر، في وجه جيشٍ اعتادَ هزمَ الجيوش العربية مجتمعةً خلال ساعات، يُعدّ في حدّ ذاته انتصارًا، فإنّ حزب الله قد حقّقَ ما هو أكثر من الصمود. لقد هَزَمَ الجيشَ الصهيوني، المدجّجَ بأحدث الأسلحة الأميركية، شرَّ هزيمة، ومَنَعَ الأميركان والصهاينة من تحقيق أهدافهم. بل أتوقّع أن تأتي نتيجةُ هذه الجولة من الصراع حتى على ما تبقّى من أحلام الإدارة الأميركية، والكيان الصهيوني وحلفائهما، في بناءِ شرقٍ أوسطَ جديدٍ على مقاسهم وخدمةً لمصالحهم على حساب مصالح دول المنطقة وأمنها.

صحيح أنّ الصهاينة لن يَصْبروا على هذه الهزيمة المذلّة لجيشهم الذي قالوا عنه إنّه لا يُقْهر، ولاستخباراتهم ولاستخبارات الدول الدّاعمة لهم، وللأقمار الإصطناعية، وللخطط الحربية، وللعقيدة القتالية الصهيونية. ومن الغباوة التفكير أنّ الأميركان والصهاينة لن يبحثوا عن جولة للثأر لهزيمتهم. لكنّ الأكيد أنّهم سيفكّرون ألفَ مرة قبل أن يُقْدموا على أيّ مغامرة عسكرية جديدة. ثم إنّ قادة حزب الله ليسوا كباقي القيادات العربية. فهم لا يخطئون أبدًا في نوايا إسرائيل وداعميها، ولقد تعلّموا جيّدًا أنّ اليقظة والاستعدادَ الدائمَ قادران وحدهما ـ بعد عون الله وتوفيقه ـ على حماية لبنان ومقاومته. إنّ الأرض التي دارت عليها الحربُ البريةُ الأخيرة بين مجاهدي حزب اللّه والصهاينة هي أرضٌ استُرجعتْ سنة ٢٠٠٠ من العدو بعد اندحاره، ومنذ ذلك التاريخ والمقاومة تُعِدُّ العدّة لحربٍ قد تندلع في أية لحظة. وإنّك حينما تستمع إلى السيد نصر اللّه يتحدّث عن إستراتيجية الدفاع الوطني اللبناني، وعن دور المقاومة فيها، تتأكّد من مدى استيعاب المقاومة وقيادتها لطبيعة العدوّ الصهيوني وطبيعة الحرب ضدّه إنّه عدوٌّ ما فتئ يردّد على لسان زعمائه أنّ فترة السلم بين حربين هي فترةُ إعدادٍ لحرب قادمة. حزب الله واعٍ كلّ الوعي بهذا الأمر، ولا خوف عليه في هذا الصدد. لكنّ الخوف، كلّ الخوف، من المتآمرين والعملاء والمتربّصين. الخوف، كلّ الخوف، أن يُمنع حزبُ اللّه من إعادة تسليحه وتجديدِ ترسانته، أيْ أن يُمْنع من الإعداد كما يجب لجولةٍ قادمةٍ من الصراع.

الآداب: **ربما لم يختلف العرب، وضِمنَهم المثقفون، في حرب ضدّ العدوّ الإسرائيلي بالحجم الذي اختلفوا به في مواقفهم من العدوان الأخير على لبنان، وبخاصةٍ من المقاومة اللبنانية. ويمكننا أن نوجز أهم معالم الخلاف في العناصر الثلاثة الآتية: أ ـ إنّ حزب الله ينفّذ أجندةً خارجيةً تتحكّم**

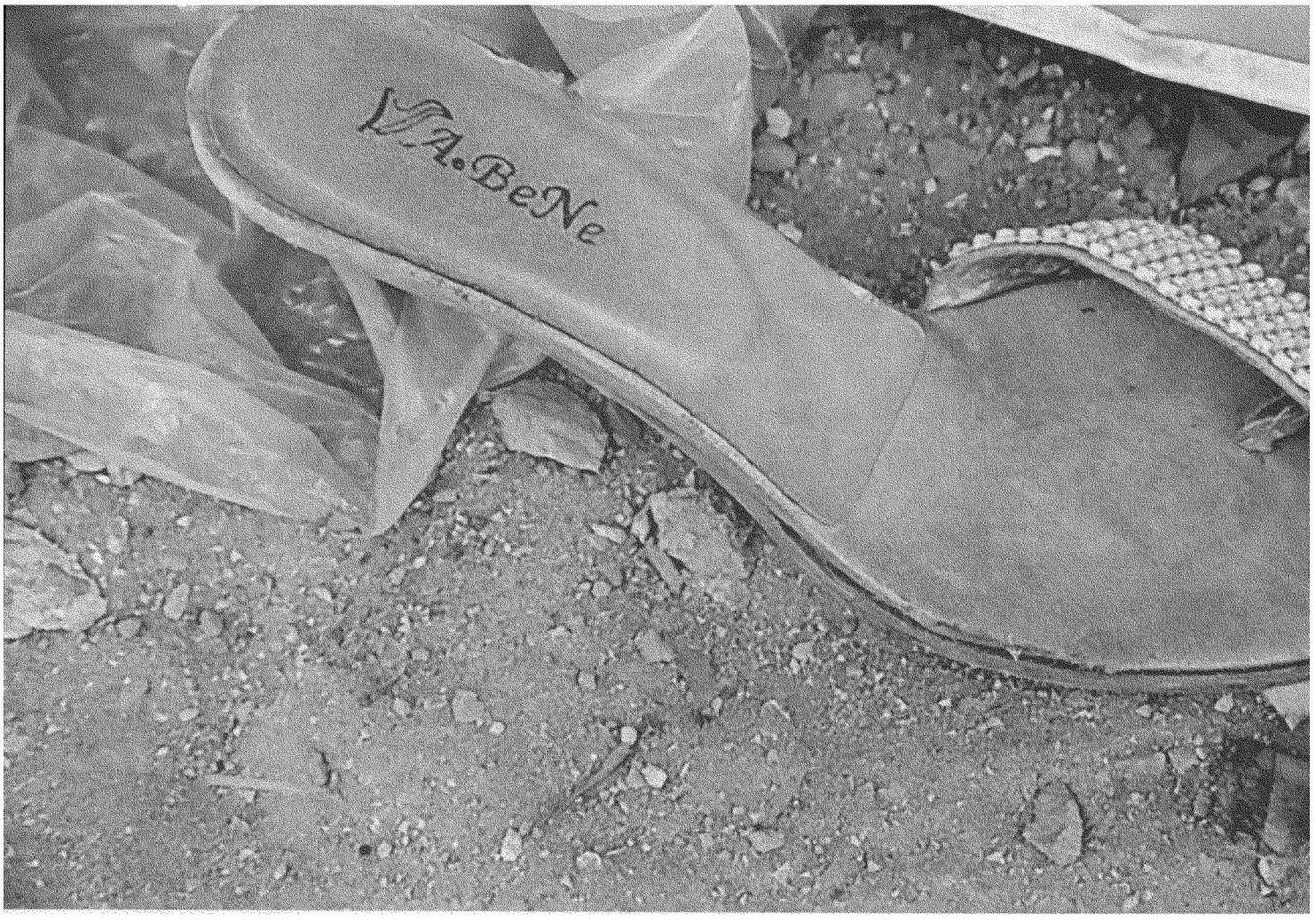


عابرييلا بوليسوڤا

حذاءٌ نسائي في الضاحية

**في مفاصلها الأساسية قوًى إقليميةٌ ذاتُ مصالح محددة، ونعني بها المحور الإيراني ـ السوري. ب ـ إنّ حزب اللّه منظمةٌ أصوليةٌ إسلامية معادية للحداثة، وأيُّ انتصار تحقّقه يسهم في تقويض البناء الديموقراطي الذي تسعى الدولُ العربية إلى بنائه. ج ـ إنّ حزب الله فصيل طائفي شيعي ينتصر في معركته لطائفته ويزوّد رصيدَها الاجتماعي والنضالي على حساب الطائفة السُّنية، بل ويوسّع من دائرة نفوذ الدولة الشيعية الإيرانية في المنطقة. فما رأيكم في ذلك؟**

**المعتصم:** لا بدّ من التذكير أولاً بالمناخ السياسي العامّ الذي ساد المنطقةَ العربيةَ بعد أحداث ١١ شتنبر بنيويورك. فالإدارة الأميركية خلصتْ إلى أنّ الأنظمة العربية الديكتاتورية هي السبب الرئيسي في ظهور التطرُّف، خصوصًا الديني ولهذا عمدتْ هذه الإدارة إلى محاولة بناء شرق أوسط كبير «ديموقراطي،» مرةً بالغزو المباشر كما حدث في العراق وأفغانستان، ومرةً بالضغوط السياسية والاقتصادية، ومرةً بالترغيب، وفي العديد من المرات بالترهيب. وهذا ما جعل العديدَ من الحكّام العرب يرتجفون خوفًا على مصيرهم ومستقبل أنظمتهم.

ومن جهة ثانية، سعت أميركا، وحلفاؤها من الدول الغربية، إلى التضييق على المقاومة وعلى مَنْ يَدْعمها من دول ومنظمات فكان اغتيال الحريري منطلقًا لإخراج سوريا من لبنان وعَزْلِها إقليميّاً ودوليّاً، وكان التهديدُ ضدّ طهران، وكانت محاولةُ نزع سلاح حزب اللّه إما لبنانيّاً أو بواسطة إسرائيل. لكنّ رياح التغيير الديموقراطي جاءت بما لا تشتهيه السفنُ الأميركية، سواء في فلسطين أو في مصر أو حتى في العراق ـ وهو الأمر الذي انتبهتْ إليه الإدارةُ الأميركية، فسعت إلى إعادة النظر في موقفها من دمقرطة المنطقة

هذا التغير في الموقف الأميركي التقطتْه الأنظمةُ العربيةُ الاستبدادية، فعاودتْ ترديدَ أطروحتها القديمة: أنّها أثمنُ للغرب ومصالحه ولإسرائيل من أيّ نظام آخر قد تأتي به الشعوب! وهنا يجب التذكير أنّ هذه الأنظمة، قبل أن «تتخلّى» عن المقاومة اللبنانية «الشيعية،» كانت قد تخلّت عن المقاومة الفلسطينية «السُّنية،» وعن السلطة الفلسطينية المنتخبة بشكل ديموقراطي (إذ قَطعوا عنها المساعدات، وحَرموا وزيرَ خارجيتها من المشاركة في اجتماعات وزراء الخارجية العرب والجامعة العربية، ووقفوا متفرِّجين على مذابح الفلسطينيين في غزة). إنّها، إذن، معالمُ صفقة سياسية، عنوانُها رأسُ المقاومة مقابلَ إعادة أميركا النظرَ في سياستها تجاه هذه الأنظمة.

# حوار مع المصطفى المعتصم

وممّا يؤكّد وجودَ هذه الصفقة، وبعلمٍ مسبّقٍ من طرف هذه الأنظمة، على عدوانٍ وشيكٍ ضدّ المقاومة وسلاحها، هو أنّ سرعة تحرُّك الأنظمة المذكورة لإعلان موقفها المعادي للمقاومة كان بمثابة إعطاء الضوء الأخضر لشنّ العدوان ضدّ لبنان. وما تحريكُ الآلة الإعلامية، والفتاوى الضالّة للتشويش على المقاومة وبطولاتها، وتحريفُ المعركة دوافعَ ومراميَ وأهدافًا، إلا دلائلُ إضافيةٌ لمن يحتاجها في ما نذهب إليه.

أما المثقفون تحديدًا، فلهم قصةٌ أخرى. إذ منذ انهيار النظام الثنائي القطبية تحوَّل العديدُ منهم صوب واشنطن وسفاراتها العاملة بالبلدان العربية والإسلامية. ومِنْ هؤلاء مَنْ تحوّل، تحت ذريعة العمل في إطار «المجتمع المدني،» إلى مرتزق؛ في حين ادّعى آخرون باسم «الواقعية» أنْ لا مستقبل للمقاومة والممانعة أمام جبروت أميركا، وأنّه من الأفضل أن نكون مع أميركا في هذه المرحلة على أن نكون ضدَّها.

أما عن علاقة حزب الله بإيران فهو لم يُخْفِ يومًا علاقتَه بها، ولا بسوريا. وليس هناك عاقلٌ في الأرض يُمْكنه أن يتصور أن يصل أداءُ حزب الله إلى هذا المستوى من دون دعم خارجي. لكنّ سؤالي هو: مَنْ الذي مَنَعَ بعضَ الدول المتباكية اليوم على الفكر السُّنّي، وعلى مستقبل المذاهب السُّنية، من العمل على إيجاد مثل حزب الله يكون سُنِّيًا ويأخذ موقعَه في خندق المواجهة ضدّ الصهيونية؟ وإذا كان هناك تخوُّفٌ من أن يستغلَّ الشيعةُ انتصارَهم لنشرِ مذهبهم، فإنّ مواجهة هذا الأمر ـ لو سلّمنا بضرورتها ـ لن تكون بالخيانة والتواطؤ مع العدوّ المباشر إسرائيل وحليفتِها الاستراتيجية أميركا!

لهؤلاء «القلقين» من أن يستغلّ حزبُ اللّه انتصارَه لنشرالتشيُّع في الوطن العربي والإسلامي نقول: ها هي مقاومةٌ سنّيةٌ في العراق وفي فلسطين، بل وحتى في الجنوب اللبناني، تنتظر الدعمَ والنصرةَ. فلماذا يتمّ التخلّي عنها؟ لماذا لا تَلْعب الدولُ والأنظمةُ المتباكيةُ على السُّنّة والفكرِ السنّي دورًا كالذي تَلْعبه إيران في لبنان؟ إنّه مجرد سؤال، ولا ننتظر الإجابةَ عنه لأنّنا نَعْرفها مسبّقًا!

إيران مشكورة على دعمها لحزب اللّه، بل وللمقاومة الفلسطينية أيضًا، ومن المعيب أن نوجِّه سهامَنا إلى مَنْ يساعدنا على رفع وجوهنا من الوحل ويَدْفع بنا نحو العزّة والكرامة. وسواء أحببنا أَمْ كرهنا، فإنّ الصراعَ اليوم في العراق أو في لبنان أو في فلسطين هو صراعٌ معقّدٌ يتداخل فيه المحليّ بالإقليمي بالدولي. وإنّه لمنطقٌ عجيبٌ وغريبٌ أن نَقْبل بدخول أميركا لمنطقتنا لترتيبها كما تشاء، وأن نَقْبل من الأميركيين أو الفرنسيين قولَهم إنّ ما يجري في منطقتنا يهمّ أمنَهم القومي، وننكرَ هذا الأمر على سوريا وإيران. إذا كان بعضُ العرب قد تخلَّوا عن لعب أيّ دور في ترتيب منطقتهم لصالح الاستعمار وإسرائيل، فهذا شأنهم ـ وفي اعتقادي أنّ هذا هو مصدرُ حقدهم على المقاومة وعلى مَنْ يدعم المقاومة.

إنّ الطريق مشرعةٌ أمام مَنْ يريد بناءَ النظام الديموقراطي، وأيضًا أمام مَنْ يريد أن تكون للطائفة السُّنية كلمتُها في المقاومة والممانعة حتى لا يبقى حزبُ اللّه ومَنْ يدعمه (وأقصد هنا تحديدًا إيران) ينوبون عن الأمة وحدهم ويتحمّلون وحدهم ثقلَ المعركة الشرسة التي تخوضها الأمةُ ضدّ الاستعمار والصهيونية.

سيكون مخطئًا مَنْ يفكّر بالتصدّي لحزب الله وإيران باتفاق وادي عربة، وكامپ دايڤيد، وأوسلو، وبالمواقف الخيانية، وبهدْرِ المال العربي في المواخر وطاولات القمار، وعلى فضائيات الفسق والفجور التي تسعى إلى تحويل بلداننا إلى ملاهٍ ليلية. إنّ من يتبنّى طرحَ الإشكال الطائفي أو المذهبي إنّما يصبّ الماءَ في طاحونة العدوّ المتربِّص بنا ـ سنّةً أو شيعةً، عربًا أو عجمًا، حداثيين أو تقليديين!

الآداب: **هناك اتجاه يذهب إلى أنّ حزب الله خسر الإجماعَ الوطني الذي كان يتمتع به، وأنّ مرحلة ما بعد «انتهاء المعركة العسكرية» ستكون مرحلةَ السؤال عن جدوى بقائه وبقاء الأسلحة بين يدي مقاتليه. وهذا يعني سحبَ كلّ المشروعية عن فعل المقاومة، وبدايةَ التأسيس لمرحلةِ ما بعد**

غابرييلا بوليسوڤا

دمار في الضاحية الجنوبية

**حزب الله أو ما بعد المقاومة. فهل نستطيع، موضوعيّاً وعمليّاً، الكلامَ على نهاية مرحلة حزب الله في لبنان وفي المنطقة عمومًا؟ وإذا كان ذلك متحقّقًا فعلاً، فما هي البدائلُ الممكنة في المرحلة الجديدة؟**

**المعتصم:** حسب علمي، فإنّ حزب اللّه والسيد نصر اللّه كانا يتمتعان بالتفافٍ لبناني بعد اندحار الجيش الصهيوني عن جنوب لبنان عام ٢٠٠٠ . لكنّ هذا الالتفاف تقلّص بعد استشهاد الحريري، وبعد موقف الحزب من أطروحات قوى ١٤ آذار، والقرار الأممي ١٥٥٩ . قد لا يكون حزب الله كسب أنصارًا جددًا من بين زعماء الأغلبية، لكنّه حاز من جديدٍ احترامَ أشدّ خصومه السياسيين، بل وكسب الكثيرَ من التعاطف الشعبي على مستوى الداخل اللبناني، ناهيك بالتعاطف الشعبي الكبير وهذا ما يقلق الاستعمارَ وإسرائيل، اللذيْن لن يهدئ لهما بالٌ قبل هزيمة حزب اللّه ميدانيّاً كما يقلق بعضَ الأنظمة العربية التي راهنتْ على هزيمة ساحقة للمقاومة

لقد أثبت العدوانُ على لبنان فعّاليةَ سلاح المقاومة وجدواه بالنسبة إلى لبنان وفي اعتقادي أنّ ما حدث يَدْعم نظريةَ الدفاع الاستراتيجي كما يراها حزبُ اللّه. وسلاح المقاومة التي عجزتْ أميركا وجيشُ الكيان الصهيوني عن نزعه بالقوة لن ينزعه مَنْ هم دونهما عدةً وعددًا. وما دامت إسرائيل تنتهك حرمات لبنان جوّاً وبرّاً وبحرًا، وما دام الحلُّ الشامل والعادل للقضية الفلسطينية غائبًا، وما دامت أميركا تسعى إلى ترتيب شرق أوسط جديد على مقاس مصالحها ولصالح الكيان الصهيوني، فإنّ الحاجة إلى المقاومة ستبقى

إنّ حزب اللّه منذ نشأته لم يوجِّه سلاحَه إلى غير إسرائيل. وحتى عندما انتصر في سنة ٢٠٠٠، فإنّه أهدى الانتصارَ إلى كلّ اللبنانيين، ولم يستأثرْ بنتائجه، ولا طالب بامتيازاته. بل إنّه حتى عندما ألقى القبضَ على العملاء والخونة من «جيش لبنان الجنوبي،» فإنّه سلّمهم إلى الحكومة كي تتّخذ في شأنهم ما تراه مناسبًا، بالرغم من الأضرار التي ألحقوها به قبل التحرير وعليه، فإنّ سلاح المقاومة في يد أمينة تعرف عدوّاً واحدًا تقاومه هو العدوّ الصهيوني، ولا تتجاوزه مهما كانت الحيثياتُ والظروف

والحقّ أنّني لا أرى أنّ سؤال المرحلة سيتحدد حول «ما بعد حزب اللّه أو ما بعد المقاومة.» أبدًا! بل سيتحدد حول ما بعد

# حـــوار مـع المصطفى المعـــتـــصم

انتصار المقاومة وهزيمةِ الحرب العدوانية على لبنان. فلقد كشفت الحربُ عن كساد النظام العربي الرسمي. وأعتقد أنّ صمود المقاومة في لبنان والعراق وفلسطين، بل وفي الصومال وأفغانستان، كَشَفَ عن زيفِ وهشاشةِ النظام العربي والإسلامي الرسمي الذي سيكون أمام خيارَيْن لا ثالث لهما: إما الانتصارُ للقضايا العادلة لشعوبه، والنهوضُ لتحقيق مستلزمات المرحلة في التنمية والتقدُّم والديموقراطية والعدل... وإما المزيدُ من تعميق الهوة مع شعوبها، والارتهان إلى أعداء الدين والوطن، وبالتالي انتهاؤها ككيانات سياسية قَزَمية، كما حدث من قبل مع «ملوك الطوائف »

ولن يجدي الحكوماتِ العربيةَ اليوم التهويلُ من المشروع النووي الإيراني، وحثُّ أميركا بل وإسرائيل على نسف منشآته. بل على الدول العربية أن تَغْتنم الفرصة، بدعوى تحقيق التوازن النووي مع إيران وإسرائيل، للدخول إلى نادي الدول النووية. ولن يجدي الدول العربية أن تنتظر سلامًا عادلاً للقضية الفلسطينية من يد الإدارة الأميركية المنحازة إلى إسرائيل. العرب اليوم أمام فرصة تارخية للحصول على مكتسبات لم يكونوا يَحْلمون بها قبل هزيمة أسلحة أميركا الذكية وجيش إسرائيل.

لقد دخلنا بالفعل مرحلةً جديدةً، ولكنّها مرحلةُ تأكيد الانتصار، ومرحلةُ اندحار المشروع الصهيوأمريكي وشرق أوسطهم المشؤوم.

❖ ❖ ❖

## المحور الثاني: المقاومة وأزمة خطاب المثقف العربي

الآداب: **شهدتْ مرحلةُ ما بعد ١٢ يوليو انقساماً صارخًا في موقف المثقفين العرب من المقاومة في لبنان: بين مؤيِّد لعمل المقاومة، وبين مَنْ حَمَّل حزبَ اللّه مسؤوليةَ توريط لبنان في حرب مدمِّرة، وبين موقفٍ وسطٍ دَعَمَ المقاومةَ إلاّ أنّه حَمَّلَ حزبَ اللّه مسؤوليةَ ما يجري في لبنان. فهل تعتقدون أنّ كل هذه المواقف كانت صادرةً عن رؤية عقلانية نقدية لمثقف مستقلِّ الإرادةِ والقرار، أمْ أنّها كانت تَصْدر استجابةً لإكراهات معينة تتحكّم فيها مصالحُ سياسية واجتماعية وربما طائفية معينة؟**

**المعتصم:** قد نَقْبل أن ينتقدَ إنسانٌ عاديٌّ عمليةَ حزب اللّه ويحمِّلَه مسؤوليةَ توريط لبنان في حرب وحشية ومدمِّرة. لكنْ حينما يتعلَّق الأمرُ بمن أسميتهم «المثقفين،» فهنا يستعصي عليَّ الفهمُ بل ويستحيل!

ففي لبنان أرضٌ محتلة هي مزارعُ شبعا ولدى لبنان أسرى في إسرائيل تعهّدت المقاومةُ بإطلاق سراحهم بعد تملُّص المجتمع والوسطاء الدوليين من تعهّداتهم في هذا المجال. لقد كان العالم، إذن، أمام عملية عسكريةٍ محدودةٍ ومشروعةٍ للمقاومة لم تكن تستوجب كلَّ هذا الدمار والقتل والجرائم إنّ حربًا تدوم أزيدَ من شهر تتطلّب إعدادًا طويلَ الأمد. ولم يعد خافيًا على أحدٍ اليومَ أنّ هذه الحرب كانت مدبَّرةً ومعدّاً لها من قَبلُ، خصوصًا بعدما اقتنعت الإدارة الأميركية وحلفاؤها بأنّ أصدقاءهم في لبنان عاجزون عن نزع سلاح حزب اللّه بل لم يَعُدْ خافيًا على أحد اليومَ أنّ الحكومة الصهيونية التي ورّطتْ نفسَها في هذه الحرب الخاسرة إنما كانت تنفّذ قراراتٍ تَصْدر في البيت الأبيض

كان من الممكن أن تندلع الحربُ قبل شهرين من ذلك، حينما ادّعت إسرائيلُ أنّها تعرضتْ للقصف بصاروخين من طرف حزب اللّه، لكنّها تراجعتْ لتتّهم جهاتٍ فلسطينيةً قبل أن تطوي الملفّ. ثم إنّ إسرائيل عمدتْ بعد ذلك إلى استفزاز المقاومة عبر تنفيذ اغتيالات في حقّ ناشطين فلسطينيين من الجهاد الإسلامي، بل وذهبتْ إلى حدّ محاولة اغتيال السيد حسن نصر اللّه بواسطة شبكة عملاء تمّ اكتشافُهم قبل الشروع في ارتكاب جريمتهم الشنعاء

لقد تلقّت إسرائيلُ الأمرَ، إذن، من الإرادة الأميركية بضرب حزب اللّه ونزع سلاحه. وسواء تمت عمليةُ أَسْر الجنود أو لم تتمّ، فإنّ العدوان على لبنان كان قادمًا لا محالة. وكلّ ما فعله

غابرييلا بوليسوڤا

سلعا، مدرسة المقاصد

حزبُ اللّه، من حيث يدري أو لا يدري، هو أنّه عجّل بعمليّته في دخول إسرائيل ـ ومن ورائها أميركا ـ الحربَ.

وللتاريخ فقط، فإنّ إسرائيل سبق وأن احتلّت لبنانَ عام ١٩٨٢ بعد عملية استهدفتْ أحدَ سفرائها في لندن ونُسبتْ إلى أحد الفصائل الفلسطينية

كل هذا الكلام لأَخْلص إلى بطلانِ ما يَذْهب إليه بعضُ المثقفين العرب من تجريم للمقاومة ولفعلها المقاوم، والأدهى أنّهم ما زالوا بعد كلّ هذا الدمار والقتل يصرُّون على تضليل وعي الناس. ولكنْ يجب التنويه إلى أنّ العديد من المثقفين الذين حَمّلوا حزبَ اللّه في البداية مسؤوليةَ الحرب أعادوا تقييمَهم بعدما تجلّت لهم حقيقةُ الأمور. ربما كانوا ضدّ نهج المقاومة ولا يزالون يرونْ عدمَ فاعليتها في هذا الزمن الأميركي، لكنّهم رفضوا أن يتحوّلوا إلى أدواتٍ لتزييفِ وعيِ المواطن في العالم العربي والإسلامي

الآداب: **هل سيُسهم انتصارُ المقاومة في لبنان في إعادة صياغة المشروع الديموقراطي العربي بالتركيز مجدّدًا على انبعاث ثقافة المقاومة والممانعة، بدلاً من «تأجيل المواجهة مع العدوّ حتى تتحسّن موازينُ القوى لصالحنا»؟**

**المعتصم:** لقد تهيّأ للبعض أنّ الغرب عمومًا وأميركا خصوصًا صادقان في دعوتهما إلى ضرورة دمقرطة النظم العربية والإسلامية. ولذا قاموا مهرولين إلى السفارات الأميركية وانخرطوا في برامج التدريب والتأهيل على ممارسة الديموقراطية التي رعتْها وموّلتها الخارجيةُ الأميركيةُ وبعضُ المنظمات المنسوبة إلى المجتمع المدني الأميركي والأوروبي، لكنّها مرتبطة بالدوائر الرسمية في بلادها. ومن بين المهرولين مَنْ اعتقدوا أنّ صنبور الدعم المالي والسياسي الأميركي مرتبطٌ بالموقف من الدولة العبرية، فتهافتوا للتطبيع معها لظنّهم أنّ الاستبداد أخطرُ من داءٍ عضالٍ ينخر جسمَ الأمة.

لكنْ سواءٌ كان موقفُ المطالبين بتأجيل الصراع ضدّ العدو والإسراع بتحقيق الديموقراطية نابعًا عن قناعة، أو تكتيكًا لإبعاد الأمة تدريجيّاً عن منطق المقاومة والممانعة، فقد تبيّن أنّ الديموقراطية التي تريدها أميركا هي تلك التي تَمْنح الحُكمَ في البلاد العربية والإسلامية لأصدقائها ومَنْ يدور في فلكهم. أما حينما تُفْرز الديموقراطيةُ حكّامًا لا ترضى عنهم أميركا، فنصيبُهم الحصارُ والحربُ تمامًا كما حصل للشعب الفلسطيني.

# حـــوار مـع المصطفى المعـــتـــصم

إنّ بناء الدولة الديموقراطية الحقيقة جزءٌ من المعركة التي كانت (ولا تزال) القوةُ الحيةُ المقاومةُ في المجتمعات العربية والإسلامية تخوضها. وإنّ الهزائم التي لحَقتْ بالدول العربية في صراعها الطويل مع الصهيونية تعود بالدرجة الأولى إلى النخب الفاسدة التي حَكَمت البلادَ والعبادَ بالنار والحديد، والكثيرُ منها ما كان ليستمرّ في حكمه لولا الدعمُ الكبيرُ الذي يتلقّاه من الاستكبار العالمي.

إنّ الديموقراطية الحقيقية معناها إعادةُ الاعتبار إلى سيادة الأمة على قرارها وشأنها العام وخياراتها الحضارية والأمة لن تكون إلاّ مع الكرامة والعزة، مع التقدُّم ضدّ التخلف، مع المقاومة ضدّ الهزيمة والاستسلام للأعداء.

الآداب: **يكاد المثقف العربي أن يتجاهل البعدَ الحقيقي لهذه الحرب الإسرائيلية المفتوحة، وهو البعد الذي عَبّر عنه بلير حين أشار إلى أنّ جيوش «العالم الحرّ» لا تحارب من أجل الانتصار على جيوش نظامية، أو بغيةَ الإطاحة بأنظمة قائمة، وإنما من أجل تغيير منظومة القيم في «الشرق الأوسط» لإلحاقها بمنظومة «العالم الحرّ.» كلام بلير هذا يَعْضده تصريحُ رايس: «إنّنا نعيش جميعًا مخاضَ ولادة شرق أوسط جديد.» وثم جاء تصريح بوش ليؤكّد أنّ «العالم الحر» يواجه خطرَ «الإسلاميين الفاشيين.» وكلُّ هذا يدلّ على أنّ الهدف من الحرب هو إعادةُ صياغةِ هويةِ المنطقة العربية، بتغيير قيمها ومسخِ تاريخها وتراثها الحضاري والإنساني. في رأيكم، هل يَمْلك المثقفون العرب، اليوم، رؤيةً عميقةً لأبعاد «معركة القيم» المعلنة تحت مسمّى كبير وهو «صراع الحضارات»؟**

**المعتصم:** إنّ مقولة «الصراع الحضاري» مقولةٌ خرجت من مختبرات الاستخبارات المركزية الأميركية، وسَوَّقَ لها بالأساس مثقفون وإعلاميون وسياسيون على علاقة مباشرة بالدوائر الصانعة للقرار في الغرب عمومًا والولايات المتحدة خصوصًا

غير أنّنا لسنا أمام صراع حضارات، بل أمام صراع إرادات: إرادة استعمار في مواجهة إرادة المقاومة. الحرب في لبنان والعراق وفلسطين تجسيدٌ لإرادة استعمارية تَعْرف جيّدًا أنّ خوض الحرب من أجل تغيير منظومة القيم في «الشرق الأوسط» لإلحاقها بمنظومة «العالم الحرّ» ضرورةٌ لتثبيتِ الاستعمار وإدامته وهذا الاستعمار يعرف جيّدًا أيضًا أنّه لن يَفْرض إرادتَه مع بقاء المقاومة، وفكرِ المقاومة، والقيمِ المرجعية التي تغذّي المقاومة

يجب أن لا ينسيَنا ما يجري على الساحة العربية والإسلامية من حروب ما يجري على ساحات دولية أخرى. ففي أميركا اللاتينية «المسيحية» اليوم حركةٌ واسعةٌ لمحاولة الانعتاق من الهيمنة الاستعمارية الغربية والشيء ذاته نسجّله في إفريقيا وآسيا، بل وحتى داخل شعوب الدول الغربية. وما ارتفاعُ الأصوات المندِّدة بالحروب الأميركية والصهيونية إلاّ دليلٌ على أنّ العالم كلَّه ما عاد ينخدع بالأطروحات التي تروِّج لها الدوائرُ الإستعمارية

صحيحٌ أنّ المقاومة العربية والإسلامية هي اليومَ في طليعة الصراع المسلح بالمقارنة مع باقي المقاومات العالمية الأخرى (للعولمة مثلاً). لكنْ لن يمرّ وقتٌ طويل حتى يَشْهد العالم انتفاضات الشعوب، خصوصًا شعوب العام الثالث ضدّ الاستعمار الجديد.

إنّ الاستعمار يريد منّا بالضبط تبنّي مقولاته حول «صراع الحضارات،» وهو ما سيساعده على عزلنا والاستفراد بنا حينما يضعنا في صورة أعداء الحضارة الغربية السائدة ـ التي يجب أن نعترف أنّ بريقَ نجاحاتها ما يزال يأسر العديد من شعوب ودول العالم لذا فعلينا أن نَنْجح في وضع الصراع الدائر في منطقتنا في سياق صراع عالمي عامّ وشامل بين الاستعمار بكلّ أشكاله وتمظهراته، وبين الشعوب والدول التوّاقة إلى الاستقلال والحرية والكرامة

**الدار البيضاء**

**المصطفى المعتصم**

الأمين العام لـ «حرب الديل الحضاري» الإسلامي في المغرب

# بيــــان من ناشطين (مـــقــــتطفـــات)

## مجموعة أتّاك (Attac) - لبنان*

إذ تدين «أتّاك ـ لبنان» استخدامَ إسرائيل للإرهاب في لبنان آليةً لتحقيق الأهداف والمطالب السياسية، فإنّها.

* تدعو المجتمعَ الدولي ومحكمةَ جرائم الحرب في لاهاي إلى الضغط من أجل محاكمة إيهود أولمرت وعمير بيريتس والضباط الرفيعين في الجيش الإسرائيلي بتهمة ارتكاب جرائم حرب، والإهمال الجرمي في لبنان، ولانتهاكهم اتفاقيات حقوقِ الإنسان والقوانين الدولية في لبنان وفلسطين.

* تدعو المجتمع الدولي إلى مقاطعة كلّ البضائع والخدمات والمنتوجات والمنظّمات والنشاطات الأكاديمية الإسرائيلية، إلى جانب مقاطعة كل الشركات والمنظمات التي تواصل التعاملَ مع إسرائيل.

* ترفض قرارَ مجلس الأمن رقم ١٧٠١ لكونه آليةَ ضغطٍ أخرى لصالح إسرائيل والولايات المتحدة، اللتيْن تنتقيان كما تشاءان استخدامَ قراراتِ الأمم المتحدة وفرضَها.

* تطالب بالاستقالة الفورية للحكومة اللبنانية... التي فاقمتْ لاكفاءتُها في التعامل مع الغزو وأزمةِ اللاجئين معاناةَ أكثر من مليون لبناني. كما ينبغي إقالةُ الضبّاط العسكريين الرفيعين من مناصبهم، ووقفُ معاشاتهم لتقصيرهم في واجبهم.

* تدعو الحكومة إلى أن تفتح فورًا كلَّ المساحات غير المأهولة والقابلة للإسكان في الوسط التجاري لبيروت والمساحات العامة، كـ «بيال» و«بيروت فوروم،» أمام اللاجئين.

* تدعو الحكومةَ اللبنانية إلى رفض كلِّ مساعدة من بريطانيا والولايات المتحدة وإلى طرد سفيريْهما.

* تدعو إلى نشر قوات متعدِّدة الجنسية داخل إسرائيل على الحدود مع لبنان، والضفة الغربية وغزة، وعلى الأراضي التي ماتزال محتلّةً بشكل غير شرعي من قبل إسرائيل بما فيها مزارعُ شبعا وكفرشوبا. وعلى هذه القوات أن تكون من دول غيرِ منحازة وتكون مسؤولة عن تسيير الدوريات على الحدود من الجانب الإسرائيلي من أجل حماية اللبنانيين والفلسطينيين من عدوان إسرائيلي جديد.

**بيروت**

**أتّاك ـ لبنان**

مجموعة تقدُّمية لبنانية ناشطة وعلمت المجلة أنّ المجموعة بصدد إصدار بيانات لاحقة عن إساءة استخدام الحكومة اللبنانية للقروض ومواد الإغاثة (الآداب)

* ـ وُزِّع هذا البيانُ أثناء الاحتلال الإسرائيلي.

# من ثقافةِ مقاومَة إلى ثقافةٍ مقاوِمة

نداء أبو مراد

فاجأتني حربُ تمّوز ٢٠٠٦، كما فاجأتِ اللبنانيّين جميعًا، بضراوتها، بوحشيّة العدوان الصهيونيّ الأميركيّ، ببسالة المجاهدين، بتألّق السيّد حسن نصر الله فاجأتني بالحماس الذي حلّ في نفسي حيال المقاومة الإسلاميّة، أنا الواقع مبدئيّاً في تباينٍ مع معطياتٍ متعدّدة من معادلتها، إنْ من حيث إيماني المسيحيّ الأرثوذكسيّ، أو من حيث انتهاجي فكرًا سياسيّاً علمانيّاً ديموقراطيّاً عربيّاً ونسقًا نضاليّاً لاعنفيّاً.

أحاول في هذه العجالة تفسيرَ تأييدي المتحمّس للمقاومة، ثمّ طَرْحَ أفكار حول دور المثقّف في بلورة التكامل بين مفهومَيْ «ثقافة المقاوَمة» و«ثقافة مقاوِمة» (بكسر الواو) بحدّ ذاتها.

## مفارقات الوعد الصادق

جاءت عمليّةُ «الوعد الصادق،» فوجدتُ نفسي أبرِّرها تلقائيّاً تجاه بعض الأهل والأصدقاء الذين أظْهروا استياءهم حيالها وحيال توقيتها، إذ أوْدَتْ، بحسب تعبيرهم، إلى ردٍّ مدمِّرٍ على لبنان في عزّ الموسم السياحيّ ثمّ أطلّت وزيرةُ خارجيّة الولايات المتّحدة الأميركيّة بشعار «الشرق الأوسط الجديد،» فاتّضحت الصورة إنّها حربٌ أميركيّةٌ بأداة عسكريّة إسرائيليّة، تَهْدف إلى تدمير حزب الله، وإلى تطويع لبنان، أو تفتيته طائفيّاً (على النسق العراقيّ)، وذلك تمهيدًا لضرب إيران وسوريّة، وتحويلِ المنطقة إلى كياناتٍ طائفيّة وإثنيّة، يهيمن عليها المحورُ الأميركيّ الصهيونيّ. في تلك اللحظة، ومع تكاثر المجازر بحقّ المدنيّين، ومع تزايد إلحاق الدمار بالمنازل وبالبنى التحتيّة، ومع بثّ رسائل السيّد حسن نصر الله التلفزيّة المؤثِّرة، واستبسالِ المجاهدين في صدّ الهجمات البرّيّة وإلحاق الهزائم بالجنود الصهاينة، اقتنع المتردّدون من حولي بصوابِ دفاعي عن شرعيّة المقاومة.

## مقوّمات التأييد

أظنّ أنّ شريحة كبيرة من اللبنانيّين من غير المناصرين الطبيعيّين لحزب الله أصبحتْ تؤيّدُ المقاومةَ في أواخر تمّوز أشدَّ تأييد، رغمًا عن الحملة الدعائيّة المعاكسة التي شنّها مناصرو الغرب في لبنان، وذلك لثلاثة اعتبارات:

**أ ـ الاعتبار الأخلاقيّ.** ربح حزب الله معركةً أخلاقيّة كبرى ضدّ الكيان الصهيونيّ، إذ خاض حربًا دفاعيّةً مركّزةً على العسكر الإسرائيليّ، في مقابل اعتماد الآلة العسكريّة الصهيونيّة على قصف المدنيّين والبنى التحتيّة ظهرتْ زمرةُ المحافظين الجدد كحامية لدولةٍ متوحّشةٍ إرهابيّة، وظهر السيّد حسن نصر الله كمرشدٍ أمميٍّ في أخلاقيّات النضال العادل، معتمدًا على «الدم المنتصِر على السيف.»

**ب ـ الاعتبار الوطنيّ.** بيّنتْ هذه الحربُ العدائيّةَ المطلقةَ للكيان الصهيونيّ حيال لبنان، بحيث لم يعد من الممكن لأيّ مواطنٍ لبنانيّ إلاّ وأن يعتبرَ هذا الكيانَ الخطرَ الأكبرَ على الوطن، فيناهضه، ويرجو تفكيكَه ونزعَ سلاحه، وأن يحمِّلَ الإدارةَ الأميركيّة الحاليّة مسؤوليّةَ الدمار لأنّها تمثّل الدعامة الكبرى للعدوان الإسرائيليّ الإرهابيّ على لبنان.

**ج ـ الاعتبار العملانيّ.** شكّل صمودُ المجاهدين اللبنانيّين الأسطوريُّ، في وجه محاولات الاجتياح الإسرائيليّ البرّيّ، تحوّلاً كبيرًا في تاريخ الصراع العربيّ الإسرائيليّ، إذ أثْبت مجددًا، وبشكلٍ علنيّ لا جدلَ فيه، إمكانيّةَ إلحاق الهزيمة بآلةٍ عسكريّةٍ كانت تُعتبر جزافًا متفوّقةً على جيوش العرب مجتمعة. وإضافةً إلى الفاعليّة القتاليّة المذهلة، فاقت المقاومةُ العدوَّ كثيرًا على صعيد المصداقيّة الإعلاميّة، إذ ظَهَرَ السيّد حسن نصر الله، كما قنواتُ الحزب الإعلاميّة، صادقًا في خطابه المُواكِب والشارح للمعركة، في حين ظَهَرَ الصهاينةُ فاشلين من خلال ادّعاءاتهمَ الكاذبة وحربهم النفسيّة المتهوّرة.

ولكي يَشْعر لبنانيّون من خارج البوتقة الشيعيّة بمثل هذا التعاطف مع تيّارٍ مقاوِمٍ كربلائيّ، وصولاً إلى اعتباره خيرَ ضامنٍ للوطن في وجه العدوان الصهيونيّ، كان لا بدّ من أن تتجلّى صحّةُ النضال من الزاويتين الأخلاقيّة والوطنيّة، وأن ينأى كفاحُه عن أيّ طابعٍ انتحاريّ، وأن يتّسمَ بالمصداقيّة والواقعيّة العملانيّة.

غابرييلا بوليسوفا

القنطرة: خصبٌ جنوبي، وتحته حرقٌ إسرائيلي

**من ثقافةِ مقاوَمة إلى ثقافةٍ مقاومة**

الآن، وقد وضعت الحربُ أوزارَها، يمكن للمثقّف اللبنانيّ الملتزم بالنسقِ المقاوم أن يضطلعَ بمهامّ جديدة، إضافةً إلى التحليل والتأثير الفكريّ على الذين يسمعونه أو يقرأونه في موضوع الالتزام بالمقاومة وتشجيعها. يمكنه المشاركةُ في الأعمال التطوّعيّة الآيلة إلى دعم صمود الشعب الذي استهدفه العدوان، والإسهامُ في عمليّة إعادةِ بناءِ ما تهدّم بعيدًا عن ذهنيّة المقاولين السياسيّين. كما يمكنه العملُ على ترسيخ ما دُرِجَ على تسميته «ثقافة المقاومة» في حقبة الهدنة، أي العملَ على إنتاج خطابٍ ناجع من الزاوية المنهجيّة، يَدْعم الخيار المقاوم على الصعيد الفكريّ، ويؤثّر في الرأي العامّ، وبخاصّةٍ في موضوعِ رفضِ نزعِ سلاح حزب الله.

لكنْ يبدو لي أنّ ثمّة خيارًا تخصّصيّاً يمكن للمثقّف أن يناضل من خلاله، هو العملُ على إرساء مفهوم الثقافة المقاومة (بكسر الواو) بحدّ ذاتها؛ ويعني هذا المفهوم: تحصينَ الثقافةِ المحلّيّة، المرتبطةِ بالشعب وبالأرض المستهدفَيْن، في وجه هجمة المنظومة الثقافيّة المقترنة بالعدوّ.

هذه الإشكاليّة مطروحةٌ مثلاً في نطاق علم الاقتصاد: يقوم اقتصادُ المقاومة على وضع الآليّات الاقتصاديّة الضروريّة لدعم المجاهدين على أرض المعركة وصمودِ الشعبِ المحتضِنِ للمقاومة. وأما الاقتصادُ المقاوِمُ (بكسر الواو) فيعتمد على رؤيةٍ اقتصاديّة إستراتيجية شاملة تتصدّى لمقوِّمات المشروع الاقتصاديّ الخاصّ بالطرف الخصم، وذلك من خلال تنفيذ إصلاحاتٍ بنيويّة وانتهاج سياساتٍ اقتصاديّة متباينة، قدرَ المستطاع، مع توجّهات السّاحةِ المقابلة والمشاريع التي تبتغي تطبيقَها على الساحة المقاومة، مثل الشقّ الاقتصاديّ من مشروع «الشرق الأوسط الكبير» أو «الجديد» في تصوُّر واضعِهِ شمعون بيريز - وهو فرع من مشروع النظام العالميّ الجديد، أيْ مشروع العولمة النيوليبراليّة الأميركيّة. هذا لا يعني العودة إلى نموذج «هانوي،» أيْ إلى اقتران مقاومة الإمبرياليّة الأميركيّة باعتماد النظام الاقتصاديّ الشيوعيّ. لكنْ لا بدّ من أن تتمّ ترجمةُ مشروع المقاومة في لبنان في توجّهاتٍ اقتصاديّةٍ مغايرة جذريّاً للسياسات المنتهجة منذ ١٩٩٢. فعندما قرّر المهاتما غاندي الشروعَ بثورته التحرّريّة اللاعنفيّة على الإمبراطوريّة البريطانيّة، قام بحملته التاريخيّة المعروفة بـ«مسيرة الملح،» بحيث قَرَنَ موضوعَ تحرّر الهند السياسيّ من الاستعمار البريطانيّ بموضوع استرجاع الشعب الهنديّ لموارده الإنتاجيّة. كذلك لا يُمْكن مجابهةُ الخطر

# من ثقافة مقاومَة إلى ثقافةٍ مقاومِة

الصهيونيّ من خلال سياسات اقتصاديّة وماليّة ريعيّة تقضي على القطاعات المنتجة وتَؤُول إلى الارتهان الاقتصاديّ والمالي للخارج.(١)

## من موسيقى المقاوَمة إلى موسيقى مقاوِمة

في نطاق مغاير جدّاً، يمكن التمييزُ أيضًا بين موسيقى المقاوَمة وبين موسيقى مقاوِمة بحدّ ذاتها. تتشكّل الأولى من مجموعة الأناشيد والأغاني الحماسيّة التي تواكب تيّارًا مقاومًا معيَّنًا، وبخاصةٍ من حيث تلاؤم مضامين النصوص المنشدة والمغنّاة مع المسعى النضاليّ. أمّا مفهوم الموسيقى المقاوِمة، فيَرْتبط بفكرةِ صراعٍ سياسيّ ثقافيّ يكون قائمًا على أرضِ الموسيقى، أيْ في نطاقِ النظام الذي يَحْكم تكوينَ اللغات الموسيقيّة في بعدَيِ اللحن والزمن، وفي الخلفيّة الجماليّة (الإستيتيكيّة)، بل من الزاوية الرموزيّة (sémiotique)، في مستوياتها الثلاثة بحسب رؤية جان مولينو(٢): المستوى المحايد، مستوى الإنتاج، مستوى التلقّي.

فالبعد الزمنيّ أو الإيقاعيّ محكومٌ بالجدليّة القائمة بين الإيقاع الوزنيّ الكلاميّ، المهيمِنِ على نطاق الأديان الإبراهيميّة في أصولها الطقسيّة، وبين الإيقاعِ الدوريّ الحركيّ، المهيمِنِ على السياقات الوثنيّة والدنيويّة والحديثة.(٣)

كذلك تَحْكم البعدَ اللحنيَّ تجاذباتٌ ثقافيّةٌ قويّةٌ قائمةٌ منذ العصر القديم ما بين الشعوب المشرقيّة المرتبطة باللغات الساميّة، واستطرادًا في الترنيم الكنسيّ حول البحر المتوسّط في الألفيّة الأولى (بما في ذلك الترنيمُ اللاتينيّ)، وبين الثقافات الهند أوروبيّة الوثنيّة. فالأولى تعتمد في تركيب سلالمها اللحنيّة على الجنس الزلزليّ،(٤) المتجسّد في توالي مسافات الطنين وثلاثة أرباع الطنين في السلّم اللحنيّ، كنموذج أصليّ وتعتمد الثانيةُ على الجنس القويّ،(٥) المتجسِّدِ في توالي مسافات الطنين ونصف الطنين في السلّم اللحنيّ.(٦)

وثمّة تضادٌّ أساسيٌّ ثالث في الحقل الثقافيّ يمكن إسقاطُه على حيّز الموسيقى، هو جدليّة التقليد والحداثة. أمّا التقليد، فيأخذ شكلَيْن في التعاطي مع النماذج الموروثة: التقليد التكراريّ (قلّد زيدٌ عَمْرًا في أمرٍ ما) والتقليد التسليميّ أو الشريف (قلّد زيدٌ عمرًا أمانةً روحيّةً أو معرفيّةً أو صناعيّة). في الحيّز الموسيقيّ، يقترن الأوّل بالتراث الشعبيّ أو الفلكلوريّ، بينما يتمثّل الثاني بالموسيقى الفنّيّة الإبداعيّة. وفي حين ينطلق التجديدُ في التقليد

---

١ ـ راجع Viviane Naïmy, **Marchés émergents, financement des PME et croissance économique: étude du cas libanais** (Liban: NDU Press, 2003).

٢ ـ راجع حول موضوع رموزيّة الموسيقى Jean Molino, "Fait musical et sémiologie de la musique," **Musique en jeu,** 17, 1975, pp. 37-52. Jean-Jacques Nattiez, **Fondements d'une sémiologie de la musique** (Paris: Inédit, Union Générale d'Editions, 1975). نداء أبو مراد، «مدخل إلى تحليل الارتجال العزفيّ في التقليد الموسيقيّ المُتقَن المشرقيّ العربيّ» **مجلة البحث الموسيقيّ**، ٢٠٠٥

٣ ـ راجع مقالي في هذا الموضوع Nidaa Abou Mrad, "Formes vocales et instrumentales de la tradition musicale savante issue de la Renaissance de l'Orient arabe," **Cahiers de musiques traditionnelles**, "Formes musicales," N 17, Genève: Ateliers d'Ethnomusicologie, 2005, 183-215.

٤ ـ قسمة مسافة الرابعة التامّة إلى ثانيتين متوسّطتين وثانية كبيرة

٥ ـ قسمة مسافة الرابعة التامّة إلى ثانيتين كبيرتين وثانية صغيرة

٦ ـ راجع مقالي في هذا الموضوع Nidaa Abou Mrad, "Echelles mélodiques et identité culturelle en Orient arabe," **Une encyclopédie musicale pour le XXIe siècle,** dirigée par Jean-Jacques Nattiez, vol. III, "Musiques et cultures," (Arles: Actes Sud, 2005), 756-795.

كيرستن شايد — الغدورية الشقق وقد تحوّلتْ سندويشات!

التسليميّ من قواعد ثابتة ومن رصيدٍ (خزينٍ) نموذجيّ موروث (يشكّل أساسًا لإنتاج رصيد جديد)، تكون مرجعيّتُه موضوعيّةً منزّهةً، فإنّ التجديد في الحداثة الموسيقيّة يعتمد على ذاتيّة فرديّة تبيح تغييرَ القواعد ونقضَ النماذج التقليديّة.

تغلغلت الحداثةُ في ترنيم الكنيسة الغربيّة بعد أن انشقّت هذه الأخيرةُ عن تقليد آباء الكنيسة الشرقيّين اللاهوتيّ الصوفيّ وجَنحتْ نحو الفلسفة الأرسطيّة وتترجم ذلك التوجّه الروحيّ في اعتماد المساوقة، أيْ تعدُّدِ الأصوات، في مقابل تجذُّرِ الترنيم الشرقيّ المسيحيّ والإسلاميّ في الأحاديّة اللحنيّة (monodique) وفي النسق المقاميّ وبسببٍ من اعتماد المساوقة، ارتدّت الكنيسةُ الغربيّة إلى السلّم القويّ، في حين بقي الشرقُ مقترنًا بالجنس الزلزليّ كذلك انعتق الترنيمُ الغربيّ من قيود الإيقاع الكلاميّ (مع مدرسة الفنّ الجديد Ars Nova) فركّز على الإيقاع الدوريّ الحركيّ، في مقابل احترام الشرق المسيحيّ والإسلاميّ للسويّة الكلاميّة

بين القرن الحادي عشر والقرن التاسع عشر، حافظت الكنيسةُ الأرثوذكسيّة على لاهوت الآباء الصوفيّ، وبقي الإسلامُ بعيدًا عن الذهنيّة الأرسطيّة، بخاصّة لدى العرفان الشيعيّ والتصوّف السنّيّ، فتترجم ذلك في سويّةٍ موسيقيّةٍ تقليديّةٍ إسراريّةٍ تسليميّة، تعتمد على الأحاديّة اللحنيّة، وكأنّها تعبير عن التوحيد الإلهيّ، وعلى نظامٍ مقاميٍّ مقترنٍ بسلالم يهيمن عليها النسقُ الزلزليّ، وعلى نموذج الإيقاع الوزنيّ الكلاميّ.

في الحقبة عينها، انتقل الغربُ تدريجيّاً من لاهوت مدرسيّ أرسطيّ إلى حداثة علمنيّة شاملة، فتترجم ذلك في سويّةٍ موسيقيّةٍ حديثة، أخَذتْ شكل النظام الهارمونيّ[1] الطونالي[2]، المقترن بالسلّم القويّ المتساوي التعديل[3] (tempérament égal)، والمتعارض كلّيّاً مع النظام الأحاديّ المقاميّ الزلزليّ الشرقيّ

بدءًا من القرن التاسع عشر، تغلغلتْ إيديولوجيّةُ الحداثة تدريجيّاً في المشرق العربيّ، فكانت ردّةُ الفعل الأولى نهضةً من

١ ـ تنسيق المساوقة (تعدّد الأصوات polyphonie) على أساس اتّفاقات عموديّة محكومة بقواعد متغيّرة عبر المدارس التأليفيّة الأوروبيّة التاريخيّة

٢ ـ نظام (harmonique tonal) لتنظيم اللحن على أساس مغاير للنظم المقاميّة، تنامى في أوروبا بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر

٣ ـ حيث يتكوّن الديوان من اثني عشر نصف طنين متساوين

# من ثقافة مقاومة إلى ثقافة مقاوِمة

داخلُ،[1] أيْ معتمدةً على المقوّمات الثقافيّة الذاتيّة، بما في ذلك في الحقل الموسيقيّ، وهو ما تجلّى في مدرسة عبده الحامولي (١٨٤٣ ـ ١٩٠١)[2] في وادي النيل، وفي نهضة الرديف الفارسيّ في إيران.

لكنّ انهيار الشرق الكبير أمام الغرب على الصُّعُد العسكريّة والسياسيّة في الربع الأوّل من القرن العشرين جَعَلَ التجديدَ الموسيقيّ يعتمد على الدمج (من خارج) بين النظام الغربيّ الحديث والنظام الشرقيّ التقليديّ ـ وهو ما آل إلى تهميش تدريجيّ للتقليد الموسيقيّ المشرقيّ العربيّ، وإلى هيمنة الموسيقى الحديثة المغربنة على مسامع أهل الضادّ، وصولاً إلى الصنف الرخيص جدّاً من الأغنية التجاريّة، المنتشر اليوم أشدّ انتشار. وتشكّل هذه الأغنيةُ الحديثةُ الاستهلاكيّة الوجهَ الموسيقيّ للنظام العالميّ الجديد، أيْ للعولمة النيوليبراليّة الأميركيّة. ويأخذ هذا التوجّه أشكالاً متنوّعة، منها تيّار «موسيقى العالم» (World Music)، حيث يتمّ الدمجُ بين نكهات موسيقيّة مأخوذة من تقاليد العالم المتنوّعة في بوتقة موسيقيّة غربيّة واحدة، وذلك على منوال تيّار العصر الجديد (New Age) الذي يحاول الدمج التجاريّ بين الديانات والفلسفات.

من هنا يُمْكن اعتبارُ التصدّي للهجمة الغنائيّة الحديثة المغربنة على العالم العربيّ، وبخاصّةٍ على لبنان، نوعًا من المقاومة الموسيقيّة للمشروع العولميّ الأميركيّ. ويبدو لي أنّ المشرق العربيّ والفارسيّ والأنطاكيّ الجديد الذي سيتمخّض عن سقوط مشروع الشرق الأوسط الجديد بفضل مقاومة الشعوب العربيّة، وعلى رأسها حزبُ الله ـ وكلّنا حزبٌ لله ـ يحتاج إلى نهضةٍ ثقافيّةٍ من داخلُ تقاوم بشدّةٍ العولمةَ الأميركيّةَ، وتعتمد على الطاقة الجماليّة الهائلة المخزّنةِ في شعوبنا. وهذا لا يعني انغلاقًا على الذات، بل إستراتيجيّة تهدف في نهاية المطاف إلى إصلاح الغرب من شوائب الحداثة، وإعادتِه إلى إنسانيّته الروحانيّة المفقودة، بعد تعميق الشرق في تقاليده الثقافيّة التسليميّة التجدّديّة الشريفة، كمرجعٍ للسويّة الإنسانيّة في العالم.

**لبنان**

**د. نداء أبو مراد**

موسيقي وأستاذ وباحث جامعيّ في علم الموسيقى

١ ـ راجع نداء أبو مراد، «مركزيّة التقليد في عمليّة التجديد في الإطار الموسقيّ الشرقيّ،» النهضة العربيّة والموسيقى خيار التجديد المتأصّل، إشراف نداء أبو مراد، عمّان. منشورات المجمع العربي للموسيقى، ٢٠٠٣

٢ ـ راجع نداء أبو مراد، «الفقيه والمرنّم الإصلاح من الداخل (مقاربة بين محمّد عبده وعبده الحامولي)،» المصدر السابق

# أين أشباحُ المثقفين؟

منذر سليمان

## خطة الحرب

لم أستطعْ تجاهُلَ الرغبةِ الملحّةِ التي حملتْها إليّ رسالةُ رئيس تحرير الآداب بالبريد الإلكتروني، وفيها يسألني المساهمةَ في هذا العدد، خاصةً وأنّه خَتَمَها قائلاً: «لا تبرِّرْ لي استحالةَ الأمر بانشغالك؛ فلا يوجد مستحيلٌ بعدَ ما شَهِدْناه من صمود هنا!»

أَعترفُ بعجزي عن تقديم قراءةٍ سريعةٍ لكيفيةِ تعاملِ «المثقفين» مع الحرب العدوانية الإسرائيلية ـ الأميركية على لبنان بحجره وبشره ومقاومته، وعن كيفية إسهامهم (أو عدمه) في ملحمة الصمود والبطولة التي لن تَحْجبها أبواقُ الضخِّ الإعلامي المشكّك والمتجنّي والمحبِط أو ركامُ الدمارِ والدماءِ والدموع الذي خلّفتْه آلةُ الحرب الإسرائيلية المجرمة.

لا أزعم أنّني قادرٌ على تقييم مساهمة الآخرين لذا سأكتفي بنقلِ لمحةٍ عن جانب من مساهمة خاصة

شاءت الأقدارُ أن أكون في زيارة لبلدي وأهلي في لبنان بصحبة زوجتي وأحدِ أبنائي خلال نشوب الحرب. وبعد ساعاتٍ من مغادرتي استوديو محطة «المنار» إثر مشاركتي في البرنامج الحواري «ماذا بعد؟»، وَجّهت الطائراتُ الإسرائيليةُ صواريخَها للمرة الأولى إلى المحطّة المذكورة في سلسلةِ محاولاتها المحمومة والمتكررة لتدمير القناة وإسكاتِ صوتها (وهو ما عجزتْ عنه حكومةُ إسرائيل الإجرامية حتى وقف العمليات الحربية) ثمّ توسّعتْ دائرةُ القصف الجوي الإسرائيلي بصورة متسارعة. وفكّرتُ: نحن، إذن، أمام حربٍ مفتوحة، لا انتقامٍ محدودٍ من المقاومة.

فجرَ اليوم الرابع للحرب، حين لم يَعُدْ ممكنًا النومُ أو الراحةُ على دويّ القصف الجوي والبحري الوحشي، كتبتُ تحت عنوان «نصرٌ لاحق لوعدٍ صادق» ما اعتبرتُه برقيةً سريعةً تتضمّن قراءتي لما يجري، وذلك بعد سيل الاتصالات والرسائل الإلكترونية القادمة من أصدقاء وزملاء وأحبّاء في الولايات المتحدة يستفسرون ويتلهّفون للاطمئنان على لبنان وعلى سلامتنا الشخصية. وقد جاء في تلك الرسالة: «لا تَمْلك الحكومةُ الإسرائيليةُ غيرَ خيار التدمير والانتقام والحصار، ولا يَمْلك الشعبُ اللبناني غيرَ خيار الصبر والصمود والمقاومة طريقًا للانتصار إنّ خطة تقطيع الأوصال في حرب الانتقام والتدمير المفتوحة لن تعيد الهيبةَ المهدورةَ إلى حكومة إسرائيل، المسكونةِ بوهمِ القدرة على أخذ زمام المبادرة بقوة النار والدمار.»

وتابعتُ: «يبدو أنّ خطة الحرب تسعى إلى تحقيق أهدافٍ لبنانيةٍ وإقليميةٍ أبرزُها:

ـ مَنْحُ معترضي الداخل اللبناني الذخيرةَ الاحتياطيةَ للانتقال من موقع الارتباك والانتظار المحرِج إلى موقع الإفصاح الضاغط على المقاومة وسلاحها... فما عجزت القراراتُ الدوليةُ الجائرةُ عن تحقيقه حتى الآن، بهدف نَقْلِ لبنان إلى خانة الإذعان والخدمةِ النشطةِ لمشروع الهيمنة الأميركي في المنطقة، تتوخّى بعضُ الأطرافِ اللبنانيةِ أن تُنْجِزَه لها آلةُ الدمار الإسرائيلية. فكأنّ تلك الأطراف توّاقةٌ إلى ما يريحها من عبء تحمُّل المسؤوليات للتخلُّص من قوة الردع الذاتية والاحتياطية المجرّبة، القادرةِ على مواجهة تهديدات وأخطار العدوان الإسرائيلي المتربِّص دوما بلبنان.

ـ استغلالُ الصمتِ والعجزِ والتواطؤِ الرسمي العربي، والضوءِ الأخضرِ الأميركي، والشلَلِ الدولي شبهِ الكامل (الأمم المتحدة)، للاقتصاص من القوة التي أذلّت الغطرسةَ الإسرائيليةَ وألحقتْ بها الهزيمةَ والاندحارَ من معظم الأراضي اللبنانية في أيار (مايو) ٢٠٠٠، ولاحتواءِ وتحجيمِ دور المقاومة اللبنانية تمهيدًا لنزع سلاحها.

ـ تحقيقُ اختراقٍ في جدار المقاومة والرفض العربي. والحيلولةُ دون تثبيت ميزانِ قوًى معنويّ يعزِّز الثقةَ بهزيمة المشروع الأميركي المترنِّح في العراق وأفغانستان.»

# أين أشباح المثقفين؟

وتضيف البرقية/المقالة السريعة. «تبدو حكومةُ إسرائيل عاجزةً عن تحقيق أيٍّ من الأهداف المعلنة وغيرِ المعلنة، وأبعدَ عن توفير الشروط لاستعادة أَسْراها في فلسطين ولبنان حيث تتغذّى الساحتان من عنفوان الصمود والمواجهة. فالحرب المفتوحة على لبنان لن تكون خاطفةً أو سهلةً؛ ذلك أنّ المقاومة تَمْلك ما يكفي من الإرادةِ، والرصيدِ الشعبي والمعنوي، والحكمةِ في إدارة الصراع، والقدرةِ العسكرية... لردمِ الهوّة السحيقة في الميزان العسكري التقليدي مع عدوها...»

لقد سُقْتُ هذه المقاطعَ للتذكير فقط، وأتركُ للقارئ أن يَستنتج مغزاها ومدى صحّتها بعد الهدنة المؤقّتة التي نَشْهدها الآن.

## من دوْر إلى دوْر!

في عصر «القرية العالمية» المزعومة والثورةِ التقنية والمعلوماتية، لم يَعُدْ للمتلقّي خيارٌ في رسم الصورة التي يَرْغب فيها عن المثقف النموذجي، بل أَضْحى المثقفُ هو مَنْ يتمكّن من لعبِ دوْر ما في صياغة الرأي وترويجه للمتلقّي. لم تَعُد الثقافةُ والمعرفةُ شرطًا مطلوبًا ومفترضًا لـ «المثقفين»؛ فلقد اقتَحَمَ مَنْ يساهم بالرأي والتعليقِ فضاءنا السمعيَّ والبصريَّ رغمًا عنّا.

والحقّ أنّنا يبدو وكأنّنا تواطأْنا في قبول تخلّي المثقف عن دورٍ نُسِبَ إليه عادةً في نشر الوعي والمعرفة أو المساهمة في خدمة قضية شعبه وقضايا الإنسان فلقد طغى الدورُ الوظيفي الدعائي الترويجي على حساب الدور المعرفي الإبداعي. والمثقف متّهم اليوم، أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، بتقديم خطاب تبريري أو تخديري، وفي أفضل الأحوال تفسيري لم يَعُدْ مهتمّاً بخطاب التنوير والتثوير، وكأنّ مرحلةَ التحرر الوطني العربية قد استُكْمِلَتْ! والأنكى هو ما نَشْهده في العقديْن الأخيريْن من نزوح بالجملة لمثقفين وناشطين من التيار اليساري إلى مقاعدِ الطوائف والقبائل والعائلات والزعماء التقليديين. ولم يَعُد الارتهانُ لأصحاب المال السياسي (الموظَّف طائفيّاً) ظاهرةً لبنانيةً بامتياز، بل أضحى ظاهرةً مشرقيةً وعربيةً عامة. وانغمس هؤلاء في الترويج لخطاب الهزيمة والاستسلام للمشروع الصهيوني الوكيل، أو لمشروع الهيمنة الأميركي الأصيل، تحت ستار «محاربة الاستبداد الداخلي ونشرِ الديموقراطية»

لقد تطورتْ صناعةُ الارتهان والارتباط بالأجنبي ارتماءً في أحضان المؤسسات الإعلامية وشبهِ البحثية، حتى صَدَقَ الاتهامُ بتكوّن فرقةٍ واسعةٍ من «المارينز الثقافي» يتوالدون كالأرانب تحت مسمّيات «المنظمات غير الحكومية» المختلفة التي تُغْدِقُ الأموالَ عليهم، أو يلتحقون بالمؤسسات الأميركية الحكومية أو شبه الحكومية يروِّجون لبضاعةٍ أميركيةٍ خاسرةٍ في العالمين العربي والإسلامي.

## مواقع المثقفين العرب

من الصعب حصرُ الخريطة الثقافية لانتشار المثقفين العرب من حيث المواقع والمواقف وحسب رؤيتي، فإنّهم يتوزعون على المواقع التالية

- الموقع الحزبي. وما أقلَّ المثقفين داخل الأحزاب السياسية الوطنية العربية، في مناخٍ لم تعد فيه الأحزابُ فاعلاً رئيسًا في الحراك السياسي والجماهيري العربي. والحال أنّ خيارات المثقف الحزبي محدودةٌ؛ فهو عاجز ـ للاعتبارات الحزبية والتنظيمية ـ عن خوض معركة التنوير الفكري والثقافي المطلوبة داخل الحزب وخارجه

- الموقع غير المنظَّم، ولكن المقرَّب من التنظيم الحزبي ويمارس المثقفُ من هذا الموقع قَدْرًا من الاستقلالية في خطابه، مع مراعاة الانسجام مع التوجّهات العامة للتنظيم المذكور.

- الموقع المستقلّ. ومع نسبية الاستقلال طبعًا، يلاحِظُ المراقِبُ احتشادًا كبيرًا لهذه الفئة التي تتنقل بين الرصيف والشارع . مع استحسان مقاعدِ الرصيف، حيث تَسْهل المشاهدةُ

دجوني باربرْ

أطفال في سلعا أثناء نشاطات «حملة المقاومة المدنية»

والانتقادُ، دون أن يكونَ لإطلاق المواقف أيُّ تبعات أو مسؤوليات.

ـ الموقع الملتبس بين المنظَّم والمستقلّ، حيث ينخرط المثقفُ في منظماتٍ ناشطةٍ غيرِ حكومية ليست لها صلةٌ بالتمويل الأجنبي، ويأمل أن يعوِّض بنشاطه عن شعوره بالعزلة بعيدًا عن الانخراط الحزبي، لغيابِ الأحزابِ التي تستحقّ ـ في رأيه ـ الانتماءَ إليها

يلاحَظ في الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان انحسارُ دور المثقفين المشغوفين عادةً باصدار الإعلانات والبيانات، ما عدا بالطبع المبادرة الطليعية التي صَدَرتْ عن مجلة الآداب.* فحتى النضالُ الإلكتروني، جلوسًا مريحًا في مقعدٍ أمام شاشة الكمبيوتر، كان أمرًا مكلِفًا ومنهِكًا عَجزَ البعضُ عن تحمُّله

المثقف الوطني في كلّ هذه الحالات ليس أمامه سوى التعبير الصادق عن نبضِ وطموحاتِ الشارع العربي، الذي عَبَّر عن اعتزازه بالمقاومة الوطنية اللبنانية صحيح أنّه لا يستطيع تغييرَ الوقائع في الميدان العسكري، ولكنّه قادرٌ بالتأكيد على أن يساهم في خوض المعركة الإعلامية والنفسية والمعنوية لدعم صمود الشعب والوطن والمقاومة.

قد يكون من المبكّر إجراءُ جردةِ حسابٍ لما فعله المثقفون خلال هذه الحرب. ولكنّ المواطن يدرك ويفرِّق جيِّدًا بين مَنْ ساهم في رفع معنوياته ودعم صموده ولو بالكلمة، وبين الذين تَحوّلوا إلى أبواقٍ تَنْعق بخطاب التشكيك والهزيمة والإحباط.

المفاجأة أن يستمرّ دعاةُ المشروع الأميركي في المنطقة ومبرِّري العدوان الصهيوني في نعيقهم فور وقف العمليات الحربية وقبل أن يَرْفع الوطنُ شهداءه من بين الأنقاض. هم بائسون لأنّهم راهنوا على القرارات الدولية أولاً ففشلوا، وراهنوا على العدوان الإسرائيلي المدعوم أميركيّاً ثانيًا ففشلوا، فهرعوا إلى تجنيد طابورهم السياسي والإعلامي للنيل من المقاومة عبر تفسيراتهم الانهزامية لقرار ١٧٠١ ـ علّهم يبرِّرون تقاعسَهم

* ـ تعليق الآداب راجع «بيان من عاملين وعاملات » في نهاية هذا العدد وللأمانة، فإنّ بيانًا قصيرًا آخر صَدَر بتوقيع عدد من الزملاء (بينهم يحيى جابر وإلياس خوري وأحمد برّون) (الآداب)

# أين أشباحُ المثقفين؟

وانطواءَهم خلال الحرب وبعدَها. ومُنْيتُهم إرباكُ الساحة الداخلية وإنهاكُها، وإرباكُ المقاومة... وكأنّهم لم يَسْمعوا تهديداتِ أولمرت بأنّه ينتظر الفرصةَ السانحةَ للثأر لهزيمة جيشه.

**بين أشباحٍ... وأشباح**

في إدارة معركة الصمود الأخيرة توفّرتْ قيادةٌ ميدانيةٌ استثنائيةٌ في صلابتها وحكمتِها وشجاعتِها وإخلاصِها وقدرتِها على إشاعة الثقة والطمأنينة. فبدلاً من الارتباك والاضطراب والتعويضِ عنهما بالتصريحات النارية، خيضت المعركةُ بكلّ هدوء واتّزانِ واقتدار، ولم نسمعْ مرةً واحدةً شعارَ اليأس «يا وحدنا!» رغم أنّ المتفرِّجين كانوا الأكثريةَ في الداخل وفي المحيط الأقرب والأبعد. ولم تَصْدر دعوةٌ واحدةٌ إلى التطوع والمشاركة في القتال. ولم تَجْرِ عملياتُ الاستعراض في أرض المعركة أو بعيدًا عنها، واعترف الأعداء بأنّهم يقاتلون الأشباح لقد بدا المقاتلون أشباحًا أشدّاء، بينما قبع بعضُ الخفافيش في جحورهم يَشْحذون حناجرَهم وأقلامَهم للطعن في المقاومة، ويحضِّرون توابيتَ الدفن لسلاحها، وبعضُهم يَحْلم بالجلوس مرةً أخرى إلى مائدة كونداليسّا رايس ليس لاستلام «أمر العمليات» بل لتوزيع المغانم المرتقبة من نجاح العدوان.

من النتائج المباشرة لانجاز الصمود اللبناني استعادةُ نهجِ المقاومة عافيتَه ومكانتَه في الخطاب السياسي والفكري والإعلامي العربي. وهذا ما يَطْرح مهمّاتٍ مستجدّةً على المثقف الوطني، الذي بدا مقصّرًا في مواكبةِ أطولِ مواجهةٍ بطوليةٍ عربيةٍ ضدّ آلة الحرب الإسرائيلية منذ بداية المشروع الصهيوني على الأرض العربية. وستبقى الساحةُ الفكريةُ الإعلامية والثقافية العربية تنتظر أن يتمّ دحرُ منطق مروِّجي ثقافة الهزيمة والخنوع والاستسلام، وتأمل أن يتحقّق ذلك بالتوازي مع الهزيمة الميدانية العسكرية التي لحقَتْ بأسيادهم.

وأضعفُ الإيمان أن يتحوّل المثقفُ بقلمه وصوته صدًى أمينًا وقويّاً لصوتِ المقاوم وفعلِه على أرض المعركة، وأن يسلِّط الضوءَ على كلِّ ما يَخْدم صمودَ الشعب المقاوم وتماسُكَه ووحدتَه على امتداد الساحة العربية، وخاصةً في فلسطين والعراق ولبنان.

ويبدو السؤالُ الملّح في هذه المرحلة: أين أشباحُ المثقفين؟!

**واشنطن**

**د. منذر سليمان**

باحث ومحلّل مدير مكتب مجلة **المستقبل العربي**، واشنطن

# انتصار المقاومة في ميزان حرب القيم

عبد الحق لبيض

يجب عدمُ أخذ تصريحات قادة إسرائيل عن ضرورةِ جولة ثانية وربما ثالثة ضدّ حزب الله على أنّها انعكاسٌ فحسب لواقع التدافع السياسي الداخلي بين الأقطاب الإسرائيلية. ولا ينبغي النظرُ إليها باعتبارها مجردَ دعايةٍ إعلاميةٍ تَهْدف إلى التأثير النفسي على المقاومة خاصةً، وعلى الشعب اللبناني عامةً. بل يجب أخذُها على محمل الجدّ، إذ لا يُعْقل أن تكتفي إسرائيلُ من الغنيمة بالإياب في حربها على حزب الله. الأكيد أنّ إسرائيل لم تعلن العدوانَ على لبنان لمجرّد تدمير البنية التحتية اللبنانية (التي تُدْرك أنّها ستُعمَّر)، ولا لقتلِ عددٍ كبيرٍ من المدنيين العزّل، ولا حتى لردع حزب الله أو إبعادِه عن الحدود الشمالية لفلسطين المحتلة وإنما دخلتِ الحربَ، وبتفويضٍ من القوى الإمبريالية العالمية، لمحاولة القضاء على **منظومة القيم** القائمة في المنطقة العربية، والمتمثّلة في المقاومة والصمود والممانعة، ولاستبدالها بقيم أخرى تُمكِّنُها من تطويع إرادة الأمة حتى يَسْهل على القوى الإمبريالية إعادةُ صياغة المنطقة وفقًا لِـ «مشروع الشرق الأوسط الكبير.»

في عهود الاستعمار القديم، كان الاحتلالُ المباشر، ونهبُ خيرات الدول المستعمَرة، والرغبةُ في التوسُّع وكسبِ أسواق جديدة، هي القضايا الأبرز في الأهداف العامة لهذا الاستعمار. ولم تكن مسألةُ تغيير القيم ذاتَ أولويةٍ كبرى، وإنْ لم تكن غائبةً عن أذهان الإدارات الإستعمارية آنذاك. أما الإمبريالية الجديدة، فهدفُها الأساسُ هو تغييرُ القيم. وهذا ما باشرت العملَ به في أفغانستان والعراق والسودان ولبنان وفلسطين، وفرضتْه في مناطق أخرى من العالمين العربي والإسلامي، بعد أن كانت قد بَشّرتْ به فكريّاً في مطلع التسعينيات من خلال مقولة «صراع الحضارات» التي رَوَّج لها أقطابُ الفكر الإمبريالي أمثال برنارد لويس وهنتنغتون وفوكوياما وغيرهم من منظِّري الصراع مع منظومة القيم الحضارية «القديمة.»

إنّ منظومة القيم الجديدة التي تسعى الإمبرياليةُ الأميركيةُ إلى فرضها على العالم تتمثّل في ما يعبَّر عنه في أدبيات الحداثة الغربية بـ «الإرادة العامة» ـ وهي الإرادة التي تكون معاييرُها مقبولةً باعتبارها صحيحةً وسليمةً، مثل مبدإ «قانون الكليّة» كما صاغه هابرماس. فهذا المبدأ يُرْغِم كلَّ الأفراد على القبول بالمعايير الأخلاقية التي تقود إلى فهمٍ للأخلاق قائمٍ على العقل ومبدإه الكلياني، ومَصُوغٍ ضمن معالمِ ثقافةٍ «كونية» تلغي الاختلافَ وقيمَ التعددية.

إنّنا، إذن، أمام محطة جديدة بعناوين مغايرة لما أسماه ألان توران «المرحلةَ الملحميةَ والقمعيةَ لحداثتنا» ـ ويَقْصد: الحداثةَ العقلانيةَ الغربية. فإذا كانت هذه الحداثةُ قد هدفتْ في الماضي إلى تحويل العالم إلى تقنية عبر تسييد قيم العقلانية المجرَّدة، فإنّها اليوم تسعى إلى فرض رقابةٍ كونيةٍ على القيم من خلال حرصها على اجتثاث كلِّ الإراداتِ المناهضةِ للتدجين والتعليب والخنوع.

ومعركة القيم، هذه، هي بالتحديد ما أشار إليه رئيسُ الوزراء البريطاني طوني بلير في محاضرةٍ له في «مجلس لوس أنجلوس للقضايا الدولية» عندما قال: «إنّ جيوشَ العالم الحرّ لا تحارب اليومَ من أجل دحر جيوش نظامية والانتصار عليها، أو بغيةَ إسقاطِ أنظمةٍ سياسية معادية، وإنما هدفُها تغييرُ القيم إنّنا نحارب من أجل أن نُعلِّمهم القيمَ الجديدة.» إنّ الإمبريالية، إذن، تحارب من أجل فرض قيم جديدةٍ تبدأ، في المنطقة العربية، من فرض إرادة الاستسلام ضدَّ العدو الصهيوني واشتراطاته، باعتبار ذلك هو البوّابةَ «الديموقراطيةَ» و«الحداثة.» وقد اتّخذتْ هذه الحربُ أشكالاً متعددة بدأتْ من الغزو المباشر، كما حصل في أفغانستان والعراق، إلى محاولةِ استثمار «عرب البيت» (بتعبير طارق علي) أو «الشحّاذين على عتبات الحكّام ومائدة الدول الكبرى» (بتعبير مظفّر النواب) المستعدِّين لترجمة شروط الإمبريالية إلى أجندةٍ وطنيةٍ مقدسة. وهذا ما حصل في لبنان بعد اغتيال الحريري، واستصدار القرار ١٥٥٩، وتوتير الجوّ السياسي لتمهيدِ الطريق أمام صراع داخلي يُعفي القوى الإمبرياليةَ من التدخل (وهذا ما لم يتمّ لهم) أو أمام تدخُّل عسكري مباشر يغيِّر قواعدَ اللعبة في المنطقة (وهذا ما تمّ بتكليفٍ مباشرٍ من هذه القوى لحليفتها في المنطقة إسرائيل)

# انتصار المقاومة في ميزان حرب القيم

من واقع هذه التفاعلات وأبعادِها المهدِّدةِ لكياننا الحضاري والقيمي، وَجَبَ الابتهاجُ بما حقَّقه صمودُ المقاومة اللبنانية في مواجهتها لأتون الحرب العالمية الجديدة على القيم. فقد كان لبنانُ مدخلاً جديدًا لإعادة صياغة «الشرق الأوسط» بما يَخْدم مشاريعَ الإدارة الأميركية التسلطية على الأمم، بعد أن تَعَثَّر في العراق وأفغانستان. لقد نُظِرَ إلى لبنان باعتباره الحلقةَ الأضعفَ في المنطقة، والمدخلَ السهلَ لتحقيق أهداف مشروع «الشرق الأوسط الجديد» الذي لَوَّحتْ به وزيرةُ الخارجية الأميركية في أول خروج إعلاميّ لها بعد أن دُكّت الضاحيةُ الجنوبية بالقذائف الذكية الأميركية. غير أنّ صمود المقاومة اللبنانية قَلَبَ قواعدَ اللعبة، وجَعَلَ من البوّابة اللبنانية جحيمًا لا يطاق لقوى الشرّ الإمبريالي.

لكنّ واقع الحال يشير إلى أنّ العدوان على الأمة العربية مستمرّ. فإوارُ هذا العدوان ما زال مشتعلاً على جبهة فلسطين وبوصلةُ الضغوط والإكراهات تتّجه الآن نحو إيران من خلال ملفّها النووي، وإلى السودان من خلال فرض إرسال «قوات دولية» إلى دارفور بما يتعارض مع سيادة الدولة السودانية واستقلالها. أما في لبنان، فإنّ العدوان على المقاومة سيستمرّ، وقد يؤجَّل، اليومَ، النظرَ في الخيار العسكري، نظرًا إلى صمود المقاومة، لكنْ لن يتمّ استبعادُه كليّاً في المستقبل. وأما الخيارات التي تُراهِن عليها اليومَ القوى الصهيو ـ الأميركية فيُمكن حصرُها في العناصر التالية:

**أولاً:** العودة مجدَّدًا إلى الرهان على «عرب البيت» أو «الكومبرادور المحلي» لتطبيق الأجندة الإمبريالية، وعلى رأسها نزعُ سلاح حزب الله كمدخلٍ أساسيٍّ لفرض سياسة «الواقعية» الدّاعمة للتفاوض المباشر مع الكيان الصهيوني. وبالمناسبة، فإنّ هناك نخبةً سياسيةً لبنانيةً مستعدةً لذلك في الوقت الراهن، بل وحبلُ وصالها ممتدٌّ مع الدوائر الرسمية في واشنطن، وبتزكيةٍ من أنظمةٍ عربية تتزعّم ـ بقدرةٍ قادرٍ ـ تيّارَ «الاعتدال» في الوطن العربي هذه الأيام!

**ثانيًا:** ضربُ ثقافة المقاومة والصمود في فلسطين من خلال مسلسل الاغتيال والاعتقالات والاختطافات، ومن خلال تحريك «عرب البيت» هناك من أجل تطويق حكومة «حماس» وإرغامها على الاستقالة (علمًا أنّ استقالةَ حكومة «حماس،» ورفضَها تشكيلَ حكومةِ وحدةٍ وطنيةٍ بإملاءات صهيو ـ أميركية، وعودتَها إلى خندق المقاومة، شرفٌ لها وليس فشلاً)، ليبدو ذلك انتصارًا للقوى الصهيو ـ أميركية ضدّ القوى المقاومة، ودرسًا لمختلف القوى المقاومة العربية والإسلامية الأخرى.

**ثالثًا:** محاولةُ إخراج سوريا من تحالفها مع إيران وحزب اللّه، وذلك بتقديم وعود لها على جبهة الجولان، ورفع الحصار الذي يطوِّقها، وإسكاتِ المعارضة الخارجية للنظام السوري المدعومة غربيّاً، مقابلَ تخلّي السلطات السورية عن دعم المنظّمات المسلّحة ـ سواء حزب الله أو المنظمات الفلسطينية التي تتخذ مقرّاً لها في دمشق.

تلك خياراتُ ما بعد فشلِ الاعتداء الإسرائيلي على لبنان. لكنْ إذا فشلتْ هذه الخيارات، فلن نتصوّر أنّ أميركا ستقف دون تحريك أسباب مغامرة عسكرية واسعة أُخرى ضدّ لبنان، وربما بعد انتزاع قرار جديد من الأمم المتحدة، وتحت البند السابع، يقضي بنزع سلاح حزب الله بالقوة. وستكون «القوى الدوليةُ» المحتشدةُ الآن في الجنوب اللبناني لاعبًا أساسيّاً فيه هذه المرة.

تأسيسًا على ما سبق يَظْهر أنّ عنوان المعركة العالمية اليوم ضد الأمة أصبح مكشوفًا. وعلينا، من ثمّ، أن نتنبّه إلى الأبعاد الخطيرة لهذه المعركة على الهوية والوجود العربيَيْن، وأن نخوضَ معركةً سياسيةً وفكريةً وثقافيةً ضدّ إرادة القهر العالمي لمنظومة قيمنا، وذلك من خلال:

**أولاً:** الكشف عن زيف خطابات جوقة المهلِّلين لثقافة السلام والحوار مع الكيان الصهيوني، والعمل على تنمية ثقافة المقاومة والصمود.

**ثانيًا:** الدعوة إلى إقامة حوار فكري صريح وواقعي حول واقع المذاهب الدينية في العالمين العربي والإسلامي، ولذلك لسدّ

غابرييلا بوليسوفا — الضوء من خلال زجاج مكسور في منزل جنوبي

الطريق أمام استغلال أميركا وحلفائها للاختلاف المذهبي في الفكر الديني الإسلامي.

**ثالثًا:** دعم حملة المقاطعة ضدّ الشركات الأميركية والسفارات والبعثات الأميركية داخل الدول العربية وبالمناسبة فإنّنا ننوّه بمشروع العريضة التي تحضِّرها فعالياتٌ من المجتمع المغربي، على رأسها «الجمعيةُ المغربيةُ لحقوق الإنسان» و«النقابةُ الوطنيةُ للصحافة المغربية» و«الجمعيةُ المغربيةُ لمساندة الكفاح الفلسطيني» ـ وهي عريضةٌ تَهْدف بالخصوص إلى مقاطعة كافة الأنشطة الرسمية التي تنظِّمها السفارةُ الأميركيةُ بالمغرب، ومقاطعةِ المنظمات والهيئات والمصالح المرتبطة بها، على اعتبار أنّ هذه المؤسسات ولواحقَها رأسُ الشرّ في أوطاننا ووكرُ رموز الكومبرادور المحلي.

**رابعًا:** عولمةُ قيم المقاومة للمشروع الإمبريالي ـ الصهيوني. وهذا يعني إخراجَها من الحيِّز الديني والقومي إلى الحيِّز العالمي من خلال استثمار مكتسبات القوى المعادية للإمبريالية عالميّاً، وتوظيف التعاطف الدولي مع المقاومة اللبنانية والفلسطينية. يُضاف إلى ذلك ضرورةُ استلهام أطروحات فكر «ما بعد الحداثة» الداعي إلى الاعتراف بحق الآخر في الحياة، واعتباره جزءًا من حضارةٍ إنسانيةٍ متعددةِ القيم والثقافات والانتماءات.

إنّ معركتنا جميعًا، مثقفين وسياسيين وفاعلين في المجتمع المدني والجماهيري، هي مواجهةُ تحدِّي الحرب العالمية للقيم التي تقودها الفاشستيةُ الصهيو ـ الأميركية، وذلك بمزيد من تثبيت قيم المقاومة والممانعة لدى الشعوب العربية

**الدار البيضاء**

**عبد الحق لبيض**

كاتب مغربي مراسل الآداب في المغرب

# في المثقفين العرب والمقاومة اللبنانية

إبراهيم علّوش

ثمة صحفٌ ووسائلُ إعلام تنقبض روحُك حتى قبل أن تقرأها أو تشاهدَها. وثمة أسماءٌ يصيبك مجردُ ذِكْرها بالغثيان لأنها تحترف كلَّ شيء إلاّ الحقيقة. فهي تَلْمع تحت شمس الثقافة، ولكنّه أشبهُ بلمعانِ بطونِ الأسماك النافقة على شاطئٍ ملوّث. ومشكلةُ تلك الأسماء ووسائِلها الإعلامية، بالأساس، أنّها قَرَأَتْك، أنتَ القارئ، خطأً، فقرّرتْ أن تستخفَّ بك مِنْ هناك، مِنْ عالمها الآخر، بعد أن تحوّلتْ إلى أشباحٍ.. أو لظلالِ شيءٍ ما، قد تَعْرفه أو لا تعرفه، ولكنّك تَشْعر تمامًا، في أعماقِك، بأنّه مصدرُ ذلك التلوّث، وأنّه مواتُ الروح في حدّ ذاته.

في المقابل، كم تساءلتُ: لماذا قاتَلَ وجُرِحَ واستُشْهِدَ عددٌ كبيرٌ من المثقفين الغربيين، البارزين والمغمورين، في الحرب الأهلية الإسبانية بين عامَيْ ١٩٣٦ و١٩٣٩؟ لماذا ذهب إرنست همنغواي، مثلاً، ليقاتلَ في إسبانيا؟ حتى جورج أورويل، الذي ارتبط اسمُه في سنين الحرب الباردة فيما بعد بروايات إيديولوجيةٍ مناهضةٍ للاشتراكية مثل **مزرعة الحيوانات** (Animal Farm) ورواية ١٩٨٤، كان قد قاتل في منطقة كاتالونيا في إسبانيا، حيث اخترقتْ رصاصةٌ رقبَته، قبل أن يعودَ إلى بريطانيا ليؤرِّخ تلك التجربةَ في رواية **تقديرًا لكاتالونيا** (Homage to Catalonia).

وقد قرأتُ مرةً أنّ تحوُّلَ الشاعر التشيلي پابلو نيرودا من الفردية والتمحور على الذات في أعماله الأولى، إلى الالتزام السياسي حتى النّخاع في أعماله اللاحقة، حَدَثَ بسبب الحرب الأهلية الإسبانية وفي خضمِّها. وثمة عشراتٌ غيره، شعراء وروائيون وكتّابٌ وصحافيون، تَركوا كلَّ شيء وذهبوا لحمل السلاح أو للانخراط ـ بشكلٍ أو بآخر ـ في صفوف المعسكر المناهض للفاشية في إسبانيا وإنّك، من دون أن تَعْرف شيئًا عن سجلّ الكاتب الشخصي وتاريخه السياسي، لتَشعُرُ بالفرق مرةً أخرى في أعماق روحك ما بينَ النصّ الذي تخطُّه يدُ طحلبٍ على هامش الواقع، ويدٍ تَكْتبُ بدمها؛ بين الخروج من الذات إلى الزمن، وبين التقهقر من الوطن إلى صَدَفَةِ الذات. والفرق ليس في الموقف السياسي فحسب، بل في الموقف من الحياة أيضًا، أيْ في طبيعة علاقةِ المبدع بالواقع، وبالتالي في بنية النص الأدبي أو الفكري نفسها.

ولأُوضحَ الفكرة، سآخذ مثالاً آخر عن علاقة المبدع بالواقع، لا علاقةَ له مطلقًا بالنضال، من رواية جاك لندن المعروفة **نداء البراري** (The Call of the Wild) فقد ذهب كاتبُها حين كان يافعًا إلى المناطق القطبية الشمالية، وعاش أشهرًا قاسيةً هناك للتنقيب عن الذهب، فلم يجد شيئًا، وعاد بخُفَّيْ حنيْن، ولكنّه أَنْتَجَ **نداء البراري** من وحي تلك التجربة المرّة، فباتت تلك الروايةُ هي الذهبَ الذي لم يجدْه يومًا، وواحدةً من أكثر الروايات المقروءة والمترجمة في العالم إنّ الكتابة العظيمة ليست تجربةً كيميائيةً يُمْكن إنتاجُها في المختبرات المعقّمة أو المحميّاتِ غيرِ الطبيعية صحيح أنّ رواية **نداء البراري** هي حكايةُ كلبٍ يتوق إلى الحرية على أطراف الصحارى الجليدية، ولكنها جاءت مخضَّبةً بمعرفةٍ حميمةٍ بالواقع، والأهمّ أنّها جاءت لتَعْكس علاقةً بالواقع يَلْعب فيها الكاتبُ دورًا فاعلاً إيجابيّاً، أيْ لتَعْكسَ منظورَ مَنْ يؤْمن بأنّه ندٌّ للتحدّي ومَنْ يستطيع صناعةَ التغيير حتى في أقسى الظروف، ولو ضمن أفقٍ فرديّ

فلماذا لا تأتي أعمالُنا الإبداعيةُ العربيةُ معجونةً بوحل الواقع على ذلك النحو . إلاّ عندما يكون موضوعُها التجاربَ العاطفية؟!

لقد انقسم المثقفون العرب في علاقتهم الوجدانية بالمقاومة اللبنانية إلى طرفيْن نقيضيْن، وسَقَطَ كثيرٌ منهم ما بيْن بيْن

غابرييلا بوليسوفا

خزّان ماء في حولا، «طار» وانطعج

فإمّا أنّهم باعوا أرواحَهم للشيطان سلفًا ليَنْعَوْا «الأعمالَ المغامرةَ» [أعمالَ المقاومة] بأرخصِ الأثمان في الصحف الصفراءِ، أو الخضراءِ، أو في فضائياتِ البترودولار، أو فضائياتِ الدولار (بدون البترو) وإمّا أنّهم صَعِدوا مع الموجة الجماهيرية بكلِّ حُسْنِ نيّةٍ على كتف إنجازات المقاومة دون أن يكونوا مِنْ روافعها فبَقُوا، في أحسن الحاليْن، وما بينهما، رغم الفروق الجوهرية من الناحية المبدئية، على هامش الواقع، وفي علاقةٍ سلبيةٍ به، أيْ في موقعِ المتلقّي المنفعل خارجَ المكانِ والزمان.

أين ذهب إرثُ ناجي العلي وريشتُه، وإرثُ غسان كنفاني وإبداعُه المقاوم؟ بل قلْ أين ذهب الشعرُ الفلسطيني المقاوم قبل أن يَهْجرَه ويهشِّمَه أربابُه ليتشرنقوا في الذات؟ والسؤال هنا ليس عن الأعمال الإبداعية في الأساس، ولا عن مَيْلِ المثقفين السياسي أولاً، بل هو أيضًا عن دور المثقفين العرب **العملي**. فنحن لم نجدْهم كجماعة، كموقف، أو كشريحة، أو كدوْر، كما وَجَدْنا المثقفين الغربيين في الحرب الأهلية الإسبانية مثلاً. لقد كان الوقتُ وقتَهم ولم يكونوا. والوقت، عندما يأتي ولا يجد مَنْ ينتظره، يصبح مقبرةً. والمقبرةُ تصبح شاهدًا على مقبرةٍ أخرى، هي في الواقع صحراءُ جليديةٌ كبرى قربَ خطّ الاستواء وتلك الصحراء تصبح وطنَنا، نحن الأحياءَ سكّانَ تلك المقبرة.

أين ذَهَبَ إرثُ ونموذجُ الشاعر العربي الفلسطيني عبد الرحيم محمود الذي استُشهد عن خمسةٍ وثلاثين عامًا في معركة الشجرة بين العرب والصهاينة؟ حَدَثَ ذلك في ١٣ تموز (يوليو) ١٩٤٨ (ويا له من تموزٍ مقاومٍ دومًا!). وكان عبد الرحيم محمود قد جَسَّدَ في حياته واستشهاده، بعد أنْ قاتَلَ في فلسطين وفي العراق في ثورة رشيد عالي الكيلاني، جوهرَ ما قاله في مطلع رائعته:

«سأَحْمل روحي على راحتي/ وأُلقي بها في مهاوي الرَّدى/ فإمّا حياةٌ تُسرُّ الصديق/ وإمّا مماتٌ يغيظ العدى/ ونفسُ الشريف لها غايتان وُرودُ المنايا ونَيْلُ المنى/ وما العيشُ؟ ما عُشْتُ إنْ لم أكنْ/ مَخُوفَ الجنابِ حرامَ الحِمى/ إذا قُلْتُ أصغى لِيَ العالمون/ ودَوّى مقالي بين الورى/ لَعَمْرُكَ إنّي أرى مصرعي/ ولكنْ أُغذّ إليه الخطى. »

# في المثقفين العرب والمقاومة اللبنانية

. . إلى نهاية تلك القصيدة ـ الموقف التي يتّحد فيها الشاعرُ بجسده وروحِه، قبل استشهادِه وبعدَه، بصورةٍ تُشرّف تراثَنا العربيَّ الحديثَ حتى بالمقارنة مع تراث المثقفين الغربيين في الحرب الأهلية الإسبانية

ولكنّها تبقى حالاتٍ فرديةً عندنا، موجودةً، ولكنْ دون أن تشكّل موقفًا لشريحةٍ قررتْ أن تَنْبذَ استلابَها لتلتحمَ بالواقع مهما كان الثمن، لتَنْحَتَه بأظافرها وتَطْليَه بدمها، ولينعكسَ ذلك على جودة إنتاجها، فتُلْهِم الناسَ بموقفها وبتضحياتها، لا بموقفها فقط... مع أنّ هذا أيضًا شحيحٌ، إلاّ مَنْ رَحِمَ ربي. وهو شحيحٌ كذلك على مستوى الإبداع، بالمناسبة، لا على مستوى الموقف السياسي وحده، كما يلاحظ المرءُ من أداء المثقفين العرب خلال تجربة المقاومة اللبنانية في صيف عام ٢٠٠٦، وتجربةِ انتفاضة الأقصى والمقاومةِ العراقية، باستثناء بعضِ الأغاني ربما.

ولا أقول إنّ الموقف النضالي، وممارستَه على أرض الواقع، يكفيان بحدّ ذاتهما لإنتاج كتابةٍ أو إبداعٍ متميزيْن، ولكنّها شرطٌ ضروريٌّ غيرُ كافٍ ـ شرطٌ لا بدّ منه للتميُّز التاريخي، إنْ لم يكن شرطًا للتميّز الفردي وأعترفُ بأنّي، كقارئ عربي عادي، أبدأ منحازًا دومًا للمثقف الذي ١) يلتحم بالواقع، ٢) ويستعدّ لدفع الثمن ـ وهو ما يميِّز كتابةً عن كتابة، وإبداعًا عن إبداع، في نهاية المطاف. فالمثقفون الغربيون لم يتطوّعوا في إسبانيا لأنّهم كانوا مأجورين للدول الغربية مثل بريطانيا أو فرنسا أو للاتحاد السوفياتي، بل لأنّ الفاشية الإسبانية ـ في رأيي المتواضع ـ كانت تستفزّ التقليدَ الديموقراطيَّ في أعماق بنيتهم الثقافية، ولأنّهم كأفراد وكشريحة كانوا مُخْلصين لقناعاتهم حتى الموت

وهنا بيتُ القصيد: ثمة دورٌ اجتماعيٌّ للمثقف العربي في هذه اللحظة التاريخية، وهو دورٌ نضاليٌّ مقاوم. فإنْ رَفَضَ المثقفُ دورَه، وأصرّ على الغربة عن المقاومة، فإنّه لن يحقّ له بعدَها أن يتأفّف وأن يتذمّر من النموذج البديل الذي تُنْتجه أرضُنا ـ ألاَ وهو نموذجُ العلماء المجاهدين. فالزمن لا ينتظر مَنْ لا ينتظره.

**عمّان**

**د. إبراهيم علّوش**

كاتب وأستاذ جامعي فلسطيني ناشط في «جمعية مناهضة الصهيونية والعنصرية»

# الأبعاد الإستراتيجية للعدوان الإمبريالي على لبنان

عبد الصمد بلكبير

## التناقضُ الرئيسي في عالمنا وخصوصيةُ منطقتنا

منهجيّاً، يجب ألا تَشْغلَنا الوقائعُ اليومية الطارئة عن التفكير في ما هو استراتيجيّ. ذلك لأنّ انفجار اليوم أو الغد ليس سوى وقائع لا يُمْكن أن تمتلك دلالاتِها الخاصةَ من ذاتها، بل أساسًا من موقعها في المكان والزمان التاريخي ـ وهو موقعٌ تَحْكمه قوانينُ عامةٌ ذاتُ طبيعةٍ استراتيجيةٍ وتاريخيةٍ وجغرافية ـ سياسية.

إنّ الطابع الرئيس للتناقض، ومن ثمة للصراع، في عالمنا المعاصر، لازال هو هو، بالرغم من التغيُّر الجزئي في مكوِّناته أو مظاهر تعبيره. فما زالت معالمه الرئيسية تتلخّص في ما يلي:

أ ـ بقاء التناقض بين الرأسمال والعمل، أو هو، من جهة، تناقضٌ بين الشركات المتعدِّدة والمتعدِّية الجنسيات وإداراتِ دولِها الاستعمارية غالبًا، وبين الطبقة العاملة في بلدانها الأصلية وبقيةِ الدولِ المستضعفة في الجنوب من جهة ثانية.

ب ـ لقد عمدتْ رأسماليةُ المراكز الإمبريالية إلى مضاعفة التركيز على الفائض الاقتصادي الناتج عن علاقة النهب والاستغلال الممارسيْن على شعوب الجنوب المستضعَفة وبذلك تحوّلتْ إداراتُ الدول الغربية إلى أداة رئيسية لتوفير شروط ذلك: ١ ـ بسياسات القروض الربوية المجحفة والمفسِدة لإدارات دول المستعمَرات وقيمِها وتقاليدِها. ٢ ـ بالعلاقات التجارية الدولية الظالمة وبالتبادل غير المتكافئ للسلع وللخدمات ٣ ـ بالتدخُّلات الصريحة والسافرة السياسية، وحتى العسكرية عند الحاجة، في تقرير وتوجيه السياسات العمومية لإدارات الدول التابعة. ٤ ـ بتخريب اقتصاديات مجتمعات الجنوب وثقافاتها، عبر اصطناع الحروب الأهلية أو الأزمات الاقتصادية والمالية، من خلال نهب ثرواتها الطبيعية (البترول خاصة) والدفعِ إلى هجرة الأدمغة.

من أهمّ أدوات الصراع حرمانُ الخصم من أسلحته أو فلُّها بين يديه. وهذا ما يحدث اليومَ في مظاهر عدّة يُعتبر من بين أهمها:

١ ـ إبرازُ البعد الهوياتي أو الثقافي أو الإيديولوجي على حسابِ ما هو من طبيعةٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ وسياسيةٍ (كالاستغلال والسيطرة والنهب)

٢ ـ خلطُ العلاقات، بل وإفسادُها، بين المعركتيْن الوطنية التحريرية ومعركة الديموقراطية. فهاتان متداخلتان ومتزامنتان اليوم، غير أنّ إستراتجيتيْهما مختلفتان.

٣ ـ اصطناع التنافرات بين مكوِّنات الأمة، ولاسيّما بين تيّاراتها الرئيسية: أ ـ الوطنية القومية التحرُّرية. ب ـ الاشتراكية الديموقراطية. ج ـ التيّار الهويّاتي، وعلى رأسه التيارُ الإسلامي التحرري. والحال أنّ العجز عن الجمع التوحيدي، الذي لا يكون على حساب حقّ كلّ تيار في استقلاليته الفكرية، هو اليومَ المسؤولُ الأولُ عن العجز العام في الصراع الوطني القومي ـ التحرري.

ما حدث في لبنان، وما يحدث في عموم الوطن العربي والعالم الإسلامي، هو جزءٌ من كلّ فقط. وإلاّ فإنّ الحروب والتخريب قائمة في العالم، ولكنْ بصمت في الغالب وسببُ ذلك في اعتقادنا ما يلي أ ـ الموقع الجغرافي السياسي لمنطقتنا؛ إنّها صرّةُ العالم، أو قلبُه، كما كان يُقال ب ـ تمركزُ البترول في هذه المنطقة بالذات، وهو ما هو بالنسبة لاقتصاديات وأنماط الحياة المعاصرة. ج ـ البعدُ الثقافي للصراع، وخصوصيةُ مواطني هذه المنطقة لجهة ذاكرتهم وتاريخهم العريق والمتميز، الأمرُ الذي يحصِّنهم ويسلِّحهم بشروط المقاومة؛ وهذا ما قد لا تجده الإمبرياليةُ في مناطق أخرى من العالم بهذه الحدّة.

لنتذكّرْ دائمًا أنّ الجغرافية السياسية للوطن العربي منتوجٌ استعماريٌّ أساسًا. ومن ثم فإنّ الذي أنتج إسرائيلَ، بوصفها كيانًا ذا وظيفةٍ واضحةٍ وسافرة، هو نفسُه الذي اصطنع لبنانَ لوظيفةٍ أخرى مكمّلةٍ ومتمِّمةٍ للاستراتيجية ذاتها. والحُكم نفسُه ينسحب على بقية الكيانات، إيجابًا أو سلبًا. وقد كان الهدفَ الأول من كلّ هذا هو التجزيءُ القُطْري، ومنعُ قيام الدولة القومية التي بدونها لا حرية ولا استقلال ولا تنمية ولا

# الأبعاد الإستراتيجية للعدوان الإمبريالي على لبنان

ديموقراطية. أما الهدف الثاني فيتجلّى في أنّه عندما يتعذّر التجزيءُ يتمّ الاعتمادُ على اصطناع كياناتٍ صغرى ضعيفةٍ توضَع إلى جوار بلدٍ يَمْلك الحدَّ الأدنى من مقوّمات الحياة والصمود (لا التقدُّم) وهكذا اصطُنِعتْ للسعودية دولةُ قطر والبحرين، وللعراق الكويتُ، ولسوريا لبنانُ والأردنُ، ولمصر السودانُ، وللمغرب موريطانيا و«الصحراءُ الغربية،» أما إسرائيل فاصطُنِعتْ للجميع!

في لبنان تلتقي التناقضاتُ وتحتدم الصراعاتُ بين الأطراف جميعها في المنطقة وخارجها، وبخاصةٍ الإمبرياليتان الأميركية والأوروبية (بقيادة فرنسا) من جهة، وغريماهما الرئيسان في المنطقة: سوريا ولبنان. وعندما عجزت الإمبرياليتان عن معالجة تناقضاتهما داخل لبنان من جهة، وبينهما وبين إسرائيل من جهة أخرى، فُرِضَ إضعافُ «الدولة» اللبنانية. وأدّى ذلك إلى ازدياد قوة المجتمع (خاصةً حزبُ الله) وتطابقِه مع استراتيجيةٍ جهويةٍ مناضلة تحررية شكّلها التحالفُ العربي (السوري) الإيراني. فنَتجتْ، لأول مرة، ثغرةٌ في الجدار الاستعماري، سيكون مآلَها الاتساعُ والانفتاحُ التدريجي لتحوُّلِ بقيةِ المناطق من توظيفها الاستعماري الذي أنشئتْ من أجله إلى وظيفةٍ أخرى مضادةٍ ومقاومةٍ وتحرُّرية.

إنّ المصير الحتمي لإدارات بقية الدول في المنطقة هو هذا النمط اللبناني بالذات فآليّاتُ العولمة ومنطقُها وقوانينُها تتجه صوب هذه الوجهة بالنسبة إلى جميع الدول، وخاصة التابعة وغير المقاومة. ذلك أنّ انفتاح الأسواق سيؤدّي حتمًا إلى انهيار الاقتصاديات الضعيفة. وسياسات العولمة ستحوّل جيوشَ الدول التابعة إلى شرطةِ أمنٍ داخلي لا تستطيع أن تحمي حدودًا لم يعد لها أصلاً وجود. كما ستصدِّر أزمات المراكز نحو أطرافها الجنوبية خاصةً، بما في ذلك الأزماتُ الثقافيةُ والسلوكية. . إلخ.

إنّ جميع هذه الأمور وغيرها تدلّ اليومَ على أنّه لا ملجأ للمجتمعات المستضعفة سوى نفسها. أما إدارات دولها فهي بصدد التخلّي عن مهامّها الأصلية تدريجيّاً باتّجاه تحمُّل مهامّ حارس المصالح الإمبريالية

إنّ نمط حزب الله هو في الغالب نموذجٌ سيتّسع تعميمُه إذا استمرت الأحوالُ والشروطُ كما هي، وذلك استهدافًا من قِبل المجتمعات لحماية ذاتها (ومثالُ ذلك حالةُ الصومال الذي تُرِك لمواجهة فنائه، فانتفض مستخدمًا منطقَ ووسائلَ حزب الله لإنقاذ أرضٍ بل وحياةِ شعبٍ ينقاد نحو نهايته). ولا شكّ في أنّ ثمة مكتسباتٍ ودروسًا عديدةً في معركة العدوان الأخيرة، أهمُّها في تقديري:

ـ بدايةُ استرجاع ثقة الجماهير العربية بنفسها وبطاقاتها وبقدرتها على النهوض اعتمادًا على إمكانياتها الذاتية ـ بل ومن دون الحاجة إلى «دولها.»

ـ سقوطُ أقنعةٍ وتحطُّمُ أصنامٍ عديدة وأهمُّ ذلك أنّ الرأسمالية (الأميركية خاصةً) ليست بالقوة التي لا تُقْهر، بل على العكس، فإنّها تحمل أعطابًا وتناقضاتٍ عدّة.

ـ بدءُ العدّ العكسي لوظيفة إسرائيل الاستراتيجية في المنطقة. فبعد العجز السابق عن توظيف أميركا لإسرائيل في العراق واضطرارِ أميركا إلى التدخُّل المباشر هناك، ها هي إسرائيل تُثْبت عجزَها عن الضبط والتحكُّم في بلدٍ جارٍ ضعيف، وانتهت إلى الأبد خرافةُ التفوق الإسرائيلي، وتبيَّن أنّ قوة الإسرائيليين وانتصاراتهم السابقة لم تكن سوى الوجه الآخر لعجز الأنظمة ولسيطرةِ الأساطير والأوهام على نفسيةِ طبقاتها السائدة.

ـ إنّ مواجهة الاستراتيجية الاستعمارية لا يمكن أن تكون ناجعةً باستخدام أسلحتها ومنطقها، بل عن طريق استراتيجية تعتمد العلمَ والابتكارَ التقني وتنظيمَ الشعب والاعتمادَ عليه وتعبئته.

ـ إنّ معالجة التناقضات الاجتماعية ـ السياسية الداخلية لا تتمّ إلاّ بتصديرها نحو العدوّ الخارجي، أيْ نحو صانعها في النظام

غابرييلا بوليسوڤا

عائلة في صريفا

الرأسمالي الدولي، وبالتالي تحويلها إلى عنصرٍ محفِّزٍ على المقاومة من أجل التحرُّر والاستقلال. عندئذ فقط تأخذ آلياتُ الديموقراطية مواقعَها ووظائفَها في معركة التحرر الوطني والاستقلال الاقتصادي ـ الاجتماعي والعلمي والثقافي الأولوية، إذن، هي للتحرُّر وللوحدة. وعلى الحريات وحقوقِ الإنسان والديموقراطيةِ أن تشتغل وتوظَّفَ لخدمة ذلك الهدف لا غيره

هذه المعركة المجيدة هي، كسابقاتها ولواحقها، جزءٌ من حرب شاملة تَصْرفها الإمبرياليةُ بشتّى الإخراجات والأساليب ضدّاً على شعوب الأرض جميعًا ـ وفي المقدمة منها اليوم شعوبُنا العربية. وتواجهها مقاوماتٌ شاملةٌ شعبية أساسًا، تُستعمل فيها الأسلحةُ الصامتة الخفية والباردة، وأخطرُها هو من طبيعة ثقافية ـ دينية لحفظ الحياة أولاً ولحفظ الوجود عن طريق التضامن وعن طريق بناء أُسَرٍ هي أقربُ إلى خلايا للمقاومة ومن الأطراف المقاومة أيضًا العديدُ من التنظيمات المدنية السياسية والنقابية والحقوقية والنسائية والشبابية والدينية المكافحة بجميع الوسائل والسبل، بما في ذلك العسكرية، وخاصةً في فلسطين والعراق والصومال. فضلاً عن مقاوماتِ بعضِ إدارات الدول كسوريا وإيران.

لا شيء يدعو إلى اليأس، بل على العكس. ذلك أنّنا أمةٌ متحرِّكةٌ وناهضة وتنتظر التحاقَ الجميع بالمعركة ضدّ العدو نفسه واستهدافًا للأهداف المشتركة عينها: التحرر، الحرية، الديموقراطية، التنمية.. إلخ إنها معركة إما أن تكون إنسانية أو لا تكون.

**الدار البيضاء**

**د. عبد الصمد بلكبير**

فاعل سياسي أستاذ جامعي بكلية الآداب، القاضي عيّاض

# فلسفة حرب التحرير الشعبية

سيِّد البحراوي

كنتُ أُعِدُّ حقيبتي الصغيرة للخروج في رحلة قصيرة، أحاول بها تجاوزَ الشعور بالوحدة والعجز والإحباط الذي يلازمني منذ سنوات عديدة، حينما فتحتُ ـ مصادفةً ـ التلفزيونَ وعرفتُ خبرَ أسْرِ الجنديّيْن الإسرائيليّيْن.

تركتُ الحقيبة، وجلست

انتابني الشعورُ المزدوجُ بالسعادة والقلق.

مبرِّرُ السعادة كان واضحًا لكنّ مبرِّر القلق كان مركَّبًا: هل حَسِبَ حزبُ اللّه جيدًا حجمَ الخسائر التي سوف يتكبّدها لبنان؟

وهل ما سيحقِّقه من أهداف (حَدَّدَها منذ البداية بتحرير الأسرى) يستحقّ كلَّ هذه الخسائر؟

وهل ستنحصر مثلُ هذه الحرب في لبنان وحده؟

بدأتُ الاتّصالَ بالزملاء والأصدقاء كان القلقُ غالبًا عليهم، ولكنْ من دون أيّة إدانة؛ كانت ثمة تساؤلاتٌ فقط. كان هدفي واضحًا: أن يتجمّعَ أكبرُ عدد ممكن من المصريين في مكانٍ محدّد، ويُعْلنون الإضرابَ عن الطعام حتى إغلاقِ السفارة الإسرائيلية في القاهرة وسحبِ السفيرِ المصري من تل أبيب.

لم يتحقّق هدفي، وظللنا منذ الثالث عشر من يوليو نقيم المظاهراتِ الصغيرةَ في أماكن مختلفة من القاهرة والمحافظات، ونَجْمع الدعمَ العيني، ونوقِّع البيانات، ونقيم اجتماعاتِ التضامن ولكنّ الهدف لم يتحقّق.

في الأيام الأولى لم أكن أعرف حجمَ القوة الميدانية للمقاومة، كما لم أكن أعرف أنّه قد حُسِبَ حسابُ كلّ شيء بدقةٍ تامة، بما في ذلك ضعفُ الدعم الشعبي العربي بفعل القيود الرسمية المفروضة على الشعب العربي. وكانت مفاجأتي حينما أدركتُ أنّ المقاومة توقّعتْ ما لم أتوقّعه: فقد توقّعتْ هذه الخيانة العظمى من أنظمة عربية وقوى سياسية عربية. ويبدو أنّ الإسرائيليين أنفسَهم لم يتوقّعوا أن يحاربوا بلدًا عربيّاً بدعمٍ سياسي وعسكري من بلدانٍ عربية!

استندت المقاومةُ في مواجهةٍ كلّ ذلك إلى قوةٍ ذاتيةٍ محَض، وإنْ كانت مدعومةً بسلاح أصدقاء لا شكّ في أهميّته القصوى لكنّه ـ أي السلاح ـ لم يكن **وحدَه** ليستطيع أن يحاربَ على هذا النحو، ويحقِّقَ هذه الانتصارات. لقد سَمّى السيد حسن نصر اللّه (القائد العظيم الذي امتلَكَ كلَّ صفات القيادة الحقّة) هذه الحرب بـ «حربِ العصابات،» وهي تسميةٌ غيرُ صحيحة على الإطلاق. فهذه، في الحقيقة، **حربُ تحرير شعبية** عرفتْها شعوبٌ عديدةٌ: في مصر ١٩٥٦ وما قبلها، وفي أميركا الجنوبية، وفي فيتنام، وفي غيرها وغيرها. وقد انتصرتْ هذه الشعوب بهذا النمط من الحرب الذي لا يحتاج إلى عدد وعتاد في مثل قوة العدوّ بالضرورة، ويستند إلى الطاقات الشعبية الدافقة والمرنة والتي لا نهاية لها، خاصةً إذا كانت الأرضُ مناسبةً لمثل هذه العمليات.

حرب التحرير الشعبية التي قادها حزبُ اللّه استندتْ، إذن، إلى فلسفةٍ نَجَحَ الحلفُ العولمي في المنطقة والعالم في إضعافها إلى أقصى حدّ إنّها فلسفة المقاومة وهي فلسفةٌ يمتزج فيها العلميُّ بالديني بالسياسي بالأخلاقي بالإنساني على نحوٍ لم يتحقّق في أيّ حركةٍ من حركات المقاومة العربية الحديثة.

استندت المعركةُ إلى أساس معرفةٍ علميةٍ مدروسةٍ بالقوى الذاتية، وبالعدوّ، وبمجرى الأوضاع في المنطقة والعالم. كما استندتْ إلى الاستفادة العلمية المحسوبة بالطاقات والإمكانيات المتاحة عسكريّاً وسياسيّاً وإعلاميّاً إلى أقصى درجة ممكنة. واستندتْ إلى عقيدة إسلامية راسخة، مدعومةٍ دون شكّ بروح الاستشهاد الشيعي، وكذلك بمبدإ التقيّة الذي كان شديدَ الفائدة عسكريّاً وسياسيّاً وإعلاميّاً، دون أن تكون هذه العقيدة مدّعيةً ومتشدِّدةً وطاغيةً.

وهنا كان الخطابُ الوطني هو الخطابَ السياسيَّ السائد. فقد وَضَعَ مصلحةَ لبنان والعرب ـ مسلميهم ومسيحييهم ـ فوق كل مصلحة أخرى، وحاول التواصلَ مع مختلف القوى بغضّ النظر عن دينها أو طائفتها ولقد تجاوب معه العربُ، أقصد الشعوبَ

غابرييلا بوليسوڤا

كتاب في الضاحية الجنوبية

بمختلف أديانها، وكذلك الشرفاءُ من العالم أيّاً كانت عقيدتهم رغم كل الفتاوى المغرضة.

ليس كلُّ المتديّنين أخلاقيين، والأمرُ عينُه ينطبق على السياسيين. لكنّ حزب اللّه خاض حربًا التزمتْ بالأخلاق السامية: نَطْلب الحقَّ والحريةَ والعدل، ونلتزم بها للآخرين أيضًا، ولا نَضْرب المدنيين كلّما كان ذلك ممكنًا... عكسَ إسرائيل التي حَطّمتْ ـ كعادتها ـ كلَّ مواثيق حقوقِ الإنسان وشرائعِ الحرب.

هذه القيم ليست قيمَ حزب اللّه وحده، وإنّما هي طموحُ الإنسان في كلّ زمان ومكان وقد حاربت المقاومةُ الإسلاميةُ من أجلها، وانتصرتْ من أجلها. ففي حين لم تتحقّق الأهدافُ المعلنة بعد، أيْ تحريرُ الأسرى ومزارع شبعا، فإنّها ستتحقق في القريب بحسب قراءتي لسير الأحداث.

ثَمَّ دمارٌ فظيعٌ، لكنّ إصلاحَه سهل، ما دام الهدفُ الأسمى قد تحقّق وهو: نجاحُ فلسفة المقاومة التي أعادت إلى المنطقة، وخاصةً إلى الأجيال الجديدة التي لم تَشْهدْ في حياتها وقفةَ كرامة أو صمودٍ في مواجهة البغي والإذلال والمهانة التي تمارسها إسرائيلُ وأميركا ضدّها، هذه الفلسفة أعادت الأملَ في الحياة، وفي إمكانية الفعل، وإمكانية الانتصار.

تبقى بعد ذلك الخطورةُ الفادحةُ التي تُمثِّلها ضغوطُ الأعداء في الداخل والخارج، الذين أرعبتْهم فلسفةُ المقاومة وانتصارُها. هذه الضغوط تسعى ـ وهذه مصلحتُها الطبيعية ـ إلى إجهاض الانتصار، والقضاءِ على هذه الفلسفة لكنّي واثق بأنّ المقاومة، التي ينبغي أن تتضافرَ معها كلُّ قوى المقاومة العربية والإسلامية والعالمية، قد استفادت من الدروس جيدًا، وسوف تواصل انتصاراتِها رغم المخاضِ الأليمِ والتضحياتِ الفادحة

**القاهرة**

**د. سيِّد البحراوي**

كاتب مصري

# دروس من لبنان: إعادة التفكير في حركات التحرر الوطني

حميد دباشي

- ١ -

«ملاحظة: لا مباريات مونديال في هذا الوقت.» كان توقيتُ الندوة التي نظّمها سماح إدريس في نادي الساحة عند السابعة والنصف مساءً من يوم ٢٠٠٦/٦/٢٩ محسوبًا لأنّه لا يتزامن مع أيّ من مباريات كأس العالم ربع النهائية في ذلك العام. وكانت الجولةُ نصفُ النهائية قد انتهت في ٦/٢٧ بهزيمة غانا على يد البرازيل (٣ ـ ٠)، وإسبانيا على يد فرنسا (٣ ـ ١). كان اللبنانيون (والفلسطينيون) سعداءَ حقّاً، بدليلِ كثرةِ الأعلام البرازيلية والفرنسية على امتداد مناطق بيروت السكنية والتجارية (بل والمخيّمات الفلسطينية أيضًا)، وسط شبهِ غيابٍ لأعلام غانا أو إسبانيا وراح الناس يستعدّون ليوم ٦/٣٠، حيث تقرَّر أن تُنازلَ ألمانيا الأرجنتينَ، وإيطاليا أوكرانيا. لذا خَطّط سماح إدريس، رئيسُ تحرير مجلة الآداب وأحدُ مؤسِّسي نادي الساحة، لعقد هذه الندوة بين ٤ مباريات حاسمة، أملاً في جلب أكبر جمهورٍ ممكن. وقد كان على حقّ: فقاعةُ «نادي الساحة» المتوسّطةُ الحجم في وطى المصيطبة ضاقت بروّادها حتى اضطرّ بعضُهم إلى الوقوف هذا وضَمّت الندوةُ ثلاثةَ متحدِّثين أحمد دلاّل ورانية المصري وأسعد أبو خليل ـ وهم مثقفون وأكاديميون لبنانيون مميّزون، تولّى كلٌّ منهم تباعًا الحديثَ عن الإمبراطورية الأميركية واستراتيجياتِ التصدّي لها.

- ٢ -

كانت الثقافةُ البهيجةُ والخفّةُ اللّعُوبُ المتمثّلتان في تناوُلِ أكثر المصائب السياسية في التاريخ المعاصر إلحاحًا (وأعني الإمبراطورية الأميركية)، والتنبُّهُ في الوقتِ نفسِه إلى إرضاء الأهواء التي تثيرها مباريات كأس العالم، تستند جميعُها إلى أريحيّةِ نفسٍ لا تُبَزّ، ولا يستطيع أن يَسْبرَ غورَها ويَمْتلكها ويُظْهرَها إلاّ بضعُ ثقافاتٍ مُدُنيةٍ في كوكبنا هذا إنّ الامتياز الكوزموبوليتاني والثقافةَ السياسيةَ الحيّة في لبنان، وكلاهما كان واضحًا لأيّ زائرٍ مرهَفٍ إلى بيروت قبل حزيران ٢٠٠٦، ينبغي عَزْوُهما إلى الشجاعة الأخلاقية والقياسية لبلدٍ قُيِّض له اليومَ أن يَلْعب دورًا محوريّاً في تاريخ المنطقة.

لعلّ أبرزَ خاصيّةٍ في هذه الروح المُدُنية الكوزموبوليتانية في الثقافة السياسية اللبنانية هي أنّها متجذِّرةٌ في تجاربَ تاريخيةٍ شاقّةٍ لوطنٍ عانى الأمَرّيْن طوال عقود من هجراتٍ فلسطينيةٍ متتالية، واجتياحاتٍ إسرائيليةٍ وحشية، واحتلالٍ سوريّ عدائي، وتدخُّلٍ إيرانيٍّ ماكر، ونزاعٍ طائفيٍّ مزمن؛ تعزِّزها جميعَها فوارقُ طبقيّةٌ صارخة، وتستند إلى خلفية مخيّماتٍ فلسطينيةٍ متهدِّمة وطبقةٍ تحتيةٍ ناشئةٍ مكوّنةٍ من السيريلانكيين وغيرهم من «العبيد» المعاصرين. وعليه، فإنّ لبنان يَنْضح ثقافةً سياسيةً كوزموبوليتانيةً لا برغم الفواجع التي يضجّ بها تاريخُه الحديث، وإنّما من خلال تلك الفواجع

بحلولِ تموز ٢٠٠٦، وقبل أيام فقط من انفلات الوحشية الإسرائيلية الهائلة ضدّ اللبنانيين، كانت مُدُنيةُ لبنان الكوزموبوليتانية مرسومةً على محيّاه ـ من أشدّ فقرائه ومحروميه إلى أثرى أحيائه فعلى امتداد خمس سنوات ـ من الهزيمة الإسرائيلية المخزية في جنوبي لبنان عامَ ٢٠٠٠ إلى اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري سنة ٢٠٠٥ ـ تمكّنَ هذا الأخيرُ من استدراج استثماراتٍ أجنبيةٍ هائلة، في الوقت الذي بدأت فيه الميولُ الكوزموبوليتانية داخلَ الثقافة السياسية اللبنانية تمارس سحرَها، وراحت الفئاتُ السياسيةُ المتقاتلة تعمل معًا من أجل بناءِ حكومةِ وفاقٍ وطني عقب عقودٍ من الحرب الأهلية المدمِّرة. غير أنّ البدء بمرحلة إعادة الإعمار بعد الحرب لم يَعْنِ أنّ إسرائيل كانت ستسمح لجارها بسلوك هذا الدرب؛ ولعلّ اغتيالَ إيلي حبيقة عام ٢٠٠٢، وهو أحدُ رموزِ مجازر صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢، بعيْد كشفِه نبأَ توفُّره على تسجيلات تَدْحض روايةَ إسرائيل عن المجازر، أَظْهرَ أنّ تدخّل إسرائيل الغدّارَ في الشؤون اللبنانية لم ينتهِ بمجرّد هزيمة جيشها وانسحابه من لبنان عامَ ٢٠٠٠. بل هي هدّدتْ لبنان بعملٍ عسكري في أيلول ٢٠٠٢ إنْ أصرّ اللبنانيون على الانتفاع بمياه نهر الوزّاني ثم اغتال الإسرائيليون أحدَ أعضاء حزبِ اللّه في آب ٢٠٠٣ هذا علاوةً على بقاء مئات المجاهدين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية، ورفضِ إسرائيل تسليمَ

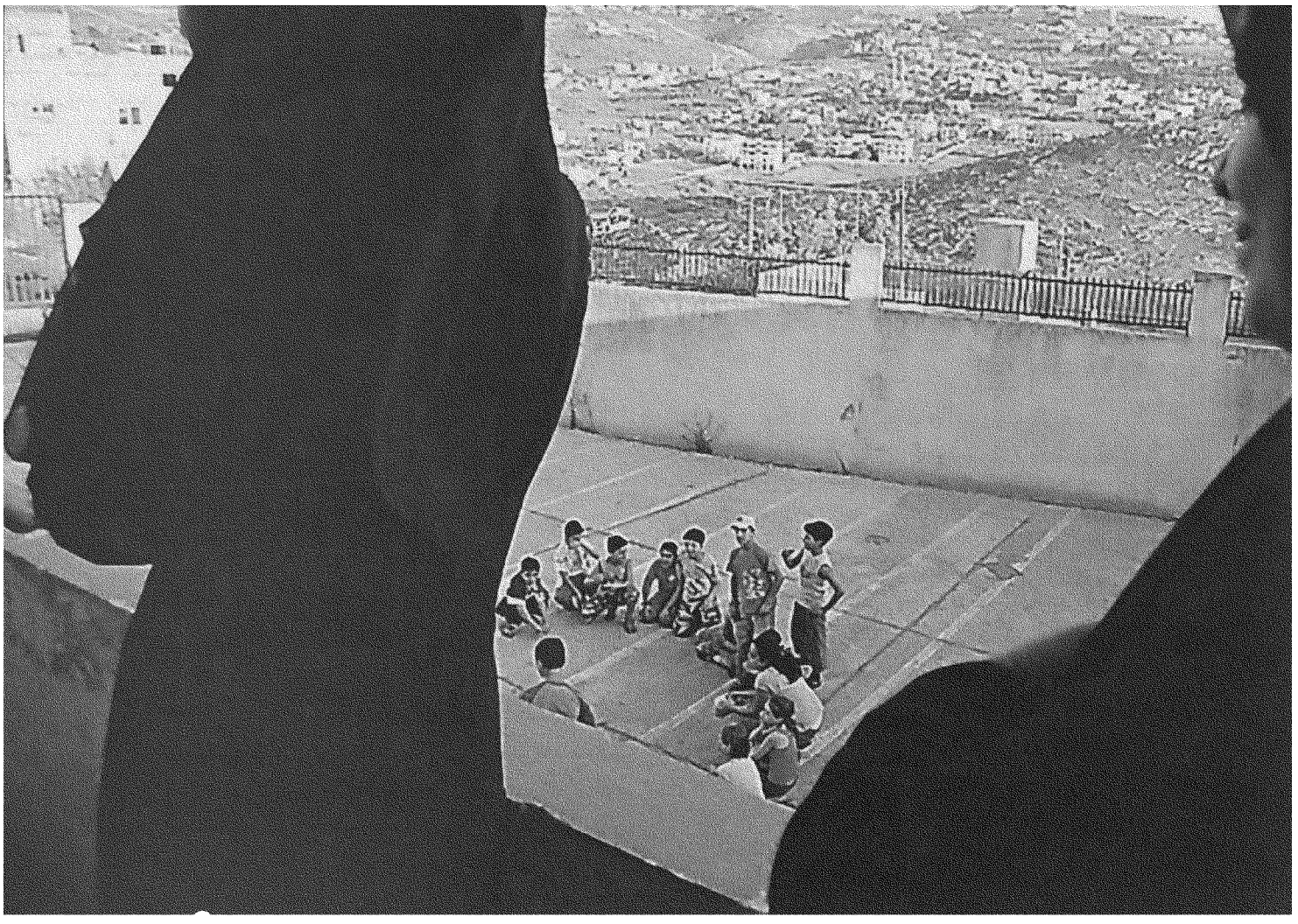

غابرييلا بوليسوڤا

آولاد يلعبون في سلعا على مرآى من المعلمات

خارطةِ الألغام التي خلّفتْها في الجنوب عقب هزيمتها التاريخية، ومواصلةِ احتلالها غيرِ الشرعي لمزارع شبعا اللبنانية.

لطالما كان لبنان صورةً عن عيوب العالم العربي والإسلامي، وعن وعوده المحتملة أيضًا؛ ذلك أنّ السياسة فيه تتراوح بين الطائفية المدمِّرة والكوزموپوليتانية النابضةِ بالحياة. وقد دَفَعَتْ سنةُ ٢٠٠٥ بهذه المفارقة التاريخية إلى ذروتها؛ فهذه السنة حَمَلَتْ إلى لبنانَ الأسى والتضامنَ معًا المطالبةَ الواضحةَ بالحرية والديموقراطية، والخسائرَ الباهظةَ ثمنًا لتحقيق هذيْن المثاليْن. ففي شباط ٢٠٠٥ قُتل الرئيس رفيق الحريري بسيارةٍ مفخَّخة في بيروت اغتيال الحريري، الذي كان محطَّ إعجاب مجتمع رجال الأعمال اللبنانيين والطبقة الوسطى ومحطَّ انتقاد اليسار التقدُّمي، أَشْعَلَ المشاعرَ المؤيِّدةَ والمعارضةَ لسوريا وأدّى إلى استقالة حكومة عمر كرامي. وبحلول آذار ٢٠٠٥ كان مئاتُ آلاف اللبنانيين قد شاركوا في تظاهراتٍ معارضةٍ ومؤيِّدةٍ للسوريين في بيروت. وبعد شهور من الضغوط على سوريا لسحب قواتها من لبنان، انصاع الرئيس بشّار الأسد لإرادة اللبنانيين الجماعية ـ التي صادقتْ عليها الأممُ المتحدة واستغلّتها أميركا وفرنسا ـ فأَنْهى الاحتلالَ السوريَّ للبنان غير أنّ ذلك لم يكن خاتمةَ الأوجاع اللبنانية. ففي حزيران ٢٠٠٥ اغتيل سمير قصير، وهو صحافيٌّ بارز كان حادّاً في نقده للوجود السوري في لبنان ولكنّه صَمَتَ ـ إلى حدٍّ يثير الفضول ـ عن أشكالٍ أخرى من الاضطهاد والاحتلال في المنطقة

ما وُصِف بأنّه «ثورةُ الأرز» من قِبل المحافِظين الأميركيين الجُدد، وبأنّه ثورةُ «غوتشي» من قِبل اليسار التقدُّمي اللبناني، واصل مسارَه. ومالت الطبقةُ البورجوازيةُ اللبنانية إلى خطٍّ سياسيّ موالٍ لأميركا وفرنسا، ومعادٍ لحزب اللّه والفلسطينيين وفي هذه الظروف فاز تحالفٌ معادٍ لسوريا، بقيادة سعد الحريري، بمعظم مقاعد المجلس النيابي، الذي انتخب رئيسَ وزراء متحالفًا مع الحريري، هو فؤاد السنيورة لكنّ الأوضاع السياسية في لبنان كانت ماتزال في مرحلةِ المَطْهر. ثم قُتِل جورج حاوي، الأمينُ العامّ الأسبق للحزب الشيوعي اللبناني، وكان معاديًا للسياسة السورية. ولكنْ، رغم كلّ هذا الاضطراب، فقد حصل اجتماعٌ في تموز ٢٠٠٥ بين السنيورة والأسد، اللذيْن بدأا العملَ من أجل علاقاتٍ ثنائيةٍ جديدة غير أنّ الصحافي النائب جبران تويني المعادي لسياسة سوريا اغتيل هو أيضًا ومع ذلك، وأيّاً مَنْ كان وراء هذه الاغتيالات، فإنّه يبدو أنّ الديموقراطية البرلمانية اللبنانية الهشّة قد استطاعت أن تُبقي لبنانَ غيرَ ممزَّق. ولم يكن ذلك بالرغم من السياسات الفئوية فيه بل ـ وهنا المفارقة ـ بسببها.

# دروس من لبنان: إعادة التفكير في حركات التحرّر الوطني

- ٣ -

عشيّةَ شنّ إسرائيل هجومَها الوحشي على لبنان في منتصف تموز كانت ثمة أسبابٌ كثيرةٌ للقول بأنّ لبنان على طريق تجاوُزِ آلامه التاريخية، وبربرياتِ جاره الصهيوني السابقة، والحربِ الأهليةِ الشريرة التي غذّاها هذا الجارُ عمدًا. فلقد انتهى الاحتلالُ الإسرائيلي عامَ ٢٠٠٠ وهو يجرُّ أذيالَ العار، واستنفَدَت الحربُ الأهليةُ انقساماتِها الفئويةَ الداخلية، وبقي لبنانُ واحدًا روحًا وجسدًا، وانسحب السوريون، وتظاهر ثوريُّو «غوتشي» بمئات الآلاف في آذار ضدّ سوريا فكَشفوا عن حضورهم الكبير ومثلَهم فعلَ مئاتُ الآلاف من المحرومين ـ وبخاصةٍ الشيعة ـ فبان حجمُ الطرفيْن كبيرًا يُحْسَبُ له حساب. وبدا أنّ ثمة توازنًا مقبولاً بين الطبقات والمصالح، وائتلافًا من الممثلين السياسيين عابرًا للفالق السياسي. كما ظهر أنّ أمام اللبنانيين طريقًا كفاحيّاً يعزّز إمكانيةَ بناءِ اقتصادٍ فاعلٍ وثقافةٍ سياسيةٍ نابضةٍ بالحياة. إذن، وأيّاً ما كانت إنجازاتُ رفيق الحريري وإخفاقاتُه، فقد بدت بيروتُ ناضحةً بالثقة: احتشدتْ محلاّتُها بالبضائع والزبائن، وامتلأتْ مخازنُها بالفواكه والخضار، وازدحمتْ نواديها بالنشاطات الثقافية والفنية، وغصّت شاشاتُها بالبرامج التلفزيونية.

كان ثمة فارقٌ واضح، صراعٌ يجري قُدُمًا، بين بورجوازيةٍ نشطةٍ وطبقةٍ عاملةٍ معانية وعَبْر هذا الصراع كان ثمة تاريخٌ يتشكّل، وحركاتٌ سياسية تتكوّن، وهياكلُ إيديولوجية تُبنى، ووطنٌ يُجْمَع من مشاعرَ مشتركةٍ متناثرةٍ هنا وهناك.

مع حلول نيسان ٢٠٠٥ غادرت القواتُ السوريةُ لبنان، وازداد الضغطُ على حزب اللّه من أجل التخلّي عن سلاحه بعد أن صار الحزبُ جزءًا من حكومةٍ ما بعد اغتيال الحريري. كما بان الضغطُ واضحًا من أجل دفعه إلى فكّ ارتباطِه الضارّ بالجمهورية الإسلامية في إيران «شكرًا جزيلاً، لا نريد دولةً إسلاميةً في لبنان» ـ كان ذلك لسانَ حالِ أكثرِ اللبنانيين. نعم، إنّ جمهورية إسلامية واحدة في إيران كانت تكفي لتكونَ بجوارِ دولةٍ يهوديةٍ تُشبه الإمبراطوريةَ المسيحيةَ وترجِّع أصداءَ الأصولية الهندوسية. لم يكن لبنانُ ليُظهر أيّةَ إشاراتٍ إلى قدرته على تحمُّل مثل هذه الفواجع على العكس: كان مليئًا بوعودِ بناءِ ثقافةٍ توفيقيةٍ كوزموبوليتانية هي تمامًا نقيضٌ للكوابيس الثيوقراطية الأحادية («المطهَّرة» عرقيّاً). وكان يكفي أن تمشي على الكورنيش بين مقهى الروضة وتمثالِ جمال عبد الناصر في عين المريسة، لتَلمَحَ المحجَّبات يوازين النساءَ بالبيكيني عددًا، ولتَسمعَ السياراتِ تَصدح بأغاني عبد الحليم حافظ وفيروز، ولتشاهدَ النرجيلاتِ عامرةً، ولتلحظَ الشاشات الضخمة وقد تحلّقَ حولها الناسُ ليروا كيف «نطحَ» زين الدين زيدان المُدافعَ الإيطاليَّ ماركو ماتيراتزي لم يكن في لبنان ما يشير إلى أنّه سيكون مَعْقِلاً للتعصُّب الديني على غرار الدولة اليهودية، أو الجمهورية الإسلامية، ناهيك بالمستعمرة المسيحية التابعة للإمبراطورية الأميركية ولئن بدت رؤيتي هذه إلى لبنان ما قبل الغزو الجديد بريئةً بعضَ الشيء، فإنّ هذه البراءة هي تحديدًا ما كان يستعدّ الوحشُ الأوروبيُّ الهائجُ المسمّى «إسرائيل» للانقضاضِ عليه وقَتْلِه

- ٤ -

إنّ نظرةً سريعةً إلى الوحشية الشريرة التي استخدمتْها إسرائيلُ لغزو لبنان تبيِّن أنّ هذا الغزو ١) كان مخطَّطًا له منذ زمن؛ ٢) أنّه شملَ لبنانَ بأسره لا أهدافًا تخصّ حزبَ اللّه وحده؛ ٣) أنّه كان يَستهدف، على خطى النموذج الرامسفيلدي المسمّى «الصَّدم والترويع،» شلَّ السيادةِ الوطنية والمجتمع والاقتصاد والسياسة في لبنان لجيلٍ قادم. فلقد قامت إسرائيلُ «بأكثر من ٧٠٠٠ هجوم جوّي و٢٥٠٠ قصف بحري، مركّزةً بشكل خاص على المناطق المدنية... وغالبيةُ الضحايا اللبنانيين الـ ١١٨٣ لم يكونوا مقاتلين، وأفادت التقارير بأنّ ثلثَهم من الأطفال» (**فاينانشال تايمز** ٢٠٠٦/٨/٢٣) ولم يقتصر الغزوُ الوحشي على الخسائر المدنية طبعًا (وهذه علامةٌ إسرائيليةٌ مسجَّلة في فلسطين) ولا على تهجير أكثر من مليون شخص من منازلهم، بل عمدتْ إسرائيل

غابرييلا بولبسوڤا

متْجر في الضاحية الجنوبية

إلى قصفِ ٨٠ جسرًا والاعتداءِ على محطّات الوقود وخزّانات المياه التي «لا قيمة لها عسكريةً واضحةً» بحسب منظمة العفو الدولية (المصدر السابق). ووجّهت الطائراتُ الإسرائيلية «ترسانتَها المتطوِّرةَ من الأسلحة الدقيقة إلى نسيج الاقتصاد اللبناني،» فقصفتْ ما لا يقلّ عن «٤٥ معملاً ضخمًا» للأثاثِ والمنتوجاتِ الطبيعية والقماش والورق والألبان. «وما لم يُقصف من الشركات تعطَّلَ عملُه بسبب الحصار الإسرائيلي.» وتَذكر **الفايننشال تايمز** أنّ الاقتصاد اللبناني «كان قبيْل القتال الذي اندلع [في تموز] يتّجه إلى أفضل سنواته منذ أكثر من عقد، فقد ارتفعت الصادراتُ بنسبة تفُوق ١٠٠٪ عن عام ٢٠٠٥، وازدهرت السياحة...» (٥ ـ ٢٠٠٦/٨/٦).

إنّ توسُّعَ أعمال إسرائيل لتَشملَ مناطقَ في الشمال والشرق، مستخدمةً كلَّ أنواع الأسلحة، يُظْهر أهدافَ الدولة اليهودية بدقّة، وهي: إعادةُ لبنان إلى الحرب الطائفية، وتحويلُ الطبيعة الكوزموپوليتانية للبنان إلى محض قتالٍ بين المسلمين والمسيحيين، بحيث تبدو الدولةُ اليهوديةُ «طبيعيةً» في المنطقة. وما فشلُ إسرائيل الساحق في هدفها الخبيث إلاّ دليلٌ على بدويّتها القَروسطية التي هي في صميم دولتها اليهودية، وعلى الطبيعة الكوزموپوليتانية للمقاومة الوطنية اللبنانية.

إنّ الاندراجَ السريعَ لحزب اللّه في نسيج المجتمع المدني والثقافة السياسية في لبنان، وهو اندراجٌ يماثل تقريبًا اندراجَ حماس في حركة التحرّر الوطنية الفلسطينية، سيَخلق نموذجًا لتعدُّديةٍ ديموقراطيةٍ تشكّل بالنسبة إلى المخطِّطين الأميركيين المحافظين الجدد ونظرائهم الصهاينة في إسرائيل خطرًا مرعبًا على استراتيجياتهم البربرية القائمة على إرهاب الدولة والغطرسةِ الإمبريالية ويُمكن بسهولةٍ تقليدُ النموذج اللبناني والفلسطيني في العراق بحيث يتحوّل الصراعُ الطائفي المفبرك هناك، والذي انبثق وتعزَّزَ عقب الغزو الذي قادته الولاياتُ المتحدة، باتجاه خلقِ حكومةِ توافقٍ وطني ستكون في ذاتِ نفسِها معاديةً للاحتلال الأميركي ـ البريطاني غير أنّ هناك ثلاثةَ أطراف تواجه مثلَ هذا الحلّ البنّاء في العراق أ ـ الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوروبيون وشركاؤها الإسرائيليون؛ ب ـ تنظيم «القاعدة» الأميركيُّ الصنع والأفغانيُّ المَركز؛ ج ـ الجمهورية الإسلامية في إيران. كما أنّ الحركة الإصلاحية الوليدة قد تتمتّع بزخمٍ جديدٍ في الجمهورية الإسلامية نفسها إن تمّ تزْويجُها (أيِ الحركة) بحركاتِ التحرُّر الوطني التقدُّمية في لبنان وفلسطين والعراق والأمر نفسُه قد يَنطبق على الحالة المتخلِّفة الفاسدة المتمثِّلة في

حزب البعث في سوريا وأوتوقراطية النظام السوري المتقادمة. صحيح أنّ الغضب المشروع للمثقفين المعارضين السوريين قد انحطّ إلى مواقفَ مزريةٍ في تأييدها للأميركان بما يَجعل منهم أشبهَ بشركاء عجيبين للمحافظين الجدُد في أميركا وإسرائيل، غير أنّ المعارضة المشروعة نفسَها قد تكون جزءًا لا يتجزّأ من انتفاضةٍ وطنيةٍ [معادية للإمبريالية] ضدّ الأوتوقراطية المذكورة. وباختصار، فإنّ بمقدور لبنان وفلسطين أن «يصدِّرا» ثقافتَهما السياسيةَ الكوزموبوليتانية إلى العراق وإيران، بدلاً من أن تصدِّرَ الثورةُ الإسلامية وحُكمُ التوريثِ السوري الفاسدُ قبليَّتيْهما وثيوقراطيَّتَهما في الاتجاه المعاكس. غير أنّ إسرائيل (والولايات المتحدة) هي العدوّ اللدود لأيّ ثقافة كوزموبوليتانية كتلك. فإسرائيل ترى العالمَ على صورتَها القبليّة. إنّ الدولة اليهودية لا تستطيع إلاّ أن تتعامل مع نزعاتٍ ثيوقراطيةٍ شبيهةٍ بنزعاتها ولذا تحتجّ الدولةُ اليهوديةُ أكثرَ ممّا ينبغي على الجمهورية الإسلامية في إيران، وهذه تحتجّ أكثرَ مما ينبغي على تلك. غير أنّ على بقيّة العالم أن تبتعد عن الأوهام الجاهلة التي تكتنف القراءةَ الأوروبية ـ الأميركية للوضع الحالي، فترى كيف أنّ إسرائيل والجمهوريةَ الإسلامية هما في الحقيقة وجهان لعملةٍ واحدة، وأنّهما من ثم تحتاجان وتَطلبان إحداهما الأخرى. فكلا النظاميْن يريد العالمَ على صورته: قبليات رثّة في جهاز دولةٍ ثيوقراطي إنّ الولايات المتحدة وإسرائيل ـ الأولى إمبراطورية مسيحية والأخرى دولة يهودية ـ هما العدوّان الكونيّان للثقافات الكوزموبوليتانية التوفيقية، وهما تفضّلان أن تحيط بهما «القاعدةُ» وجمهورياتٌ إسلاميةٌ لأنّ هذه الأخيرة تثبّت ثقافاتِهما القَروسطية وعقليةَ «نحن في مواجهة هم.» إنّ الدولة اليهودية لا تؤكّد ضرورةَ وجود جمهورية إسلامية في إيران فحسب، بل ضرورةَ وجود جمهورية إسلامية في فلسطين وجمهورية إسلامية في لبنان أيضًا. وكلّما زادت الجمهورياتُ الإسلامية في جوار إسرائيل، شعرت الدولةُ اليهودية بالألفة

ـ ٥ ـ

السؤال الأساسي، قبل الخلوص إلى أيّ درسٍ مديد عقب الوحشية الإسرائيلية في تموز ٢٠٠٦، هو: كيف نقرأ ظاهرةَ حزب اللّه؟ فواشنطن، معقلُ المحافظين الأميركيين الجدُد، تُماثلُ بين حزب اللّه والإرهاب. والمراقبون الأوروبيون، الذين يُفترض أن يكونوا أكثرَ تقدُّمية، يُبْدون انزعاجًا واضحًا من ظاهرة حزب اللّه ويماهون بين المقاومة الوطنية اللبنانية ونزعةِ المغامرة العسكرية فالصحفي البريطاني المخضرم روبرت فيسك، مثلاً، لم يضيِّعْ فرصةً واحدةً لكي يذمَّ حزب اللّه، وليساوي دونما خجلٍ بين «فظائع حزب اللّه» و«الفظائع الإسرائيلية» (**الاندبندنت** ٢٠٠٦/٨/١١)، مصرّاً على أنّ «حزب اللّه هو الذي أثار هذه الحربَ الأخيرة،» ومحذِّرًا من أنّ الإسرائيليين، بغزوهم لبنان، «سيشرِّعون حزبَ اللّه .. الذي هو جيشٌ رثٌّ من العصابات المقاتلة» (**الاندبندنت** ٢٠٠٦/٨/٥) ـ وكأنّ هذا «الجيش الرثّ» كان يَفتقر إلى الشرعية قبل أن يمثِّلَ ويدافعَ عن كرامةِ جماهير لبنانية «رثّة» هي الأخرى من الفقراء والمحرومين!

من المحافظين الأميركيين الجدد إلى روبرت فيسك، كانت ظاهرةُ حزب اللّه اللبناني هي النقطةَ المركزيةَ لآلة البروپاغندا المدافعة عن إسرائيل. كانوا كلُّهم يتصرّفون وكأنّ ذلك الشيء المسمّى «حزب اللّه» سَقَطَ من السماء على الأبرياء اللبنانيين، فمنَعَهم من العيش بسلامٍ وازدهارٍ مع جارهم الجنوبي الديموقراطي المسالم السخيّ! لكنْ أليس مقاتلو حزب اللّه، واللبنانيون الذين يمثّلونهم، لبنانيين أيضًا؟ إنّ حزبَ اللّه ليس عصابةً من سكّان المرّيخ هَبَطوا على لبنان؛ إنّه في لبنان مثلُ «حماس» في فلسطين، ومثلُ «جيش المهدي» في العراق. كلُّها تمظهراتٌ سياسيةٌ لمكوّنات مقموعةٍ سياسيةٍ، ومحرومةٍ عبر التاريخ ـ هي مكوّناتٌ لحركاتِ تحرّر وطنية ثلاثٍ. إنّ المبالغة في التركيز على هذه الحركات وكأنّها محضُ تنظيماتٍ سياسيةٍ تَخْلط الحقيقةَ السياسية لهذه المجموعات المحرومة (من فقراءِ لبنانَ وفلسطينَ والعراق) بتمظهراتها التنظيمية العَرَضية إنّ بمقدور إسرائيل أن تَقْتلَ حسن نصر اللّه في لبنان وخالد مشعل في فلسطين،

غابرييلا بوليسوڤا

ملاك خالد من «حملة المقاومة المدنية» في مارون الراس

وبمقدور الولايات المتحدة أن تَقْتلَ مقتدى الصدر في العراق، غدًا (فقط لو استطاعتا ذلك) لكنّ عشرةً من أنصار اللّه والمشاعل والمقتدين سيُولدون في ضاحية بيروت الجنوبية وغزة والنّجف. فحزبُ اللّه وحماس وجيشُ المهدي تعبيراتٌ عَرَضيّة ثلاثةٌ عن ثلاثِ حقائق جوهريةٍ ومتجذِّرة سياسيّاً وديموغرافيّاً. إنّ فقراء جنوب لبنان (الشيعةَ بالمصادفة) قد حُرِموا تاريخيّاً من نصيبهم العادل في الحياة السياسية اللبنانية؛ ومثلهم الفقراء والمحرومون الفلسطينيون (المسلمون بالمصادفة)؛ ومثلهم الفقراء والمحرومون العراقيون (الشيعة بالمصادفة هم أيضًا) حزب اللّه وحماس وجيش المهدي ليست تفاهاتٍ مصنَّعةً ولا مجموعاتٍ من المغامرين المقاتلين شأن «القاعدة» التي خَلَقَها الحلفُ الأميركي ـ الباكستاني ـ السعودي بهدف قتال الروس ومنع انتشار الثورة الإسلامية الإيرانية نحو الشرق. حزب اللّه وحماس وجيش المهدي حركاتٌ شعبيةٌ إنّها عارُ حركات التحرّر الوطني في لبنان وفلسطين والعراق التي فَشِلت تاريخيّاً في إدراج الجماعات المحرومة الدونية المستضعفة ضمن مشاريعها التحرُّرية

أما بالنسبة إلى حزب اللّه تحديدًا، فمنذ اللحظة التي أَسقطتْ فيها الهمجيةُ الإسرائيليةُ قذيفتَها الأولى على أهدافها اللبنانية، تحوَّلَ الحزبُ من حركةٍ فئويةٍ شيعيةٍ مقاتلةٍ إلى جيشِ تحرّرٍ وطني. وإنّ تاريخ حركات التحرُّر الوطني كلِّها، من ڤيتنام إلى أفريقيا إلى أميركا اللاتينية، يَشْهد على أنّ هذه الحركات قد تنحطّ إلى أورامٍ عنيفةٍ أو قد ترتفع إلى حركاتِ تحريرٍ وطنيةٍ، وذلك بحسب ظروف تطوُّرها التاريخي وليس ثمة ما يساعد عصاباتٍ مقاتلةً على أن تَتزعّم القيادةَ الوطنية أكثرَ من غزوٍ عسكريٍّ وحشيّ تقوم به قوةٌ إمبرياليةٌ أو كولونيالية. ولنا في «الخمير الحمر» بزعامة پول پوت في كمبوديا، والجيشِ الثوريِّ بزعامة هوشي منه في ڤيتنام، مثالان صارخان على الانحطاط والارتفاع المذكورَيْن

لا مستحيلَ في عالم الإمكانيات السياسية أثمة خطرٌ، إذن، من أن ينحطَّ حزبُ اللّه اللبناني إلى محضِ فصيلٍ إيراني، فيختارَ أن يؤسلمَ حركة التحرُّر الوطني اللبنانية، ويعملَ على إنشاء جمهوريةٍ إسلاميةٍ في لبنان؟ أثمة خطرٌ أن تؤسلِمَ «حماس» حركةَ التحرُّر الوطني الفلسطينية وتنحطَّ إلى حدّ المطالبة بجمهوريةٍ إسلامية في فلسطين؟ أثمة خطرٌ أن يفعل الأمرَ نفسَه جيشُ المهدي في العراق؟ لا شيء سيُسْعِدُ إسرائيلَ وأنصارَها الأميركيين أكثرَ من أن يتحقّق هذا الكابوسُ، وسيَفْعلون كلَّ ما في وسعهم من أجل ذلك، أيْ من أجل تحويل حركات تحرُّر

# دروس من لبنان: إعادة التفكير في حركات التحرر الوطني

وطني كوزموبوليتانية توفيقية (بملحظ أنّ حماس، عبر «وثيقة الأسرى» التي وقّعتْها، قد اعترفتْ، ضمنًا، بإسرائيل) إلى حركاتِ تعصُّبٍ دينيّ استبداديةٍ تبرِّر ـ في ذاتِ نفسِها ـ وجودَ دولةٍ يهوديةٍ إلى جوارها لكنّ ثمة حقيقةً أساسيةً من ثلاثة مشاهد مختلفة تَدْحض مثلَ هذه الإمكانية وتبشّر ببناء ثلاثِ ثقافاتٍ سياسية تعدُّدية وكوزموبوليتانية ستكون كابوسًا للدولة اليهودية والجمهورية الإسلامية والإمبراطورية المسيحية معًا. وأعني الحقيقةَ الديموغرافيةَ. ففي لبنان والعراق يشكّل الشيعةُ غالبيةً طفيفةً، وفي فلسطين ليست «حماس» إلاّ فصيلاً أساسيّاً من أربعة فصائل سياسية رئيسية أخرى. على حزب اللّه أن يشاركَ السُّنّة والمسيحيين والدروزَ، مثلما أنّ على الشيعة في العراق أن يشاركوا السُّنة والأكرادَ، وعلى حماس في فلسطين أن تشارك «فتح» و«الجهاد» و«الشعبيّة» و«الديموقراطية » وفي هذا المجال فإنّ الإسلاميين في لبنان وفلسطين والعراق نقيضُ الإسلاميين في إيران، حيث يشكّل الشيعةُ الغالبيةَ العظمى من مواطنيها إنّ التعدُّدية الديموغرافية المحظوظة في لبنان وفلسطين والعراق تَعْمل لصالح مجتمعٍ تعدُّديّ وثقافةٍ سياسيةٍ كوزموبوليتانية، في حين أنّ الغالبية الشيعية في الجمهورية الإيرانية (أكثر من ٩٥٪) تعطي الافتراضَ الخاطئ بأنّ المجتمع هناك مجتمعٌ «إسلامي» ـ وهو افتراضٌ خاطئ يُعزِّزه النظامُ و«معارضوه» المزعومون في صفوف الإصلاحيين، ويستخدمونه استخدامًا سياسيّاً فظّاً من أجل تدمير وتفكيكِ الثقافة السياسية الكوزموبوليتانية الإيرانية التي تضمّ الإسلاميين طبعًا لكنّها لا تقتصر عليهم وحدهم

إنّ هذه القراءةَ الطائفيةَ للسياسات الإقليمية لن تكون صحيحةً إلاّ إذا نظرنا إلى هذه الدول على أساس تقسيماتها **الطائفية** وميولها الطائفية، متجاهلين التاريخَ الطويلَ والشاقَّ لحركاتها التحرُّرية **الوطنية**. وفي لبنان وفلسطين والعراق، بل وفي إيران أيضًا، اضطرّ الإسلاميون إلى أن يَكْسوا مشاعرَهم الدينية بمصطلحات قومية واضحة ـ ومن ثم نرى القوةَ التحرُّرية لحركات التحرُّر الوطنية التي ما تزال تحرّك تلك البلدانَ من أجل النهوض في وجه كلّ المخطّطات الكولونيالية والإمبريالية التي تهدِّد سيادتها

لكنّ علينا بالمثل أن ننبِّه ثوريِّي «غوتشي» اللبنانيين العنيدين، أنصارَ رفيق الحريري ـ سمير قصير، الذين انحطّوا ـ فيما هم يُطْلقون دعواتِهم المشروعةَ إلى الانسحاب السوري من لبنان ـ إلى الاعتقاد بأنّ الولايات المتحدة حليفتُهم! فلتكن الأيامُ الـ ٣٤ الوحشية من القصف والمجازر الإسرائيلية، المدعومةُ من الولايات المتحدة وبريطانيا وحتى فرنسا، درسًا لثوريي «غوتشي» في لبنان ولنظرائهم السوريين بضرورة الربط المؤسّساتي بين قلقِهم الليبرالي (المشروع جداً) على قضية الطبقة الوسطى من جهة، وبين قضيةِ تحرُّرهم الوطني ـ بحيث تتوجّه قضيّتُهم ضدّ النظام السوري والإيراني بقدْر ما تتوجّه ضدّ إسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي (وبخاصةٍ بريطانيا التي سَمَحتْ للصواريخ الأميركية الصنع بأن تُرسَلَ عبر أجوائها ومطاراتها إلى إسرائيل لقتل المزيد من اللبنانيين) إنّ المحافظين الجدد الأميركان والإسرائيليين أو البريطانيين ليسوا أصدقاءَ أيِّ حركةِ تحرُّر وطني، سواء من الطبقة الوسطى أو غيرها. وإنّ الصور العملاقة لرفيق الحريري، والتمثالَ الأكبرَ من المعتاد لسمير قصير، تحتاج حاجةً ماسّةً إلى أن تعيدَ النظرَ فيها حركةُ تحرُّرٍ وطنيةٌ جماهيريةٌ تقدُّميةٌ وكوزموبوليتانيةٌ في لبنان ـ حركةٌ ينبغي أن يكون حزبُ اللّه على الدوام جزءًا لا يتجزّأ منها

**د. حميد دبّاشي**

أستاذ الدراسات الإيرانية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا في نيويورك والمقال جزءٌ من مقالٍ أطول كتبه بالإنجليزية حصّيصًا لـ الآداب وترجمه رئيسُ التحرير ويمكن مراجعة النسخة الإنكليزية الأطول قريبًا في **Al-Ahram Weekly**.

# الكتاب لإنقاذ ما بقي من طفولة؟

فاطمة شرف الدين

من أصعب الأمور التي نواجهها اليوم في لبنان كمربّين، كأمّهات وآباء، مواجهةُ أطفالنا بالواقع الفظيع الذي عاشوه في الحرب الإسرائيلية الأخيرة على وطننا. عادةً، القناة الأسهل التي يجب اتخاذُها لنقلِ أو تبسيطِ تجربةٍ معيّنةٍ يمرّ بها الطفلُ هي الكتاب؛ إذ من خلال أدب الأطفال تُمْكن معالجةُ أيِّ موضوع يَشْغل فكرَ الطفل، وأيِّ وضعٍ صعبٍ يعيشه. فكما نقرأ لأطفالنا عن زيارة الطبيب أو عن أولِ يوم في المدرسة، عن الديك الخجول أو فرخِ البطّ الجبان، فإنّ علينا أن نقرأ لهم عن الحرب.

إنّ أطفالَ لبنان اليوم في حاجة جديّة إلى الكتاب الذي يَعْكس لهم بعضَ ما جرى. للأسف، أغلبُ الأطفال الأبرياء رأوا أبشعَ صورٍ متلفزة لما قام به العدوُّ المتوحّش. وبالطبع فإنّ مشاهدة الموت والخراب على التلفاز أو على الصفحات الأولى من الصحف اليومية شيءٌ مرعبٌ للطفل ـ ناهيك عن رؤية هذا الطفل لما حَصَلَ بأمّ العين. فكيف نواجه كلَّ هذا الجيل الصغير؟

تعدّدت المشاكلُ النفسيةُ، والأجوبةُ قليلة.

أدب الأطفال هو واحدٌ من الأجوبة، ولكنْ أين هو؟

أين كتبُ الأطفال العربية التي تعالج، بجدّيةٍ، مواضيعَ كموضوع الحربِ أو الموتِ أو فقدانِ أغلى ما لدى الطفل؟

غنيٌّ عن القول إنّ أدب الأطفال في العالم الغربي اجتاز مراحلَ متقدِّمة جداً على أدبنا في العالم العربي، وذلك لأسباب عديدة لا مجالَ لذكرها هنا، وفيه يمكن أن نقرأ عن عددٍ لا يُحصى من موضوعاتٍ تتعلّق بتجارب صعبة ومآسٍ يتعرّض لها الأطفال وأمّا عندنا، في غالبية كتب الأطفال، فمازلنا نعاني عدمَ الجرأة على كسر محرَّماتٍ وُضِعتْ، أو وضعناها نحن، نُصْبَ أعيننا، ككتّاب أو ناشرين، لهذا النوع من الأدب، واتجهنا إلى مطابقةِ ما نعتقده الأكثرَ «شعبيةً» عند الأهالي أو المربّين الذين نعتمد عليهم. وهنا خطأ أيضًا، في اختيار وشراء الكتاب للأطفال.

الآن، جاء الامتحانُ الأصعب، والوقتُ المناسب، لكسر هذه المحرَّمات، وللكتابة **للأطفال** لا للكبار على الكاتب أن يتنبّه، في هذه المرحلة الصعبة التي يمرّ بها الطفلُ اللبناني (كنظيره الفلسطيني أو العراقي)، إلى حاجات هذا الطفل وكيفية معالجتها. وإنّها لمهمّةٌ حسّاسة. فنحن، ككتّاب، لا نريد عرضَ ما جرى للطفل بنسخةٍ مبسّطة، وعلينا ـ قَطْعًا ـ ألاّ نعالجَ أمورًا عدةً في كتابٍ واحد (وهنا أتكلّم عن الطفولة المبكّرة ـ ٦ سنوات وما دون). بل على الكاتب أن يأخذ منحًى واحدًا من الحرب، ويحوكَ قصةً مبسّطةً حوله. ومن الضروري جداً أن يعي الكاتبُ أنّ هدف الكتاب ليس الوعظَ، ولا التعليمَ، ولا سردَ ما جرى بطريقةٍ مسطّحة، بل تأليفُ حبكةٍ يستطيع الطفلُ، بطريقةٍ ضمنيةٍ وغيرِ مباشرة، أن يقارب بين أحداثها وشخصياتها من جهة، وبين التجربة المؤلمة التي يحاول استيعابَها من جهة ثانية.

والحقّ أنّ مهمة الكاتب صعبةٌ هنا. فمن ناحية يجب التأنّي في اختيار موضوع الكتاب. ومن ناحية أخرى، يجب التأنّي في اختيار المفردات التي يريد مواجهةَ الطفل بها: ففي الأحوال العادية لا يَسْمع الطفلُ مفرداتِ الحرب في محيطه، أما في يوميات الحرب فقد صار يسمع عباراتٍ وكلماتٍ مثل «القصف الجوي» و«دمار» و«مجزرة»... إذن، على الكاتب أن يعودَ قليلاً بالزمنِ إلى الوراء ويستعيدَ مفرداتٍ من طفولةِ «ما قبل الحرب» ليخاطب الطفلَ بها

على أنّ مسؤوليةَ إنتاج كتب للأطفال عن الحرب لا تقع على الكاتب فقط، بل يتحمّلُها الناشرُ أيضًا. فعلى الناشرين المتخصصّين بأدب الأطفال التنبّهُ إلى اختيار الكتب عند النشر إذ من الممكن أن يَكْثر الكتّاب، ولكنّ مسؤولية تقييم الكتابِ وقرار نشره وتوزيعه تقع في نهاية الأمر على الناشر

إذا أردنا أن ننتجَ كتبًا قيّمةً تُوصلنا إلى بعض أهدافنا في معالجة موضوع الحرب ومخلّفاتها في نفوس أطفالنا، فإنّ علينا جميعًا ـ كتّابًا وناشرين ومربّين ـ أن نتعامل مع الموضوع بجديّة ومسؤولية. وهذا أقلّ ما يمكن أن نقدّمه اليومَ لأطفالنا الذين أضاعوا، بسبب الحرب، بعضًا من طفولتهم.

**دبي ـ بلجيكا**

**فاطمة شرف الدين**

كاتبة أدب أطفال من لبنان

# من أجل الصورة الأبهى

ملاك خالد

## أن تكون ناشطًا

أن تكون ناشطًا في أيام السِّلْم يعني أنّك ستكون بين أنشط الناس في أيام الحرب، حيث طوفانُ ما ينبغي فعلُه يعاجِلُ الجميعَ من كلّ حدبٍ وصوب

التجارب متنوّعة وغنية ومترابطة. بعضُها فرديّ، وبعضُها جماعيّ، وبعضُها انتهى مع توقف العمليات العسكرية يوم ١٤ آب الماضي، وبعضُها يستمرّ إلى اليوم وإنْ بأشكالٍ أخرى.

من قرية النزوح المؤقتة «بيصور» إلى بيروت، وعودةً إلى صور، لم يمرّ يوم حتى الآن لم أكن فيه ـ ومثلي كثيرون ـ منشغلين بغيرِ عملٍ وواجبٍ في الوقت عينه. وعلى ما أمل، فإنّ هذا الالتزام العالي، الذي أظْهره أفرادٌ ومؤسساتٌ ونوادٍ وجمعياتٌ في لبنان وكلّ العالم، سوف يستمرّ حتى احتواءِ آثارِ هذه الحرب وتطويقِ معظم الآثار المحتملة لكلّ حرب قادمة.

ولكوني معلّمةَ أطفال، فقد كان من الطبيعي أن أفكّر في العمل مع الأطفال بشكل أساسي، وذلك بالتوازي مع العمل مع النازحين. وكنت أعي أنّه لا ينبغي أن تَقتل الحربُ الإنسانَ فينا. لذا، كان لا بدّ أن نعمل من أجل أن يبقى لهذا الإنسان، فينا وفي أطفالنا، وجودُه اليوميُّ عبر نشاط وقصة وأغنية تَرْسم ضحكةً، فنجعلُ الخوفَ أمرًا قابلاً لأن نفهمَه (أهلاً وأطفالاً) ونتعاملَ معه بشكلٍ أكثر مرونةً وأقلّ شعورًا بالذنب

هدفنا كان أن نرافق الأطفالَ في هذه المرحلة الصعبة ليفهموا ولو قليلاً ما يدور حولهم، وليدركوا أنّ ما يحسُّونه طبيعيٌّ ومنطقيٌّ لكونه ردّةَ فعل على ظروفٍ لاطبيعيةٍ ولامنطقيةٍ عصفتْ بحياتهم

وإلى اليوم، لا يدعّي أحدٌ منّا، نحن العاملين في مجال أنشطة الأطفال، أنّنا نقدّم أيّ نوع من «العلاج» أو «التعليم.» كلّ ما نقوم به هو محاولةُ خلقِ أجواء من الثقة والأمان تُعيننا على الوصول إلى هدفنا المذكور أعلاه.

## هكذا تكون ناشطًا، ولكنْ ماذا عن الأنشط؟

الأنشط هو ما فعلناه كمجموعة تبلورتْ باسم «حملة المقاومة المدنية،» وبأهدافٍ وأدوارٍ ينصبُّ جُلّ همّها على بناءِ علاقاتٍ مع الناس، بحيث تتضافر الجهودُ من أجل دعم خيار المقاومة بشقّها المدني. ففي ممارسة هذا الخيار خلاصُنا الجمعي من سطوةِ ما تنوء بها بلادُنا من هيمنات ومحسوبيات، وما يفيض عن مساحتها من زواريبَ سياسيةٍ و«مصلحيةٍ» لا تَخْدم إلاّ فئاتٍ قليلةً.

بدأنا، لبنانيين من مختلف المناطق والطوائف والمشارب السياسية في لبنان، وأصدقاءَ عربًا وأجانب متضامنين مع لبنان، نخطّط للانطلاق جنوبًا في قافلةِ تضامنٍ وإغاثةٍ لأهلنا الصامدين على تخوم المواجهة

توالت الاجتماعاتُ والاتصالاتُ طوال عشرة أيام، وتكثّفت الجهود. وفي ٢٠٠٦/٨/١٢ انطلقتْ قافلةٌ من ٥٠ سيارة بمواكبة إعلامية متنوّعة، رافعةً علمَ لبنان، ومحمّلةً بحصص غذائية وأدوية للصامدين من أهلنا. كان الهدف هو الوصول إلى أبعدِ نقطةٍ يمكن الوصولُ إليها لنقول على طريقتنا «لا» بوجه عدوّنا الذي كان يحاول أن يَفْرض علينا التحرُّكَ بحسبِ ما يَسْمح به ويَمْنع على تراب وطننا.

وأردنا أن نقول لأنفسنا ـ نحن أهل هذا الوطن المثقوب بكلّ ألوان الاختلافات والمتوحِّد في كونه هدفًا دائمًا لأطماع الصهاينة فيه ـ إنّنا كلّنا لبنانُ حين تريد إسرائيلُ أن تَرْسم حدودًا جغرافيةً بين لبنان والجنوب: فالجنوب لبنان، والضاحية وبعلبك وبيروت وجعيتا وفاريا وعكّار وكلُّ حبّةِ ترابٍ هي كلُّ لبنان

لم تكن إسرائيل هي مَنْ منعتْ قافلتَنا من التقدُّم جنوبًا، بل كانت الحكومة اللبنانية هي مَنْ مَنَعَها من المضيّ لتسجيل رسالةٍ سياسيةٍ عاليةِ المستوى في وجه الصهاينة والعالم الفاقِد حواسّه

عادت القافلة إلى بيروت محبطين كنّا وغاضبين، ولكنّه لم يكن وقتَ الوقوف في وجه حكومتنا، فنحن في حربٍ يريد فيها عدوُّنا

كيرستن شايد

محمد صفيّ الدين (من حملة المقاومة المدنية) أمام مخلّفات الهمجية الإسرائيلية

ـ الذي انهزم عسكريّاً باتّحادنا شعبًا ومقاومة ـ أن ينتصر فيها سياسيّاً بانشقاقنا شعبًا عن حكومة.

لم يكن ممكنًا أن تضيعَ هباءً الجهودُ التي وُظِّفتْ لإنجاح القافلة من قِبل كلِّ الفسيفساء العجيبة التي اجتمعتْ لنكون معًا في ذلك السبت الذي سبق وقف العمليات العسكرية بيومَيْن فحسب

وهذه الفسيفساء من لبنانيين وعرب وأجانب لم يكن لها أن تكونَ ما هي عليه اليومَ دون خلافاتٍ ونقاشاتٍ حادّةٍ وطويلةٍ وعميقة. واتفقنا أساسًا أن لا نضيِّع فرصةَ اجتماعنا هذه، وفكّرنا معًا بالخطوة التالية. وكان أن انطلقنا على الأرض فعليّاً بعد ١٤ آب جنوبًا

رحنا نزور قرًى لم يصلْها قبلَنا أيٌّ من الهيئات الدولية (التي شَرَحتْ لنا أسبابًا تتعلّق بحاجتها إلى ضمانة انتشار قوات اليونيفيل لتمكّن تلك الهيئات من الدخول إلى قرى المواجهة).

نسأل البلديةَ عن حاجات هذه القرية أو تلك. نحادث الناسَ. نعزّيهم ونعزّي أنفسَنا. نحاول قدرَ الإمكان أن نؤمّن ما نستطيعه من متطلّبات الحياة في هذه القرى؛ فإمكانياتنا قليلة وتتمثّل في تبرُّعاتِ أصدقاء وداعمين من لبنان وخارجه

ومع ذلك، أَنظُر اليومَ إلى ما فعلناه بإمكاناتنا القليلة فأشعر بالفخر والتحفُّز لإنجاز المزيد

اليومَ علاقاتُنا بالقرى التي عملنا فيها أقوى وأوثق. نزورهم، نقيم نشاطات الأطفال أسبوعيّاً معهم، ننظّم لقاءاتٍ حول «مقاطعة داعمي إسرائيل،» ونَلْمح في صلابتهم إصرارًا على المعرفة والتعاون كي نَهْزم إسرائيل عبر داعميها اقتصاديّاً بعدما تأكّدتْ هزيمتُها العسكرية مرتيْن عاميْ ٢٠٠٠ و٢٠٠٦

تحدّينا الأكبر هو أن نحافظَ على علاقاتنا هذه وننمّيها ونشبكها مع علاقاتنا السابقة في مختلف مناطق لبنان كي نسهمَ جميعًا في بناء الوطن الحقيقي: إنّه الوطن الذي ارتفع من أجل أبهى صورةٍ له في الأرض اليوم أكثرُ من ١٣٥٠ شهيدًا إلى سماء الحرية.

**صور**

**ملاك خالد**

أستاذة مدرسة وناشطة في «حملة المقاومة المدنية»

# تضامناً ودعماً للبنان من فلسطين

رنا بشارة

فنّي هو أحدُ أشكال المقاومة الحضارية لآلة الحرب الإسرائيلية الشريرة.

لطالما حلمتُ، كطفلةٍ فلسطينية تعيش كلَّ حياتها تحت الاحتلال والحصار الثقافي، بعبور «الحدود» ـ أيّاً كانت ـ إلى أيِّ مكانٍ. غير أنّ حلمي بالذهاب إلى البلاد العربية كان هو الحلم الأثير، وبخاصةٍ عبور الحدود إلى لبنان. فكما نَعْلم ـ أو ربّما نُجْبر على ألاّ نَعْلم ـ فإنّ الأطفال لا يحبّون الحدود. غير أنّني شعرتُ دائمًا، وأنا أنمو، أنّ عليّ ألاّ أُواصل تلك الأحلامَ، وذلك لأسبابٍ عديدة مُقْنعة، على رأسها تجنُّبُ الاصطدام بكابوسِ الواقع

في هذه الأيام الحالية أريد أن أَعْبر الحدودَ إلى لبنان لأسبابٍ أهمّ بكثير. فحلمي القديم بعبور الحدود إلى بلادٍ عربيةٍ ما، من أجل «العروبة» و«القومية العربية،» قد تحطّم منذ زمن بعيد. واليوم، في هذه الأيام الصعبة، أتمنّى لو أستطيع أن أَعْبر الحدودَ في وطني فلسطين، وإلى لبنان، لا لكي أسجّل (وأَشْهَدَ على) الفظائع المتكرِّرة والأعمال البربرية وجرائم الحرب المرتكبة ضدّ المدنيين الأبرياء في فلسطين [الضفة وغزة] ولبنان فحسب، بل أيضًا من أجل الوفاء بواجبي كإنسانةٍ عَبْرَ المساعدةِ في الإغاثة من خلال تحطيم السدود والجدران.

❖ ❖ ❖

هذا العلم الرمزي اللبناني* هو صرخةٌ فلسطينيةٌ من الجليل.

بتحويل الصبّار الفلسطيني إلى أرزةٍ لبنانية يتوحّد النضالُ والمقاومةُ ضدّ الاحتلال من أيّ نوعٍ كان وهكذا تغدو الصرخةُ أعلى في وجه «الشرق الأوسط الجديد» وأنصارِه وعملائه وحلفائه.

إنّ الشاشَ المستخدمَ في صناعة هذا العَلَم هو ضِمادةٌ حقيقيةٌ استخدمتُها ـ استعارياً ـ لكي أرمزَ إلى الضمادةِ المضمَّخة بالدم اللبناني المسفوك في المجازر وجرائم الحرب. وهو أيضًا الدم العربي المُخزي يُلطِّخ العَلَمَ بصمته.

إنّ الصبّار هو رمزُ الوجود الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية. وهو رمزٌ طاغٍ ومَعْلَمٌ بارز على ٥٣١ بلدةً وقريةً فلسطينية مدمّرة منذ نكبة فلسطين المشؤومة عام ١٩٤٨ (والمفارقة أنّ الصبّار والصَّبْر من جذرٍ واحد)

إنّ النظر إلى الصبّار، وهو يَحْمي أطلالَ بلداتنا وقرانا، يذكّرني بالنكبة دومًا. إنّه يُبرز الصمود في ظلّ الاحتلال، ويُبرز قوةَ الوجود الفلسطيني إذ ينمو مجدّدًا من فوق الأنقاض.

المفارقة والغرور أنّ الإسرائيليين يسمّون كُلَّ من وُلِد في إسرائيل «إسرائيليّاً صباريَّ المولد» (Sabra-native born Israeli). وفي رأيي أنّ ما شهدناه ونَشْهده طوال ٥٨ سنةً، من النضال ضدّ الاحتلال الإسرائيلي المشؤوم والتطهير العرقي بحقّ الشعب الفلسطيني وسرقة أراضيه، يُظْهر أنّ سرقة رموزنا (ومنها الصبّار) ليست إلاّ لعبةً قذرةً أُخرى تمارسها السلطةُ الإسرائيليةُ من أجل حرمان فلسطين من هويّتها العربية والفلسطينية وإنّها لسرقةٌ ينبغي أن تتوقّف

إنّ شعورَ الإسرائيليين بالتفوق والغرور هو الذي سَمَحَ لهم بسرقة رمز نضالنا، بل ورموزٍ ثقافيةٍ أخرى. وليس ذلك إلاّ دليلاً آخر على أنّهم احتكروا وَضعَ الضحية على امتداد تاريخهم.

**الجليل**

**رنا بشارة**

فنّانة تسكيلية فلسطينية تعيش في الجليل

* ـ راجع الغلاف الأخير من هذا العدد

# البحث عن المقاومة المدنية: تجربة شخصية/جماعية

سماح إدريس

إنّه اجتياحٌ جديدٌ، قلتُ في نفسي.

ما إنْ بدأ «الردُّ» الإسرائيلي على عملية حزب الله في ١٢ تموز حتى تداعت في رأسي صورُ الاجتياح الإسرائيلي للبنان عامَ ١٩٨٢. كنتُ في بيروت آنذاك، وكان عمري واحدًا وعشرين عامًا. قضيتُ وقتَها شهرًا في بيروت أثناء الحصار، ثم رَحّلني أهلي إلى فرنسا، ومشاعرُ النّدمِ والذّنْبِ والقلقِ تأكلني.

لا سفرَ بعد اليوم، قلتُ.

كان أولَ ما فعلتُه هو كتابةُ افتتاحية طويلةٍ في الأسبوع الأول من الغزو، ووزّعتُها على الإنترنت لأنّ توزيع الآداب إلى الخارج بات مستحيلاً بسبب الحرب والحصار.[1] دافعي الأول إلى كتابتها كان إرسالَ صوتي إلى قرّاء الآداب التي شعرتُ بأنّها ستغيبُ عنهم زمنًا طويلاً (وهو ما حصلَ فعلاً فقد غابت ثلاثةَ شهور ـ وهذا ما لم يَحْصل منذ تسلُّمي رئاسةَ التحرير عامَ ١٩٩٢). لكنّني كنتُ أشعر أيضًا بالخيْبة من كثيرٍ من المثقفين اللبنانيين الذين تكاسلوا عن نصرة المقاومة، أو اعتبروا أنّها تَنْطق بلسانِ طائفةٍ معيّنة ومذهبٍ محدّد و«محور» مخصوص وأكثرُ ما أغاظني حينَها أنّ «ثقافةَ المقاومة» في لبنان عانت شِبْهَ غيابٍ في الأيام الأولى من الغزو؛ وإلاّ فكيف نفسِّر أنّ كثيرين من دُعاة تلك الثقافة راحوا يُطْنبون في الحديث عن «الذريعة» التي قدّمها حزبُ الله للعدوّ بأَسْرِ الجنديّيْن الإسرائيليّيْن ـ وهم الذين فَلَقونا في السابق بـ «مطامع إسرائيل التاريخية» و«مخطّطاتها التاريخية»؟ ما بالهم الآن استكانوا لمنطق «الذريعة» البائس الذي لم تَحْتَجْه إسرائيلُ يومًا لضرب لبنان وسرقةِ مياهه وقتل مواطنيه واستباحةِ أراضيه جوّاً وبحرًا وبرّاً؟ ثم ما بالُهم لا يَنْبسون ببنتِ شفة ضدّ الرئيس السنيورة وحكومتِه الرثّة اللذيْنِ «لم يتبنّيا» عمليةَ الأَسْر، فخلّفا المقاومةَ الوطنية مكشوفةً سياسيّاً أمام «المجتمع الدولي» المعادي بمعظمه؟ وماذا دهاهم حتى راحوا يردِّدون كالببغاءات مقولةَ «الإجماع الوطني،» وملخَّصُها أنّ حزب الله ما كان عليه أنَ يقوم بالعملية قبل الحصول على موافقة الشعب اللبناني ـ والمقصودُ بـ «الشعب اللبناني» طبعًا: تيّارُ الحريري والقواتُ اللبنانية والحزبُ الاشتراكي أساسًا، وهي الأطراف المعادية قولاً وعملاً للمقاومة وحليفةُ رايس وولفويتز وفهد؟ وهل نسوا ما علّمونا إيّاه من أنّ العمل المقاوم لم يحتجْ يومًا إلى إجماع، بل يَبْدأ بحفنةٍ من المقاتلين الشجعان يتقدّمون المجتمعَ بقبضاتهم وكرامتهم ودمهم؟ ألم يكن ذلك ما حدث عند بدء «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية» في أيلول ١٩٨٢؟ ألم يبدأ الجنرال دوغول (مثالُ «الليبراليين» في لبنان) بقلّةٍ من الجنود مقارنةً بالجنرال بيتان، على ما تَذْكر إليزابيث طومبسون في كتابها **Colonial Citizens**؟ وما لبث مثقفونا أن اهتدوْا، بعد قليلِ عناء، إلى مقولة «الدولة،» فوضعوها في مقابلِ «المقاومة» ـ وكأنّ الدولة التي يتناتَشُها زعماءُ الطوائف وزبائنُ الأنظمة العربية والدولية قادرةٌ وحدها على تحريرِ الأرض واسترجاعِ الأسرى.

وكان مؤسفًا أيضًا أن يتلطّى أكثرُ مثقفينا خلف كراهيّتهم (المشروعة) لاستبداد النظاميْن السوري والإيراني من أجل تبرير انكفائهم عن نصرة المقاومة ـ وكأنّه يستحيل أن نتحفّظ عن ذيْنك النظاميْن وننتصرَ في الوقت نفسه للمقاومة ولمبدإ التصدّي للعدوّ التاريخي الذي يغزونا في عقر دارنا. وفكّرتُ وأنا أكتب تلك الافتتاحية: إنّ هؤلاء المثقفين الذين يتصدّرون وسائلَ الإعلام والصحفَ الرئيسية يدينون سياسةَ المحاور نظريّاً، ولكنّهم ـ عمليّاً ـ يصطفّون في محورٍ معادٍ للمقاومة حين يُحْجمون عن دعمها بحجّةِ ولائها لمحورٍ معيّن. وتساءلتُ في سرّي إذا كانت المقاومةُ الإسلاميةُ عميلة للمحور السوري ـ الإيراني، فمَنْ يا تُرى يقف في المحور الإسرائيلي ـ الأميركي المقابل؟ إنّ أولئك المثقفين الطّهوريين يَرْفضون كلَّ المحاور، ولكنّهم يتناسَوْن ـ وهم المؤرِّخون وعلماءُ الاجتماع الذين تغنَّوْا

١ ـ عنوان الافتتاحية «حرام لبنان؟» ويمكن قراءتُها على الموقع www.adabmag.com

# البحث عن المقاومة المدنية: تجربة شخصية/جماعية

سنواتٍ بعد سنواتٍ بثوراتِ الجزائر وڤيتنام وفلسطين وكوبا .. ـ أنْ ليس ثمةَ حركةٌ تحرُّرٍ عالمثالثيةٌ واحدةٌ إلاّ واستندتْ إلى حليفٍ إقليميّ و/أو عالميّ (الاتحاد السوڤياتي، الصين، ) لم يكن أقلَّ بطشًا يومَها من نظامَيْ سوريا وإيران اليوم. أمْ أنّ لبنان قادرٌ في رأيهم على أن يشكّل محورًا بذاته، استنادًا إلى وحدته الوطنية وأرزه الشامخ وعَرقَه البلديّ؟ وهل يُعقل أنّ من دَرَسَ ودرَّسَ تواريخَ الشعوب وتاريخَ لبنان المعاصر يؤْمن فعلاً بأنّ «المقاومة الديبلوماسية» (بِدْعَةَ الشيخ سعد الحريري) ستسترجع الأسرى والأرضَ استنادًا إلى قراراتِ الشرعيةِ الدوليةِ وحدها؟

❖ ❖ ❖

تُرجمت افتتاحيتي إلى الإنكليزية والإسبانية وربّما إلى لغات أخرى، ووُزِّعتْ على أكثر من عشرة مواقع إلكترونية ضخمة. لكنّني في الأسبوع الثاني من الغزو بتُّ أشعرُ بضرورةِ العمل على إيجاد موقف **جماعيّ** ثقافي لبناني يتخطّى أفكاري الشخصية. ولعلّ دافعي الأساسَ إلى ذلك لا يعود فقط إلى تربيتي البيتيّة (فقد قضى أبي سهيل نصفَ عمره يَكْتب أمامي البياناتِ ويَجْمع التوقيعات عبر الهاتف ـ إذ لم يكن ثمة إنترنت في زمنه)، وإنما إلى قناعتي أيضًا بأنّ البيانات والعرائض أمرٌ ضروريٌّ ولاسيّما إبّانَ الأزمات الوطنية والحق أنّني لم أقف طويلاً أمام ما قد يَكْتبه ضد بياننا العتيد ليبراليو آخرِ زمن الذين يَمْقتون البيانات والشعارات والمواقفَ الجماعية ضَنًّا منهم بـ «فرديةِ» المثقف و«تميُّزه» وابتعاده عن عقلية «القطيع» ـ فهذه جميعُها، في رأيي، لا تَحُول دون أن يَكونَ هناك صوتٌ جمعيٌّ، شرطَ أن يكون نقديّاً ولو في الحدودِ الدُّنيا. ومع ذلك فقد تردّدتُ: أيكون البيانُ الذي سأجْمع عليه التواقيعَ موجَّهًا ضدّ إسرائيل وحدها؟ أمْ ضدّ أميركا أيضًا؟ أمْ يَشْمل حكومةَ السنيورة التي خذلت المقاومةَ، ويَشْمل الأنظمةَ «العاقلةَ» التي غطّت العدوانَ حين اتّهمتِ المقاومةَ بـ «المغامرة»؟

لم يكن سهلاً العثورُ على جوابٍ سريع في هذا الشأن. فالغاية الأولى من البيان هي الوصولُ إلى موقفٍ جماعيّ كما ذكرتُ ـ ولو في الحدّ الأدنى. ولذا فإنّ أيَّ نقدٍ لما يتعدّى إسرائيلَ (وربّما الولاياتِ المتحدةَ) سيُقلِّل من عدد الموقِّعين، وقد يَمْنع الأسماءَ «المعتبرةَ» ذاتَ «الارتباطات» من التوقيع. ولكنْ ما قيمةُ بيانٍ جماعيّ لا يحدِّد موقفًا واضحًا من الدولة والأنظمة، ولا يَدْفع كلَّ الأطراف إلى تحمُّل مسؤولياتها؟

تلك الليلةَ، وفي خضمّ تردُّدي، تحدّثتْ معي إحدى الصديقات على الهاتف. كانت كعادتها غايةً في التهذيب، لكنّه تهذيبٌ يَقْطر عدوانيةً وطبقيةً. «كيف يَجرُّ حزبٌ واحدٌ بلدًا بأكمله إلى الحرب؟»، «ولماذا يُدمِّر حزبُ اللّه كلَّ إنجازاتنا الحضارية عبر هذه السنين؟»، «كَبِّر عقلَكْ يا سماح، هل يستحقّ ثلاثةُ أسرى أن نَخْربَ البلدَ لتحريرهم؟»، «أتستأهل مزرعةٌ أن نُحْرِقَ وطنًا وشعبًا؟». كنتُ أقابل صديقتي تهذيبًا بتهذيب، ولكنّي كنتُ في داخلي أحترق وتَفُوحُ رائحةُ حريقي ويعلو صوتي تدريجيّاً. إلى أن هَزِئتْ بمزارع شبعا وبالأسرى، وزَعمتْ أنّ كلَّ طموح فقراء الجنوب هو أن يصيروا «أغنياءَ مثلَنا.» عندها وجدتُني أَخْرُج عن طوْري (أو بالأحرى أعود إليه) فأَشْتمُ مونو والأشرفية وڤردان، وأَشْتم أختَ البورجوازية (التي أنا منها)، وأشْتم أُمَّ مَنْ خَرَبوا البلدَ بالديون والفسادِ وفرض الوصايةِ السورية والفرنسيةِ والأميركيةِ والسعودية... قبل أن يحمِّلوا المقاومةَ مسؤوليةَ الخراب!

عدتُ إلى المنزل وجميعُ الأعضاءِ التناسليةِ، الخاصةِ بالذكور والإناث، تَنقذف من فمي. قلتُ لنفسي انْ لا مجال للتهاون: فإمّا موقفٌ جذريٌّ ممّا يحدث، أو فليذهبْ موقفُنا «الجماعي» إلى الجحيم. لا معنى لبيانٍ لا يبهدل الحكومةَ اللبنانيةَ والأنظمةَ «العاقلة،» ولا يدعو إلى مقاطعة البضائع والشركات والمؤسسات الأكاديمية الإسرائيلية والشركات الداعمة لإسرائيل أيّاً كانت جنسيّتُها. لا معنى لبيانٍ لا يقف، دون أدنى لبْس، إلى جانب حقّ المقاومة في تحرير الأرض واسترجاع الأسرى. حتى لو لم تكن تلك المقاومةُ علمانيةً ويساريةً وقوميةً عربية ومؤيِّدةً لتحرير المرأة!

كيرستن شايد

بقايا مسجد في بنت جبيل

اتّصلتُ بالصديق نصري الصايغ، فرحَّبَ بفكرة إصدار بيان كتبتُه، وفي اليوم التالي أَطْلعتُه عليه، وبدأتُ جمعَ التواقيع [1]

من أهداف البيان الأولى غيرِ المباشرة أن نبيِّنَ للرأي العامّ، وبخاصةٍ العربيّ، أنّ ثمة مثقفين لبنانيين مازالوا بعيدين عن الانبهار بالجحيم «الديموقراطي،» ويَدْعون نظراءهم إلى اتّخاذ خطواتٍ ملموسةٍ داعمةٍ للمقاومة (باستخدام أسلوب المقاطعة مثلاً). كنتُ أَشْعر أنّ موقفَ كثير من المثقفين العرب (كأحمد عبد المعطي حجازي مثلاً) مشوَّشٌ تجاه المقاومة، بل ومعادٍ لها بحجّة «إيرانيّتها» و«أصوليّتها» ـ وكأنّ هاتيْن التهمتيْن كانتا ستَبْرزان أصلاً لولا خيانةُ الأنظمة العربية وتراجُعُ اليسارِ والحركاتِ القومية والعلمانية العربية أو تخاذُلُها أحيانًا

لكنّني أعتقد أنّنا كنّا نريد أيضًا أن نقول للمقاومة، من خلال هذا البيان، إنّها ليست معزولةً تمامًا عن المثقفين اللبنانيين، أو إنّ تأييدَها لا ينحصر في الطبقات الشعبية «غيرِ المثقفة» داخل الطائفة الشيعية وحدها. نعم، لقد اشترى البترودولار كثيرًا من الصحافيين والمثقفين اللبنانيين، أو دَجَّنهم، لكنْ بقي البعضُ على تأييده للمقاومة المسلّحة، أيّاً كانت طائفتُه أو مذهبُه أو إيديولوجيّتُه السياسية. وكان ينبغي لهؤلاء أن يوجِّهوا إلى مقاتلي حزب اللّه رسالةً واضحةً نحن مع حقّكم المطلق في المقاومة

المُدْهش في الأمر أنّ البيان بدأ بحلقةٍ صغيرةٍ من بعض الكتّاب في الآداب و**السفير** و**الأخبار**؛ لكنّه ما لبث أن طاول عشراتٍ آخرين في لبنان ـ على رأسهم مثقفون وأكاديميون تابعون للتيار الوطني الحرّ (بقيادة الجنرال ميشال عون) أو عاملون في الجامعتَيْن الأميركية واللبنانية. والطريف أنّ البيان حَصَدَ، بعد أيام قليلة، توقيعاتِ مثقفين عرب وعالميين، مع أنّه لم يكن يخاطبهم مباشرةً في الأصل، وعلى رأسهم صنع اللّه إبراهيم وبهاء طاهر وأهداف سويف ونورمان فنكلستين وطارق علي وبرهان غليون ورضوى عاشور ومريد البرغوثي وتيسير بركات ونبيل عناني ونصر حامد أبو زيد وهاني أبو أسعد وكمال بلاّطة ونادر فرجاني وعشراتُ الأنثروبولوجيين والمؤرِّخين ـ الأميركيين بشكلٍ خاصّ. وعلى المقلب الآخر رَفَضَ مثقفون يساريون ووطنيون لبنانيون التوقيعَ على البيان بحججٍ أبرزُها ما يلي

١ ـ راجع الوثيقة ـ ١ ـ من هذا العدد، ص ١٧٤

# البحث عن المقاومة المدنية: تجربة شخصية/جماعية

أ) أنّ المقاومة «حالةٌ شيعيةٌ» ولم تصبح جزءًا من النسيج الوطني اللبناني (وكأنّ ابتعادَ المثقفين الوطنيين عنها سيُشجّعها على أن تصبح كذلك)؛ ب) أنّ حزب اللّه مسؤولٌ عن قتلِ مهدي عامل وحسين مروّه قبل حوالى عشرين عامًا (مع أنّ نائب الأمين العام للحزب الشيوعي وقّعَ على البيان)؛ ج) أنّه لا مبرِّر للهجوم الآن على الحكومة اللبنانية لأنّ المرحلة الراهنة مرحلةُ وحدةٍ وطنيةٍ لبنانيةٍ ضدّ إسرائيل (وكأنّ حكومة السنيورة لم تكن هي التي بادرتْ إلى «عدمِ تبنّي» عملية الأَسْر البطولية).

على كلّ حال خسِرْنا بعضَ الأسماء (ومنها مَنْ سبق أن رَفَضَ التوقيعَ على بيانٍ ضدّ الغزو الأميركي للعراق بذريعة «إجرام صدّام»!)، ولكنّنا رَبحْنا أسماءً عربيةً وعالميةً ولبنانيةً محترمة جداً. وبلغ مجموعُ الموقّعين حوالى ٥٠٠ اسم مع توقُّف العمليات الحربية، وتُرجمت العريضة إلى لغاتٍ عدّة ووُزّعتْ على عشرات المواقع الإلكترونية الضخمة ونشرتْ في مجلة **Middle East Report** الأميركية. والأهمّ أنّنا لم نتنازلْ عمّا اعتبرناه صحيحًا لمجرّدِ كسبِ المزيد من الأسماء التي لا نشكّ في أنّها «معتبرة.»

❖ ❖ ❖

كنتُ ما أزال في أجواء البيانات والعرائض، ففكّرتُ في ضرورة التوجُّه إلى فئةٍ تتعدّى العاملين في الشأن الثقافي. وأيُّ هدفٍ أحقّ بأن تتوجّهَ السهامُ الشعبيةُ إليه من رمزِ السياسة الأميركية الغاشمة في لبنان، المستر دجفري فيلتمان؟

هكذا وُلدتْ في رأسي فكرةُ كتابةِ عريضةٍ تطالب الحكومةَ اللبنانيةَ بقطع العلاقات الديبلوماسية مع الولايات المتحدة، وبطردِ السفير فيلتمان. واستندتُ في صياغة العريضة إلى الدعم العسكري والمادي الأميركي المعروف للعدوان الإسرائيلي؛ فضلاً عن قراريْ مجلس الشيوخ والنوّاب الأميركييْن الأخيريْن ٥٣٤ و٩٢١ بدعم هذا العدوان؛ والفيتو الأميركي في مجلس الأمن ضدّ أيِّ وقفٍ لإطلاقِ النار. وصادف أنّ كبرياتِ الصحف الأميركية نشرَتْ نبأَ حصولِ لقاءٍ قبل حوالى شهر من الغزو في كولورادو بين مسؤولين أميركيين وصهاينة تمّ فيه التخطيطُ لهذا الغزو وحين انتهيتُ من العريضة عرضتُها على محامييْن مناضليْن، قبل أن أَدْفعَ بها إلى بعض الناشطين الشباب لجمع التواقيع عليها [1]

كانت الفكرة بسيطة: فأكثرُ المتضرِّرين من العدوان الإسرائيلي هم بيننا الآن؛ إنّهم النازحون من الجنوب إلى مدارس بيروت! فبدلاً من أن نَذْهب إلى الجنوب لجمع تواقيعهم ضدّ السفير الأميركي، ها هو الجنوبُ يأتي إلينا. ولن يكون صعبًا جداً، كما ظَنَنّا، أن نَجْمعَ مليونَ توقيع (عددُ المهجّرين وحدهم) طبعًا لن يكون للعريضة مفعولٌ تنفيذيٌّ؛ فحتّى لو وقّعها الشعبُ اللبنانيُّ بأكمله فذلك لن يشكّلَ في ذاته سببًا كافيًا لأن تبادرَ الحكومةُ (وهي ما هي عليه من تحالُفٍ مع رعاةِ «ثورة الأرز») إلى طرد السفير المذكور. غير أنّ الهدف كان معنوياً في الأساس، ومفادُه أنّنا ـ كحشود هائلةٍ من لبنان ـ نَعْرف المجرمَ الرئيسيَّ ونَدينه وكنتُ آمل أن يتلقَّفَ المثقفون والقوى الوطنيةُ في الأقطار العربية (ولاسيّما مصر والأردن والمغرب) العريضةَ، فيطالبوا ـ بدورهم ـ بطرد السفير الأميركي في بلدانهم لكونه ممثّلَ الدولةِ التي تسفك دماءَ إخوانِهم وأخواتِهم في لبنان. غير أنّني ـ ويا للأسف ـ لم أتمكّنْ من متابعة انتشار العريضة بين الناس، ولعلّ تقصيرًا ما قد حَصَل من جانب الناشطين المُوكَلين بهذا الأمر. ومع ذلك، فالعريضة يجب ألاّ تكونَ «بنتَ ساعتِها» كما يُقال؛ ذلك أنّ الولايات المتحدة تبقى في الماضي القريب وفي الحاضر أيضًا المسؤولةَ الأولى عن مصائبنا العربية. . أو هي تتقاسم هذا «الشرفَ» مع أنظمتنا الاستبدادية (كي لا يَغضبَ منّا كثيرًا أصحابُ تقديم أولويّة محاربة الاستبداد على الاستعمار). وعليه، فالعريضة ما زالت راهنةً، وبرسمِ الناس، وعلى رأسهم أهالي الشهداءِ والجرحى

❖ ❖ ❖

١ ـ راجع نصّ العريضة تحت الوثيقة ـ ٢ ـ من هذا العدد، ص ١٨٣

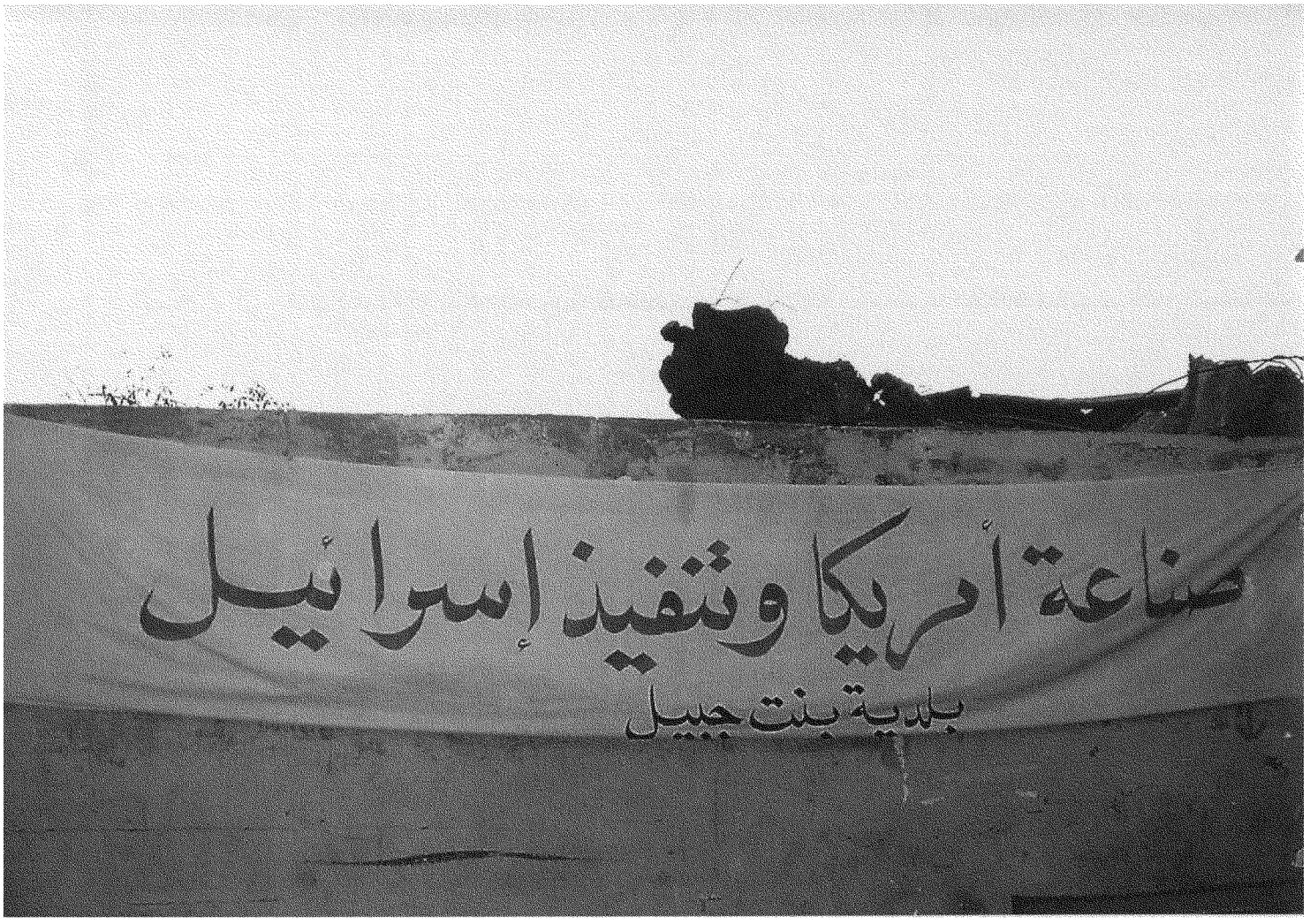


كيرستن شايد

يافطة في بنت جبيل

لم يعد ثمةَ من معنًى لتنقُّلاتي شبهِ اليومية بين بيروت وشقّتنا الصيفية التي كنّا قد استأجرناها قبل أكثر من شهرٍ على الغزو الإسرائيلي. فالبنزين يكاد ينفد من المحطّات؛ والطُّرقُ تُقصف أحيانًا؛ والأرقُ يباغتني كلَّ ليلة أقضيها في مصيفنا. لذا قرّرتُ في النهاية أن أنزلَ إلى بيروت وأبقى هناك.. حتى لو لم أفعلْ شيئًا ذا قيمة. واتّخذتْ كيرستن القرارَ نفسَه، دون أدنى تشاور. أما طفلتانا، فأمرُهما للّه.

في تلك الفترة (أوائلَ شهر آب) كان عددٌ من نشطاء «حركة التضامن العالمية في فلسطين» (ISM) قد جاءوا إلى بيروت للتضامن مع الشعب اللبناني في مواجهة العدوان. وكنتُ أعرف عددًا منهم، بل سبق أن قدّمتُ مناضليْن بارزيْن من الحركة، هما آدم شاپيرو وپول لارودي، في «نادي الساحة» ـ الأول منذ عامَيْن والثاني قبل شهريْن.[1] وهكذا بدأ بعضُ الناشطين اللبنانيين والعرب والدوليين بعقد الاجتماعات في منزلنا من أجل التخطيط لنشاطاتٍ مدنيةٍ في وجه الاحتلال الإسرائيلي.

كان شعورُ المجموعة الجديدة (التي بدأتْ تَعْمل تحت اسم «حملة المقاومة المدنية»)[2] أنّه لم يعد يكفي العملُ في مجال إغاثة النازحين في بيروت والشوف والجبل، على أهمية ذلك، بل بات المطلوبُ أمريْن: أ) تحدّي الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الجنوبية، ب) دعم بقاء الصامدين هناك. وبعد أيام طويلة من النقاش، شارَكَ فيها ما لا يقلّ عن خمسين ناشطًا لبنانيّاً وعربيّاً ودوليّاً، قرّرنا إرسالَ «قافلةٍ مدنية» محمّلةٍ بموادّ الإغاثة إلى الجنوب (صُور تحديدًا، أو ما بعدها إذا أَمْكن).

كان الهدفُ معنويّاً ووطنيّاً أكثرَ منه إغاثيّاً؛ فنحن لم نكن نَمْلك عُشْرَ إمكانياتِ أيّ مؤسّسةٍ دولية، غير أنّنا نَمْلك مشاعرَ عامرةً بروح التضامن الوطني (لا الإنساني وحده) مع الجنوبيين، الذين نعتبرهم خطَّ الدفاع الأول عن لبنان، بل عن وجودنا نحن كأفرادٍ في أيِّ بقعة لم يدنِّسها الإسرائيليون بعد. وكنّا متحرِّقين شوقًا إلى أن نُظْهرَ لمن اختاروا أن يَبْقوا في الجنوب رغم القصف والاحتلال أنّ هناك من يُقدِّر صمودَهم، وأنّنا (هكذا

١ ـ الجدير ذكرُه أنّ «حركة التضامن العالمية» هي الحركة التي انضمّت إليها الشهيدةُ رايْتشل كوري (راجعْ رسائلَها الإلكترونية قبل استشهادها في الآداب، ٣/٤ ـ ٢٠٠٦)

٢ ـ لمزيدٍ من المعلومات عن هذه الحملة وسُبُلِ دعمها والمشاركة فيها، أنظرْ www.lebanonsolidarity.org

# البحث عن المقاومة المدنية: تجربة شخصية/جماعية

وبمثاليةٍ وعفويةٍ وربّما بسذاجة) في صدد الإسهام ـ بمعيّتهم ـ في بناءِ هويّةٍ وطنيةٍ لبنانيةٍ جامعةٍ يكون أساسَها الأولَ العداءُ لإسرائيل.

سيكون صعبًا جدّاً اختزالُ أيامٍ طويلةٍ من النقاش الداخلي ضمن «حملة المقاومة المدنية» وللقارئ أن يتصوّر حلقةً تتراوح بين ٣٠ و٥٠ شخصًا في صالونٍ واحدٍ، أعمارُهم تتراوح بين بداية العشرينات وأوائل الستينات، وجنسياتُهم تبدأ من لبنان وتصل إلى الولايات المتحدة مرورًا ببريطانيا ومصر وفلسطين وقبرص واليونان وإسبانيا وڤنزويلا. إنّه، بكلمة، برجُ بابل من اللغات واللكنات والتجارب والتوقُّعات والإمكانيات والمعارف، تجتمع طبقاتُه ـ للمرة الأولى في حياتها ـ في ركنٍ واحدٍ، وعلى إيقاع التقدّم الإسرائيلي. وإذا كان لي أن ألخّص الأسئلةَ الأبرزَ التي واجهتْ سكّانَ ذلك البرج، فسأقول إنّها التالية:

أ ـ هل نوافق على أن تكون قافلتُنا برعاية مؤسساتٍ دوليةٍ كـ «برنامج الغذاء الدولي» WFP؟ وجاء القرارُ بالرفض، ذلك أنّ أكثرَ هذه المنظّمات الدولية (وربّما جميعَها) تنسّق مع الاحتلال (الإسرائيلي في هذه الحال) قبل أن تتّجهَ صوبَ المناطق المحاصَرة وأمّا حملتُنا فكان مبرِّرُ وجودها عدمَ الاعتراف بحقّ إسرائيل في أن تحدِّد أين نسيرُ وأين نقف فهذه أرضُنا، ولنا الحقُّ في أن نَذْهب حيث شِئنا فيها، وعلى الاحتلالِ الرحيلُ

ب ـ هل نَسْمح بدخول قوًى و«شخصياتٍ» سياسيةٍ إلى القافلة؟ هنا أيضًا جاء قرارُنا بالرفض. ولا يعود السببُ فقط إلى أنّنا كنّا نحاول أن نفوّت على العدوّ فرصةَ قصفِنا بذريعةِ انتمائنا السياسي (وهو متنوِّعٌ أصلاً ويضمّ مقرَّبين من كتلة ١٤ شباط إلى ٨ آذار وما يتعدّاهما)، بل لأنّ نشاطَنا يُفْترض به أن يتخطّى الحزبيّات. وعليه، فقد سَمَحْنا لأيٍّ كان بأن يشارك في القافلة بصفته الشخصية، شرطَ أن يَحْضر الاجتماعات التمهيدية وألاّ يَحْمل أثناء المسيرة السيّارة أيَّ شعارٍ حزبيّ أو عَلَمٍ غيرِ العَلَمِ اللبناني (بالمناسبة، لستُ مُغْرمًا بهذا العَلَم ولا بغيره، ولكنّه كان رمزًا ـ مؤقّتًا على الأقلّ ـ للهوية الجامعة التي حاولْنا أن نشدِّد عليها).

ج ـ ما هو موقفُنا من حزب اللّه؟ كان الجواب بدهيّاً بالنسبة إليّ: فأنا طبعًا مع حزب اللّه في هذه المرحلة تحديدًا، ومع سلاحه، بل مع أيّ سلاحٍ يُرْفع في وجه إسرائيل، في أيّ مكانٍ وأيّ زمان. ولكنْ كان في صفوفنا أشخاصٌ ضدّ العدوان الإسرائيلي من دون أن يكونوا (بالضرورة) مع حزب اللّه. لذا تَقرَّر أن يكون موقفُنا «الرسمي» هو أنّنا معادون للاحتلال الإسرائيلي، وأنّ أيَّ خلافٍ داخليّ بخصوص سلاحِ حزب اللّه والمقاومة «مرهونٌ حلُّه بالمجتمع اللبناني لا غير»

د ـ ألن يكون عملُنا مغامرةً كبرى، حظوظُ الفشلِ والموتِ فيها تُعادِلُ (أو ربّما تتجاوز) حظوظَ النجاح والحياة؟ لم نكن مجموعةً استشهاديةً ولا انتحارية، وإنْ كان احتمالُ خطرِ الموتِ والإصابةِ بالجروح ماثلاً أمامنا جميعًا كان بيننا مَنْ يتّقد حماسًا للتحدّي والمواجهة، ولو بحساباتٍ ضعيفة. وكان بيننا ناشطون جاءوا من خلفيّةِ مواجهةِ إسرائيل داخل فلسطين، أيْ بتجربةٍ غنيّةٍ ولكنْ مختلفةٍ كثيرًا عن واقعنا الآن ـ حيثُ السيادةُ في الجنوب للطائرات الإسرائيلية لا للجنود المترجّلين كما هو الحال في رفح مثلاً. ومع ذلك فقد توصّلنا إلى تخفيف عناصر المغامرة قدرَ الإمكان بالتشديد على أنّنا لن نُقْدِمَ على إرسال القافلة قبل تحقيق الأمور الثلاثة التالية ١) تأمين عدد كبير من السيّارات المشاركة لا يقلّ عن خمسين أو مئة (وكنّا قد «أمّنّا» إلى ما قبل انطلاق القافلة ببضعة أيام أكثرَ من خمسين سيّارة فعلاً). ٢) تأمين أكبر عدد من وسائل الإعلام المرافقة، وبخاصةٍ الدوليّة، وعلى رأسها CNN وTV5 وBBC، وبمعيّةِ مراسلين غربيين، على أساس أنّ إسرائيل ستفكّر مرتيْن قبل أن تَقْصفَ قافلةً تَشْمل مواطنين أميركيين وأوروبيين «بيضًا.» ٣) تأمين أكبر عدد من المشاهير، فالعدوّ سيفكّر ثلاثَ مرّاتٍ قبل أن يَقْصف قافلةً تضمّ شخصياتٍ مثلَ سوزان ساراندن وشون بِنْ ونوم تشومسكي وجوليا بطرس وحسين فهمي (بل اقترح أحدُنا ـ ولعلّه أنا ـ اسمَ الرئيس الأميركي السابق دجيمي كارتر).

كيرستن شايد

عبد الرحمن زعزع (من «حملة المقاومة المدنية») وأطفال سلعا

هـ ـ ما تُرانا نَفْعل إذا قُصِفت القافلةُ، أو قُصِفَ مقدَّمُها، أوْ مؤخَّرُها، أو على مقربةٍ منها؟ هنا تشعَّبَ النقاشُ واحتدم، ثم تشكّلتْ لجنةُ «اتّخاذ قرار» أُوكِلتْ إليها هذه المهمةُ الصعبة.

عشيةَ انطلاقِ القافلة تبيَّن لنا أنّ شروطَ سير القافلة لم تتحقَّقْ لا من حيث السيارات (إذ انخفض عددُ السيارات «المضمونة» من ٥٠ إلى ٦ فقط !)، ولا من حيث وسائلُ الإعلام الأجنبية المرافقة، ولا من حيث المشاهير (بعضُهم وَعَدَ ثم نَكَث بوعده، والآخرون لم يتمّ الاتصالُ بهم أصلاً) علاوةً على ذلك، بات من المستحيل الوصولُ إلى صُور بسبب القصف وقَطْع الطرقِ والجسور. وكان يُفترض، والحالةُ هذه، أن تؤجَّل القافلةُ إلى حين استكمالِ الشروط لكنّ «الحملة» مَضَتْ قُدُمًا وعزمتْ على التوجُّه إلى النبطية!

انسحبتُ غاضبًا، وآسفًا، وخائفًا على زملائي (وخاصةً كيرستن) الذين خالفوا ما سَبَقَ أنْ قررناه ويبدو أنّ الحملة تلقّت جرعةً إضافيةً من الحماس في اللحظات الأخيرة، إذ حَضَر الاجتماعَ عشيّةَ التوجُّهِ إلى الجنوب عشراتُ الأشخاص الذين أَعْربوا عن رغبتهم في الانضمام مع أنّهم لم يكونوا قد حَضَروا أيَّ اجتماعٍ سابق، بل ولم يملأوا الاستماراتِ الصحيّة والأمنيّة التي أعدّتها كيرستن![1]

سأُعفي القارئ من وصفِ تلك اللحظات العصيبة التي عشتُها ليلةَ الانطلاق. فها أنا في البيت، وكيرستن في مقهى «تاء مربوطة» تَعْمل على إعداد القافلة المغامِرة كان الغضبُ يَحْفر في عظمي حَفْرًا، والشتائمُ تتطاير (كالعادة) من فمي. كيف يَفْعلون ذلك؟ ولماذا يعرِّضون أنفسَهم لموتٍ (غيرِ محسوب)؟ ولماذا يعرِّضون الحملةَ، حتى قبل نشوئها الفعلي، للانهيار؟ في تلك الساعات قرّرتُ أن أركِّز على وظيفةٍ واحدة: أن أكونَ أبًا! عدتُ إلى سارية ونايْ بعد غياب أيام طويلة، ورحتُ ألعبُ معهم، بعصبيةٍ واضحةٍ طبعًا. وكنتُ، كلَّ دقيقتيْن، أستغلّ الفرصةَ لأتسلَّل إلى التلفزيون بغيةَ الاطّلاع على آخر الجسور المهدَّمة، أو لأكتبَ إلى كيرستن رسالةً خلويةً أَلْعن فيها أباها وأبا الحملة (والأكيد أنّ كيرستن رَدَّتْ بالمثل، بل وكالتْ لي الصاعَ صاعيْن)

الحاصل أنّ القافلة انطلقتْ على بركة اللّه وحده، لا شريكَ له وبعد أن عملتْ كيرستن طوال الليل على إعداد السيارات

١ ـ للتفصيل، راجعْ مقال كيرستن شايد، «صيفٌ بين المطر والرعد،» في هذا العدد

# البحث عن المقاومة المدنية: تجربة شخصية/جماعية

والمعلومات الصحيّة الخاصة بكلّ مشارك، قرّرتْ هي الأخرى عدمَ الذهاب ومثلَها فَعَلَ عددٌ آخر من أعضاء الحملة. وهنا حصلت المفاجأة التي لم نكن نتوقّعها: فقد أَوْقفتْ قوى الأمن الداخلي القافلةَ عند جسر «الناعمة» ومنعتْها من المضيّ بحجّة الخوف على حياتها، مع أنّ القوى المذكورة (التي تأتمر بقرارات الوزير الهُمام أحمد فتفت الذي سيُصْدر لاحقًا أمرًا بتسليم ثكنة مرجعيون للعدوّ) سَمَحتْ لأكثر من مائتيْ سيّارةٍ أخرى بالعبور!

عادت الحملةُ من الرحلة خائبةً. أكان ثمة تقصير في إعلام القوى الأمنية بالرحلة قبل قيامها؟ «رشا» أكّدتْ أنّها اتصلتْ فعلاً بها وأعلمتْها وفي أيِّ حال، هل سنسترجع الآن صورةَ البكباشي جمال عبد الناصر في الفالوجة (فلسطين) حين اكتَشَفَ، بعد مهزلة «الأسلحة المصرية الفاسدة،» أنّه لا يُمْكن تحريرُ فلسطين قبل تحرير مصر (أيْ تغيير النظام)؟ أكان يُمْكن فعلاً تحدِّي الاحتلال الإسرائيلي في الجنوب من دون أيّ اعتبارٍ للحكومة «السوبر حريصة» على أمن القافلة وغيرِ الحريصة أبدًا على أمنِ السيارات المئتيْن الأخرى خارج القافلة؟!

قد أكتب عشراتِ الصفحات الأخرى عن الخطوات الأولى في هذه التجربة الرائدة رغم فشلها في تحقيق هدفها الأساسي - وهو تحدِّي الاحتلال. ففيها تكثّفتْ جملةُ عِبَرٍ سترافقنا وقتًا طويلاً، خاصةً أنّ الحملةَ لم تتوقّف، بل هي اليوم في طورٍ جديدٍ، أكثرَ ريادةً، وأشدّ وعيًا وخَلْقًا، كما سأبيِّن لاحقًا. ولكنْ لا بدّ الآن من ذِكْر دروسٍ سريعةٍ خلّفتْها تجربةُ القافلة المدنية في وعيي

أ - ضرورةُ الالتزام بالقرارات الجماعيّة، بدلاً من التفرُّد والمزايدات والعنتريات.

ب - لزومُ الابتعاد عن أَمْثَلَةِ (أو رَنْطقة) «الوحدة اللبنانية،» أو على الأقلّ ينبغي إبقاءُ الشكوك حيّةً دومًا إزاء السلطة اللبنانية.

ج - الحرصُ على الاستفادة من تجارب المناضلين الدوليين، ولكنْ شرطَ عدمِ الخضوع لتوجُّهاتهم ولا حتى مسايرتها فهؤلاء المناضلونَ المخلصون يأتون للتضامن معنا، غير أنّهم قد ينجرفون إلى محاولةِ فَرْضِ أفكارهم وتجاربهم إنْ رأوْا أنْ لا خططَ واضحةً لديْنا.

د - التشديدُ على التحدُّث بلغةٍ واحدةٍ أثناء النقاشات الداخلية، هي اللغة العربية، لا بلغةٍ أخرى أو بخليطٍ من لغتيْن أو أكثر. فاللغة جزءٌ من التفكير، وهي من ثم جزءٌ من صناعة القرار أيضًا. كما أنّ الحديثَ بالإنجليزية سينفِّر (وقد نَفَّرَ فعلاً) عددًا من اللبنانيين (المشاركين وربما المحتملين) الذين لا يَعْرفونها أو لا يُتْقِنونها. أما بالنسبة إلى المتضامنين الدوليِّين، فعلينا في هذه الحال أن نترجمَ لهم قراراتِنا أو جزءًا من نقاشاتنا **بعد** الانتهاء منها، لا أن نَصْرف وقتًا ثمينًا في ترجمةِ كلِّ شيء.

هـ - عدمُ الحكم مسبَّقًا على الشخص بالاستناد إلى خلفيته السياسية وحدها. فالحقّ أنّ مِنْ بين أعضاء الحملة مَنْ كانوا يُحْسبون قبل ١٣ تموز على جماعة ١٤ شباط، ولكنّ نشاطَهم وكفاحيَّتَهم وإخلاصَهم بَزّتْ مَنْ قد يُحْسَبُ على الخطّ الغيفاري!

❖ ❖ ❖

أثناء العمل على القافلة المدنية كان قلقي يتصاعد يوميًا من حدّة التمذهب الطائفي في لبنان، وفي بيروت حيث أقيم؛ وهو ما أحسستُ أنّه سيشكّل، في حالِ تفاقُمه، طعنةً نجلاءَ في ظهر المقاومة. واتّفقَ أن اتّصلَ بي صديقان، هما باسم حَسَن (بلجيكا) وزينب شرف الدين (بيروت)، وتحدّثا كُلٌّ على حِدَة عن فكرةِ القيام بمظاهرةٍ حاشدةٍ تَجْمع مختلفَ الأطياف السياسية والشعبية اللبنانية تحت شعارٍ واحدٍ («لا لإسرائيل» أو شيء من هذا القبيل) وعلمٍ واحدٍ (هو العَلَم اللبناني). وكما تلاحظون، فإنّ فكرةَ التوحُّد الوطني كانت تدغدغ خيالي في ذلك الشهر الرهيب؛ ومع أنّني عادةً أَميلُ إلى النقد والتدمير، فإنّه يَحْدث أن يصبح الواحدُ منّا أكثرَ سماحةً وأقلَّ تشنُّجًا في لحظاتٍ معيّنةٍ

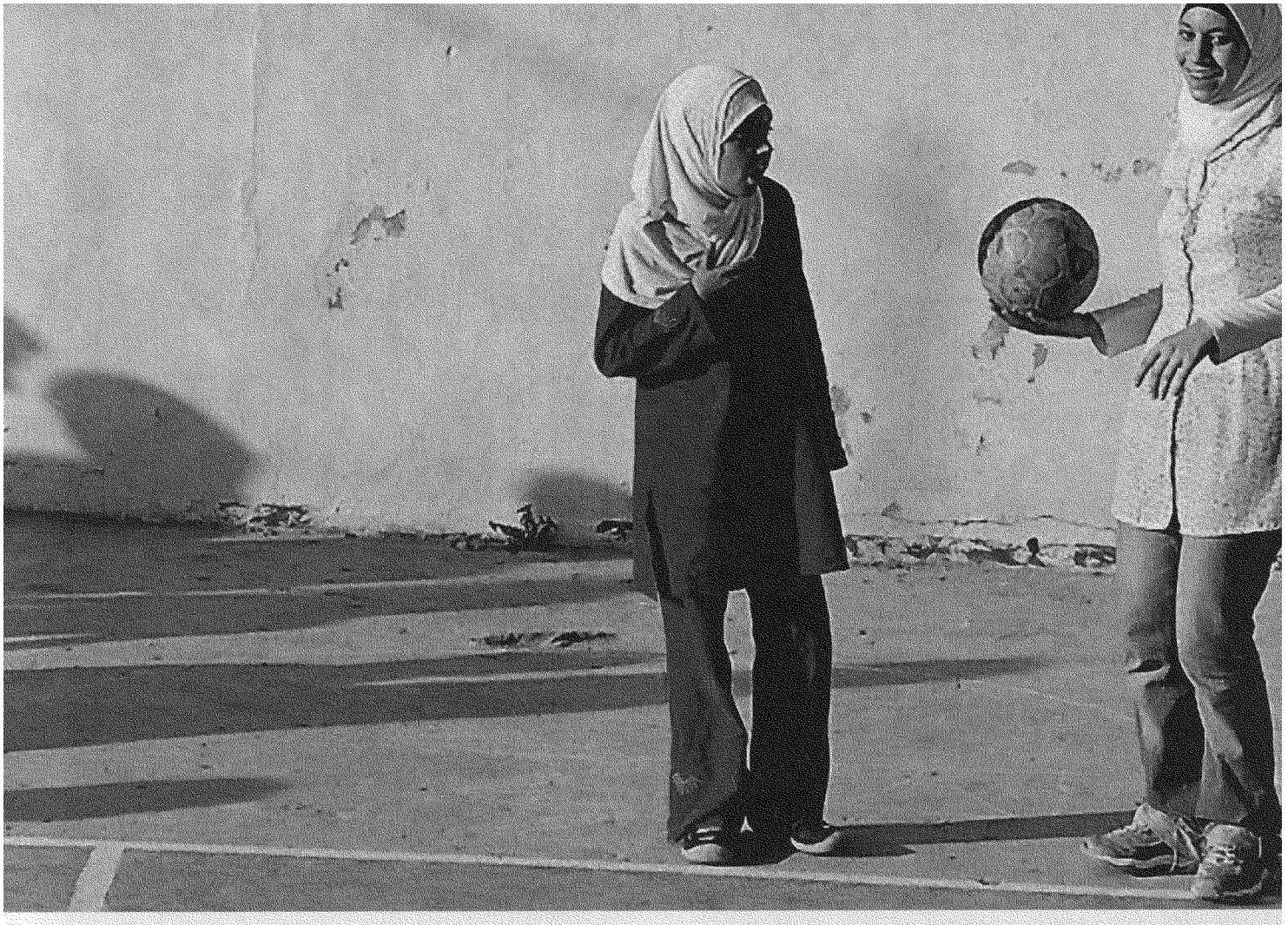

غابرييلا بوليسوفا — فتيات في مدرسة سلعا

من الحرب. وعليه، فقد اتّصلتُ بالصديق د. أدونيس العكرة (أستاذ فلسفة وناشط في التيار الوطني الحرّ) وعرَضتُ عليه فكرةَ مسيرةٍ أسميْتُها «من الشهداء إلى الشهداء» (أيْ من ساحة الشهداء في بيروت إلى الضاحية، حيث دُفن مؤخّرًا شهداء جددٌ يَفُوقون شهداءَ العسف التركي بمرّات). رحّب أدونيس شخصيّاً بالفكرة، ثم اتُّصِلَ بعد يومَيْن فأكّد موافقةَ تيّاره على المشاركة ووعد بإرسال ممثّلة عن التيّار (تبَيَّنَ لاحقًا أنّها ناشطة أكاديمية متميِّزة وواعية). ثم اتّصلتُ بأحد الرفاق في حركة الشعب ـ قطاع الشباب والطلاّب، واتفقنا على عقد اجتماعٍ موسَّعٍ يضمّ ممثلين عن عدد من القوى السياسية والشبابية (الحزب الشيوعي، الحزب السوري القومي الاجتماعي، حزب الاتحاد، حزب اللّه، حركة أمل، اتحاد الشباب الديموقراطي، فضلاً عن حركة الشعب و«التيار» طبعًا)، على أن يقوم رفيق من «الاتحاد» وآخر من «الشعب» بالاتصال بقوى ١٤ شباط/آذار ودعوةِ ممثِّليها إلى الاجتماع في مكتب مجلة الآداب

حان وقتُ الاجتماع ولم يأتِ أيُّ ممثِّل عن كتلة ١٤ شباط/آذار. بل إنّ مسؤول الشباب في أحد أحزاب الكتلة المذكورة أَخبر الرفيقَ من «الاتحاد» بأنّه يريد «فتحَ ملفّي» قبل المجيء للتأكّد من وطنيّتي! رجوْنا الرفيق أن يعاود الاتصالَ بالكتلة، وتطوَّعَ شابٌّ آخر بالاتصال بقنواتٍ أخرى داخل تلك الكتلة، واتّفقنا على لقاءٍ ثانٍ موسّع في نادي الساحة. لكنّ أحدًا من المتغيِّبين لم يأتِ هذه المرة أيضًا. عندها بات واضحًا لدينا أنّ هذه الكتلة لا تريد المشاركةَ في تظاهرةٍ واحدةٍ معاديةٍ لإسرائيل، لا يُرفع فيها إلاّ العَلَمُ اللبناني، بل وتُمنعُ فيها كلُّ الصُّور (كنّا سنَبْذل قصارى جهْدنا للحؤول دون رفع صور السيد حسن نصر اللّه نفسِه لو وافق المتغيِّبون على المجيء).

في اجتماعنا المختصر، نحن عملاء النظام الأمني اللبناني ـ السوري المشترك (كما قد يسمِّينا السياديّون، آكلو السندويتش مع رايس، ومُمْتدحو وولفويتز، ومهنِّئو جون بولتون على إنجازاته، وفارضو الوصاية السورية طوال عقود، والمدافعون عن مسلِّمي ثكنةِ مرجعيون إلى العدوّ، والمطالبون اليوم بقواتٍ دوليةٍ على المعابر السيادية كالمطار)، اقتَرَحَ أحدُهم أن ننسّقَ المظاهرة مع منظّمات المجتمع المدني بدلاً من ١٤ شباط ولكنّنا حين اتّصلنا بممثِّلين عن الهيئة العليا لهذه المنظّمات، تبيَّنَ أنّها لا تشارك في «تظاهراتٍ سياسية»... إلاّ إذا كانت **كلُّ** الأطياف مشاركة!

# البحث عن المقاومة المدنية: تجربة شخصية/جماعية

وهكذا فَرَط المشروع إذ لا مبرِّرَ للتظاهرة أو المسيرة إنْ كانت ستكونُ من «لونٍ واحدٍ» ـ في العُرْفِ الإعلامي السخيف الذي يصنِّف الشيوعيَّ والعَوْنيَّ والإسلاميَّ والقوميَّ والناصريَّ في خانةٍ واحدة هي موالاةُ سوريا وإيران! وكان واضحًا أنّ الشعب اللبناني، الذي تقول أكثريّتُه الساحقة (بحسب «الدولية للمعلومات») أنّ إسرائيل هي العدوّ، لا تستطيع نصفُ قواه السياسية رَفْعَ شعارٍ واحدٍ يَجْمعها بالقوى الأخرى، ألاَ وهو «لا لإسرائيل» . فقط لا غير

أيّ ساذجٍ كنتُ . ولا أزال!

❖ ❖ ❖

بعيْد ١٤ آب بدأتْ «حملةُ المقاومة المدنية» كما ذكرتُ تتّخذ مساراتٍ جديدةً، خلاّقةً، ومتنوِّعةً، وسياسيةً بالمعنى الأعمق لكلمة «سياسة» العملُ مع النّاس، وإفادتُهم، والاستفادةُ منهم كانت العملياتُ الحربية قد توقّفتْ، وإنْ بقيتْ ثمة ألغامٌ ومواقعُ للجيش الإسرائيلي في الجنوب. اتّخذت الحملةُ من منزل رفيقنا وصديقنا بلال الأمين في ديركيفا مقرّاً لها، وراحت تتنقّل من قريةٍ منكوبةٍ إلى أخرى، مركِّزةً على القرى الصغيرة التي لم تَصِلْها أحيانًا وكالاتُ الإغاثة الكبرى

ففي زبقين (بلدةِ الشاعر شوقي بزيع حيث استشهد ١٢ شخصًا بضربةٍ واحدة) قدّمت الحملةُ للمواطنين المياهَ، والأدويةَ (للأمراض المزمنةِ والعناية الملحّة)، ومولِّدًا كهربائيّاً، وملابس وفي سلعا (حيث استُشهد ٨ أشخاص) أُضيف إلى ذلك كلِّه قراءاتٌ للأطفال، وترفيهٌ لهم وفي القنطرة، قدّمت الحملةُ للأهالي مضخّةَ ماء، ووَزّعتْ ملابسَ وحصصًا تموينيةً وفي حُولا قدّمتْ، إضافةً إلى ذلك، موادَّ طبيّة. البارزُ في جميع هذه النشاطات أنّ المشتريات تتمّ من السوق المحليّة، تعزيزًا للحركة الاقتصادية في الجنوب والأهمّ من ذلك كلّه أنّنا الآن نبني صلاتٍ رائعةً مع الناس هناك، نَأْمل ألاّ تنقطع يومًا، وهي صلاتٌ قد بدأتْ تتّخذ أبعادًا جديدةً، لاسيّما في مجال الترويج لمقاطعة السلع الداعمة لإسرائيل، وفي تدريب المعلّمات على تقنياتٍ تربويةٍ حديثة، وفي مساعدةِ الأطفال المصابين بآلامٍ نفسيّةٍ جرّاء الحرب

لن يكون من قبيل الإنصاف أن أسترسلَ في وصف أعمال «حملة المقاومة المدنية» الآن ـ فهي ما زالت في شهرها الأوّل، وستعترضها المشاكلُ والمعوّقاتُ من دون شكّ. ولذلك فإنّني سأترك التوسُّعَ فيها إلى مقالٍ لاحق.

❖ ❖ ❖

توقّفت الحربُ وانتصرت المقاومة .. وإنْ من حيث إفشالُها أهدافَ إسرائيل لا غير. وعدتُ إلى الآداب التي لم أَنْسَها يومًا خلال كلِّ هذه الأحداث وفي الأسبوع الأول من «السلام» الجديد، بدأتُ بإعدادِ هذا الملفّ بمشاركة كيرستن والشباب في دمشق والدار البيضاء ورام اللّه والقاهرة، وفوجئتُ بحجم الإقبال الشديد على الكتابة فيه فالحدثَ هزّ الجميعَ، ويبدو أنّ المقاومةَ الوطنية اللبنانية (الإسلامية) هزَمت الانهزاميةَ في نفوس كثيرٍ من المثقفين.

وإذ أضع اللمساتِ الأخيرةَ على هذا العدد الذي تأخّر صدورُه كثيرًا، فإنّي أستعدّ لحضور الاجتماع الأوّل من أجل التحضير لقيام أسبوعٍ ثقافي كامل هنا في بيروت، منتصفَ تشرين الأول (أكتوبر)، بعنوان «ثقافة المقاومة،» يشارك فيه شعراء ومفكّرون ومُطْربون بهدفِ تعزيزِ الأسسِ الفكريةِ والشعوريةِ لحركة المقاومة اللبنانية والعربية

كانت تلك ملامحَ تجربةٍ عشتُها وما أزال أعيشها وأمل أن تتواصل ـ بأخطاءٍ أقلّ وعزيمةٍ أكبر وموارِدَ أكثر. ودوري كما أراه، ككاتب وناشط، هو أن أبقى في قلبِ العمل المقاوِم، وأن أُفيدَ الناسَ وأستفيدَ منهم

**بيروت**

**د. سماح إدريس**

كاتب وناشط لبناني